روايات معارك

حرب التحرير الوطنية
1962 - 1958

خالد نزار

روايات معارك

حرب التحرير الوطنية
1962 - 1958

تقديم سليمان الشيخ

ترجمة مهنى حمدوش

منشورات الشهاب

منشورات الشهاب. 2002
ISBN : 978-9961-63-457-8
الإيداع القانوني : رقم 1440 /2001

إهـــــداء

إلى مجاهدي جيش التحرير الوطني كله

إلى مجاهدي المنطقة الأولى للقاعدة الشرقية وعشرات الشهداء من أقاربي نزار و بن نزار و سنوسي و إن اختلفت الأسماء فذلك بسبب التغييرات التي أجريت عليها بمقتضى قانون الأحوال الشخصية الذي فرضته السلطات الإستعمارية.

و إلى أقربائي الشهداء بلّة.

مـــقـــدمـــــة

أتيحت لي فرصة التعرف عن كثب على اللواء خالد نزار لما كان عضوا في المجلس الأعلى للدولة وأنا مستشار برئاسة الجمهورية مكلّف بشؤون الثقافة و التربية و الشباب وكان لي أن أقدّر تواضعه و قدرته العالية على الأخذ بالرّأي الآخر خلال الاجتماعات العديدة المخصّصة لدراسة قضايا الساعة الهامّة. عندما طلب منّي كتابة المقدّمة لمؤلّفه، استجبت لهذا الشرف الرهيب، و أنا يساورني شعور ممزوج بالوفاء لذكرى تعاون محمّس في ظروف مأساوية حلّت ببلدنا وخشية عدم الوفاء لروح النصّ.

الكتاب ثاني مؤلّفين للّواء نزار[1] وهو شهادة ودفاع عن قضية في آن واحد، يكتسي أهمّية جليّة، ذلك بأنّ الحصّة المخصّصة لروايات المعارك محدودة نسبيّا ــ على الأقلّ من الجانب الجزائريّ ــ وسط الكمّ الضخم من الكتب المؤلّفة حول ثورة التحرير الوطنية والصادرة في الجزائر.

إنّ التوضيح الوارد في هذا الكتاب، والمتصل بالنشاط العسكريّ لجيش التحرير الوطنيّ على الحدود الشرقية للبلد، لمساهمة من الفائدة بمكان من أجل استعادة جزء هامّ من هذه الحرب التي لم تعترف بها فرنسا رسميّا كحرب حقيقية سوى في 1999[2].

---

[1] جاء كتابه الاول " مذكرات اللواء خالد نزار " الصادر عن دار الشهاب في1999، في صيغة سيرة ذاتية و اختلاج انقلابات تاريخ حامية في التسعينيات.

[2] في جلسة 10 جوان 1999. لمجلس الشيوخ الفرنسي الذي وافق على تغيير عبارة " العمليات التي جرت في شمال إفريقيا " بعبارتي " حرب الجزائر " و " معارك في تونس و المغرب " للتأكيد

إنّ اعترافا كهذا، بعد أربعين سنة من اندلاع الثورة في فاتح نوفمبر 1954، لتأكيد متأخر على واقع فرض نفسه على الساحة عبر نزاع استوجب من فرنسا تجنيد قوى عسكرية هائلة عدّة و عتادا. يجدر بنا التذكير في عجالة بأن هذه الحرب التي تدخل في نطاق الكفاح من أجل تحرير الوطن إنما نتيجة لعملية نضج طويلة بدأت بالمقاومة المسلحة ضد الاحتلال الاستعماري في القرن التاسع عشر و تواصلت بعد الحرب العالمية الأولى بالنشاط السياسي للأحزاب الممثلة للحركة الوطنية الجزائرية، و منه، فثورة التحرير الوطني، ثمرة هذا "التراكم التاريخي"، و ملخص للمراحل الآنفة، إذ زاوجت بين الكفاح المسلح و النشاط السياسي المنظم. فضمت الثورة بالتالي إلى أحضانها شعبا برمته في نضال تحريري موحد قام عبر التراب الوطني كله و امتد إلى ما وراء الحدود.

باعتماد هذه المقاربة الشاملة، يدعو الكتاب إلى تجاوز الخلافات التي يغذيها "داء التجزئة" بين جيش التحرير في الداخل و جيش الحدود، و بين المجاهدين الفارين من الجيش الفرنسي و الآخرين، يبرز الكاتب من خلال روايته لمختلف العمليات التي تم خوضها على الحدود الشرقية للبلد ضد الجيش الفرنسي، مشاركة كل المقاتلين في هذه المعارك، يتقاسمون مع إخوتهم في السلاح قساوة القتال غير المتكافئ و الأخطار المحدقة نفسها أمام الموت.

لقد آلت هذه التجربة بالتأكيد إلى حبك علاقات وطيدة أتت على الفوارق، و تؤكد ذلك بجلاء بعض التفاصيل التي قد تبدو تافهة من أول وهلة كقطعة الخبز التي يتقاسمها المجاهدون و علبة الحليب المحاطة بسلك حديدي، و المستعملة لطهي القهوة، و السجائر المرتجلة المصنوعة من الأوراق الجافة الملفوفة في ورق الجرائد و أكثر عمق من هذا و ذاك، الأقدام التي تترف دما من فرط المشي المرهق و السير ليلا في منطقة تتخللها المستنقعات العاجة

على الفرق بين الحالة الجزائرية و حالة البلدين المغاربيين الآخرين. خصت التعديلات المادتين الأولى و الخامسة من قانون معاشات العسكريين معطوبي الحرب و ضحايا الحرب.

بالبعوض، و نقل الرفيق الجريح، و الخوف المتغلّب عليه، و السكوت المتحسس. كل هذه العناصر تلخص مصيرا تحمّل المجاهدون وزره على ضفتي الحدود.

تروي شهادة اللواء نزار علاوة على سرده لمشواره الخاص منذ فراره من صفوف الجيش الفرنسي في أفريل 1958، إلى تعيينه في مختلف وحدات جيش التحرير الوطني في الحدود الشرقية، تروي كذلك جوانب من مغامرة جماعية على اختلافها عيشت في غمرة أحاسيس قوية تسترعي منّا عددا من الملاحظات، تخص أولاها الدور الاستراتيجي الذي أداه جيش الحدود إبان ثورة التحرير الوطني. و الحال أن الصورة المقزّمة لجيش قاصر تتلاشى أمام الوقائع الواردة في روايات المعارك هذه. و لئن كانت ظروف الكفاح أكثر قساوة في الداخل، فإن العمليات التي تم شنها على الحدود ضد الجيش الفرنسي عرّضت المجاهدين إلى نفس المخاطر إذ أبدوا نفس الشوس و روح التضحية في القتال، و خير دليل على ذلك أن المناطق الحدودية، في الغرب كما في الشرق، كانت إلى غاية بناء خطي شال وموريس بمثابة فضاءات للانسحاب بالنسبة إلى الولايات المتاخمة، أقامت كل منها فيها قاعدتها الإمدادية. و كانت وحدات جيش التحرير الرابضة فيها تحت سلطة هذه الولايات عينها. ولم يتجسد التنسيق بين هذه الوحدات سوى عقب إقامة قيادتي العمليات العسكرية في الحدود الشرقية [3] و الغربية[4] إثر الدورة الثانية لمجلس الثورة المنعقدة في القاهرة من 20 إلى 28 أوت 1957. بيد أن المهمة كانت أصعب بالنسبة إلى القيادة العسكرية للشرق التي جابهت عمليات تمرد عدّة. و لقد انعقدت الدورة الثالثة لمجلس الثورة في طرابلس بين 16 ديسمبر 1959 و 18 جانفي 1960 في هذا السياق بالذات[5] إذ اتخذ، من بين ما اتخذ إبانها من

---

[3] تحت قيادة العقيد ناصر (محمدى السعيد).

[4] تحت قيادة هواري بومدين.

[5] برزت الأزمة باستقالة الحكومة المؤقتة التي تقدم بها فرحات عباس في 10 جويلية 1959.

قرارات هامة[6] ، إحلال هيئة أركان عامة محل قيادتي العمليات العسكرية بما يكفل وحدة قيادة جيش التحرير قاطبة.

خطا الجيش خطوة جديدة إثر إنشاء قيادة الأركان العامة بهيكلة جيش الحدود، وبالتحديد الحدود الشرقية المنقسمة إلى منطقتين: واحدة في الشمال تحت قيادة عبد الرحمن بن سالم و الأخرى في الجنوب يترأسها الصالح سوفي. تم القيام بعد ذاك بعمل منهجي لتنظيم جيش منضبط و مؤطّر أشد التأطير، مدرّب و مدعم بإمكانات معتبرة.

بلغ عدد الجنود ضعف ما كان عليه في 1960 أي 15 000 رجل تقريبا، فأصبح تعداده 10 000 رجل في الحدود الغربية و ما يزيد عن 20 000 في الحدود الشرقية. من بين خصائص هذا الجيش انه جمع جزائريين أتوا من كل أصقاع البلد و من مختلف مناطق المعمورة بخاصة من البلدان المجاورة وأوروبا. لقد كانت المناطق الحدودية بالتالي قطبا مهما جلب إليه مناضلين تجندوا في كنف جيش التحرير فأصبحت منطقة تجمّع واسع النطاق لمختلف شرائح المجتمع الجزائري.

بلغ جيش الحدود، لّما حقق صعوده بقوة، مستوى نوعيا في الأداء و العصرنة بدفع من العقيد هواري بومدين الذي استند إلى كل الكفاءات العسكرية المتوفرة، إن الضباط الذين تم تكوينهم في بعض البلاد العربية كمصر و العراق و الأردن و سوريا، أو أولئك الذين فروا من الجيش الفرنسي. و لقد نقل هؤلاء الملمّون بطرائق التنظيم و فن الحرب لدى العدو معارفهم العسكرية

---

[6] خاصة المصادقة على نصين تاسيسيين هما " المؤسسات المؤقتة للدولة الجزائرية " و " القوانين الاساسية لجبهة التحرير الوطني ". و كذا انشاء اللجنة الوزارية المشتركة لشؤون الحرب التي كانت تضم ثلاثة وزراء من الحكومة المؤقتة وهم كريم بلقاسم و عبد الحفيظ بوصوف و الاخضر بن طوبال.

لفائدة جيش التحرير إذ قلبت " الجدلية الاستعمارية " المنتهجة الوضع مثلما فعلت باللغة الفرنسية التي اصبحت " غنيمة حرب " استعملت كأداة لمحاكمة الاستعمار و التعبير عن المشروع الوطني.

كان التنظيم و التكوين من أهم الوسائل التي مكنت وحدات جيش الحدود من تعزيز انسجامها و رفع مستوى الكفاءات فيها، فلقد كان مركز "ملاق" على الحدود التونسية تحت القيادة النشيطة لعبد الحميد عبد المؤمن أحد أبرز مراكز التدريب العسكري والترويض على استعمال مختلف الأسلحة و بخاصة تلك الثقيلة التي تعززت بها الفيالق والكتائب الثقيلة للمناطق، و قد بلغ عددها عشية الاتفاق على وقف إطلاق النار سبعا في غضون عامين. إن هذا لترجمة للمجهود الجبار الذي بذل من أجل تحقيق اداء كهذا في ظرف زمني بهذا القصر، حتى إن مركز "ملاق" استقبل ثوارا من أنغولا تلقوا فيه التدريب العسكري و التعود على حرب العصابات. و ليس بعيدا عن "ملاق"، سمحت مدرسة تكوين المحافظين السياسيين "بقرن حلفايا" برفع الوعي السياسي لجيش التحرير بأن حددت موقع النضال التحرري في مجرى التاريخ الوطني و العالمي في آن واحد، و بتخويل الثورة المسلحة بعدا سياسيا يخضع العنف للأهداف المرسومة و أخلاقيات المشروع الوطني.

سمحت كل هذه التطورات المنجزة على مستوى التنظيم و التكوين و الإمداد لصالح وحدات جيش الحدود بتكثيف تدخلاتها في الميدان، بدءا بالمساعدة على اجتياز الحواجز المكهربة و انتهاء بخوض عمليات واسعة النطاق. ناهيك عن المناوشة المستمرة للمراكز الحدودية الفرنسية.

أسهمت هذه العمليات على اختلافها في حشد جزء كبير من النظام العسكري الفرنسي المشكل من وحدات خاصة على طول التخوم، مدربة على التصدي لحرب العصابات وتنظيم الدفاع على حد سواء، فكانت النتيجة أن شكلت "حرب الحدود" تدريجيا أكبر ميدان مجابهة إثر عمليات مخطط شال على التراب الوطني برمته.

مثّل اجتياز الحاجز المكهرب إحدى أهم الأهداف الاستراتيجية لجيش الحدود الذي أنيطت به مهمة تموين الولايات المعوزة بالسلاح و الذخيرة.
و لقد ألحت الدورة الثالثة لمجلس الثورة على هذا الدور، إذ أعطيت الأولوية لدخول الجنود و الضباط إلى التراب الوطني للالتحاق بولاياتهم الأصلية و تؤكد شهادة نزار الصعاب التي جابهت المجاهدين في تأديتهم لهذه المهمة و التضحيات الجسام التي قدموها. لقد قدرت الخسائر في الأرواح بمعدل ثلثي عدد المجاهدين الذين تم تجنيدهم للقيام بعمليات الاجتياز، و إن الوصف الدقيق لعملية قطع كُمَندو حيدوش الحدود الشرقية عبر خط موريس يوم 24 جوان 1959 والعاقبة الوخيمة التي آلت إليها العملية، لتبرز صعوبة مهمة أقرب ما تكون إلى الاستحالة، ما يزيد بعض المحاولات الناجحة جدارة و استحقاقا، خاصة منها تلك التي تمت بمقتضى قرار مجلس الثورة على يد العقيد الطاهر زبيري و الرائد أحمد بن شريف، بينما نجح العقيد لطفي في اجتياز الحدود على أنه لقي حتفه إثر اشتباك مع الجيش الفرنسي في بشار.

كللت محاولات أخرى بالنجاح بعد ذلك بفضل دراية أفضل بالميدان و تحكم أكبر في تقنيات تقويض الخطوط المكهربة و العثور على الألغام، و كذا الاستعمال المحكم لعمليات التضليل المختلطة.

تمثل النوع الثاني من العمليات التي خاضها جيش الحدود في مناوشة المراكز العسكرية الفرنسية على طول التخوم من أجل تشديد الضغط على الجيش الفرنسي عن طريق مضاعفة الهجمات ضد المعاقل و المدرعات و قد كانت "تعامل" معاملة خاصة بالبازوكا.

ان اعتماد الأسلحة ذات المدى الطويل كالمورتر عياري 106 و 82 مم و مدافع 75 و57 مم و تطور تقنيات المدفعية بما يكفل التصويب غير المباشر أو الرمي فوق الحاجز، بل واستعمال مدافع 85 و 122 مم و قاذفات اللهب في أواخر الحرب، سمح لجيش التحرير برفع قوته النارية و قدرته الهجومية، على أن ذلك أدى إلى رد فعل مكثف من قبل العدو على مواقع جيش التحرير

باعتماد المدفعية الثقيلة، مما أجبر المجاهدين على خوض المعارك دون هوادة و تغيير مواقعهم باستمرار و حفر مخابئ عميقة لتحاشي وابل النيران التي كانوا يتعرضون لها.

لقد كانت "حرب الحدود" اسما على مسمى بالنظر إلى مختلف أوجهها و جسامة الخسائر التي تكبدها كلا الجيشين. تعطي الرواية المفصلة و الحية للعديد من العمليات التي تم شنها ضد المراكز العسكرية لمحة عن الوتيرة المستمرة للمعارك التي دارت رحاها في الحدود الشرقية، و قد زادت تصعيدا عشية وقف إطلاق النار، فلقد شن جيش التحرير عملية شعواء في المنطقة الحدودية دامت من 6 إلى 13 مارس 1962. و لئن استهدفت هذه العملية احتلال مواقع مواتية في الميدان تحسبا للاستقلال الوشيك، فإن غايتها كمنت في إثبات وجود جيش التحرير عسكريا و سياسيا في سياق المرحلة الأخيرة للمفاوضات الجارية في إيفيان آنذاك. و انتهى الهجوم إلى تعزيز موقع المفاوضين الجزائريين و قد كان ترجمة لتشدد هيئة الأركان العامة حيال هذه المفاوضات.

لمح الكاتب إلى النزاع الذي قام بين هيئة الأركان العامة و الحكومة المؤقتة فقط للتأكيد على معاينة مريرة: لقد فتح الثورة التحريرية و ختمها نزاعان داخليان، أولهما مس الحركة من أجل انتصار الحريات في سنتي 1953 ــ 1954 و انتهى إلى نتيجة حميدة تمثلت في اندلاع الثورة المسلحة في الفاتح من نوفمبر 1954، و ثانيهما وقع غداة الاستقلال، وألحق بالبلد عواقب مستديمة. لكن الكاتب يكتفي بما يعنيه، أي الجانب العسكري للعمليات التي خاضها جيش التحرير و التي شارك في معظمها.

و لقد تعددت تلك المعارك، بالنظر إلى أهميتها والقدرات البشرية و المادية التي تمت تعبئتها، إطار حرب العصابات إذ اقتبست من وسائل الحرب الكلاسيكية مختلف المناورات الخاصة بالمجابهة.

يروي الكاتب معركة سوق أهراس التي لم يشارك فيها شخصيا، انطلاقا من شهادات[7] ضباط من الجيشين المشاركين في القتال غير المتكافئ، جابه فيه المجاهد الواحد مقابل اثني عشر جنديا فرنسيا. أفضت المعارك التي دارت في ضواحي سوق أهراس من 27 أفريل إلى 3 مارس 1958، إلى خسائر جمة في الأرواح البشرية من كلا الجانبين إلى درجة أن أحد الضباط الفرنسيين الذين شاركوا فيها شبهها بمعركة "فيردان" الشهيرة.

كان هذا النوع من النشاط الذي أودى بالكثير من الأرواح امتدادا للغاية التي سطرها مؤتمر الصومام الرامي إلى تعميم الانتفاضة و تشكيل فيالق بهدف مجابهة القوى العسكرية الفرنسية الند للند. و إن الهجوم الكبير الذي شنه جنود جيش التحرير بما يربو عن ثلاثة فيالق ضد المركز العسكري لعين الزانة في 14 جويلية 1959 لمثال آخر على ذلك. و لقد كتبت صحيفة المجاهد في افتتاحيتها تثني عليها مدحا و علقت عليها على أنها انتصار تاريخي[8]. و مع ذلك، فإن عدم التوازن في القوى لم يدع بدّا من العودة إلى انتهاج حرب العصابات، و هي أكثر أقلمة بحكم اعتمادها خفة الوحدات الصغيرة النشطة عبر عمليات خاطفة مباغتة.

لم تكن هذه الاستثناءات عن القاعدة ممكنة سوى بوسائل بشرية و مادية تزودت بها وحدات جيش التحرير العاملة على الحدود الجزائرية التونسية. إن معركة جبل الحمراء التي شارك فيها الكاتب و التي استوجبت تجنيد ثلاثة فيالق

---

[7] وردت المعركة ذاتها في مقطع من كتاب ابراهيم العسكري الصادر باللغة العربية، " لمحات من سير الثورة التحريرية الجزائرية و دور القاعدة الشرقية "، عن دار النشر البحث، قسنطينة، 1992 ، الصفحات 186 - 188

[8] ارجع الى المجاهد في عددها 46 المؤرخة في 20 جويلية 1959 التي نشرت في هذا الشأن البيان الصادر في 16 جويلية 1959 الذي أجرى حصيلة عن هذه العملية الهامة و كذا تصريح الرائد ايدير للصحافة. يجدر التوضيح بأن جيش التحرير الوطني لجأ لأول مرة بمناسبة هذا الهجوم الى سلاح البازوكا و مدافع 57 مم غير المرتدة بشكل مكثف.

واحد منها للدعم، مثل حي على ذلك. و قد ذكر المؤلف حالة أخرى تتمثل في الهجوم الواسع الذي تم شنه في 28 نوفمبر 1960 تحت قيادة مسؤول المنطقة الشمالية عبد الرحمن بن سالم، استهدف مراكز بورنان و القوارد و الحمري. كللت العملية المزدوجة، و قد جند من أجلها ما يعادل ثمانية فيالق تابعة لجيش التحرير، بنجاح الفيلق التاسع عشر في هجومه على مركز خميسات تحت قيادة سليم سعدي[9] .

واضح أن العمليات التي ذكرها اللواء نزار تقتصر في معظمها على المعارك التي شارك فيها إذ يروي – دون ازدهاء – الانتصارات التي أحرزها جيش التحرير و الهزائم التي مني بها والتخمينات الصائبة و الأخطاء الفادحة على السواء. هذه الحالات، على العموم و على اختلافها، لا تعطي سوى لمحة عن تنوع العمليات التي شنها جيش الولايات و إعادة النظر جزئيا في إحكام السدّ على الحدود الذي كان من شأن خطي شال و موريس أن يضمناه بحيث يفرضان حربا مغلقة بما يبعد شبح حادثة ساقية سيدي يوسف المحرجة، ذلك أن الهجوم السافر على هذه القرية التونسية في 8 فيفري 1958 عجّلت في تدويل القضية الجزائرية في المحافل الدولية و سرّعت انهيار الجمهورية الفرنسية الرابعة. لم يوقف إغلاق الحدود بواسطة الحواجز المكهربة، مع ذلك، توغّلات الجيش الفرنسي داخل الأراضي التونسية و المغربية بحجة "حق المتابعة" و بفعل الضربات الموجعة التي كان يلحقها به جيش الحدود. لم تنفك الحرب تتعدّى الحدود الإقليمية للبلد و تستوقف المجموعة الدولية، ما يؤكد مدى جسامة عواقب نزاع ذي الأبعاد المختلفة الأشكال.

---

[9] الذي نشر شهادته في جريدة لوماتان تحت عنوان " مرت اربعون سنة على عملية الحمري. رواية معركة".

حتى إن كانت تنم عن تجربة شخصية ليس إلاّ، فإنّ لشهادة اللواء نزار أهمية، ليست تاريخية و حسب بل إنها تخول روايات المعارك هذه عمق الواقع المعيش و بعدا إنسانيا لا يستهان به بحكم سرده المباشر للأحداث و توخيه الدّقة.

بديهي أن الوقائع الواردة في الكتاب قد تلقى أصداء متباينة، بل و قد تدعو إلى الجدل، لكن الكاتب لا يزعم لا كتابة التاريخ و لا إيجاد أجوبة جازمة على بعض التساؤلات. لقد أدى اللواء نزار عبر شهادته "واجب الذاكرة" المفروض معنويا على كل الذين ساهموا في الثورة التحريرية، و يسعه في هذا الدأب أن يعتبر بأنه قد أتم مهمته بحيث أوهب للمؤرخ مادة للبحث و التحقيق، و المؤرخ مقيد من جهته "بواجب الحقيقة".

سليمان الشيخ

ملاحـــظة المؤلـــف

روايات معارك سرد لبعض العمليات ليس كلها – إذ آثر المؤلف أن لا يسهب في تعداد المعارك حتى لا يبدو الكتاب شاملا، بل ومضجرا في بعض الأحيان، بيد أنه رأى من المفيد والضروري أن يعيد إلى الأذهان ما كان يواجهه المجاهدون من قصف بالطائرات والمدافع ليل نهار كلما عثر العدو على مواقعهم واقتفى أثرهم.

كانت الهجمات على مراكز الجيش الفرنسي يومية تقريبا ، في حين أضحى اجتياز خطّي شال وموريس أمرا معهودا أخفق بعضه، إما جراء الكمائن التي كان العدو ينصبها، وإما بسبب العراقيل العديدة التي كان يضعها كيفما شاء.

يروي المؤلف وقائع معيشة ويذكر شهادات لبعض من شارك في تلك المعارك ممن لا يزال على قيد الحياة. ويلفت الانتباه إلى أن العمليات الواردة في الكتاب إنما هي متعلقة بحرب العصابات التي نادرا ما تشبه تلك التي يتم خوضها في الحروب التقليدية، فحرب العصابات عملية مسلحة يتصدى بها الضعيف للقوي، وهي موجودة منذ غابر الأزمنة، وليس العرب من أبدعها. وحرب العصابات هي الوسيلة الأساسية لخوض غمار كفاح متعدد الأوجه يشمل عددا من السبل، تعد المقاومة الشعبية والجهود السياسية والدبلوماسية والاتصال من بين أهم محاوره، ذلك أن هدف كل كفاح من هذا القبيل يكمن في استنزاف قوى العدو من أجل دفعه إلى الخضوع.

لقد كانت حرب الجزائر طويلة شاقة حملت في طياتها من العذاب ما لاتحمله سوى الحرب من أجل التحرير، ولم يسمح بتحمل كل تلك المعاناة غير شباب

ألقوا بأنفسهم في نيران الحرب المشتعلة في مقتبل عمرهم ومقاومتهم الشرسة وإيمانهم الراسخ بقضيتهم العادلة، فكان مصيرهم أن هزموا العدو.

يشجب الكاتب شجبا قاطعا وتاريخيا تلك التصريحات التي تترع إلى تشويه صورة فئة من المجاهدين لزرع التفرقة، مع أنه كان يربط بين هؤلاء كلهم مصير مشترك يتخلله هدف سام ووحيد هو الدفاع عن الأمة.

إن مقاومة شعبنا على مر الألفيات، وإلى غاية هذه السنوات الأخيرة، لتدعونا إلى التفكير؛ فلقد جعلت منا جزائريين كاملين غير منقوصين، ثم إن العولمة الجارفة التي لا ترحم الضعيف، تفرض علينا أن نستعد لها خاصة عبر توفير تعليم ملائم لشبابنا.

إن حياة أبنائنا مرهونة بهذا التحدي وكلنا معنيون به. وإنه لحري بنا أن نكافح من أجل مستقبلهم .

تـــمـــهـــيـــد

كانت الستينيات مرحلة اتصالات سياسية بين فرنسا والحكومة الجزائرية المؤقتة؛ إلا أنّ لا أحد في الجبل كان يعيرها اهتماما حقيقيا؛ فالحرب كانت أمامنا واقعا ملموسا أكثر من ذي قبل، وخير دليل على ذلك تصريح الجنرال ديغول حول "سلم الشجعان " هذا مقطع منه : " أقول بكل وضوح : إن أغلب الرجال المتمرّدين قد حاربوا بشجاعة لقد حان الوقت لنركن إلى سلم الشجعان. وإنني لمتأكد بأن الأحقاد ستنمحي مع مرور الزمن. لقد نطقت بعبارة سلم الشجعان، فماذا أعني بها ؟ أعني ـــ ببساطة ـــ أن يكف أولئك الذين أطلقوا النار عن ذلك، وأن يعودوا إلى ذويهم ويباشروا أعمالهم دون إهانة إن الحكمة الحربية القديمة تستعمل راية البرلمانيين البيضاء منذ القدم، عندما يراد أن تضع الحرب أوزارها. وأنا أجيب بأن المحاربين في هذه الحالة سيحظون بالاستقبال الحسن ويعاملون بشرف. وأما عن التنظيم الخارجي الذي يجهد من وراء الحدود لقيادة الكفاح، فأكرر بصوت عال ما سبق وأن أعلنته : إذا تم تعيين مندوبين يأتون للتفاوض مع السلطة قصد وضع حد للحرب، فما عليهم إلا أن يتصلوا بسفارة فرنسا في الرباط أو تونس، وستضمن نقلهم إلى فرنسا حيث سيلقون حماية تامة، ولهم حرية العودة دون قيد.

يتساءل البعض : " لكن ماهي الشروط السياسية التي قد تقبل الحكومة أن يتم التفاوض حولها ؟ أما أنا فأجيب بأن الإدارة السياسية للجزائر موجودة في الجزائر نفسها، وأن تخويلنا الحق في استعمال السلاح لا يعني أنه يجوز لنا التصرف به كيفما شئنا، فعندما يكون سبيل الديمقراطية مفتوحا لا نقبل سبيلا سواه ".

إن تصريحا كهذا يعزز اعتقادنا بأن لاشيء غير الحرب كان من شأنه أن يفضي بنا إلى الاستقلال، وذلك أن هدف الثورة لم يكن ما كانت فرنسا تدعو إليه في ظل سلطة ديغول. إذا نتساءل لماذا ضحينا بهذه الجحافل من الأرواح على مدى أجيال من أجل الوصول إلى وضع كهذا ؟ الحل الوحيد كان يكمن في مواصلة الحرب على الرغم من أن الأحوال العسكرية والسياسية في الداخل كما في الخارج كانت لا تدعو للتفاؤل، إذ تفاقمت الأزمة بين الولايات، فكانت الأسلحة المخزونة بأعداد هائلة تصل إلى الحدود والولايات بشحّ. ناهيك عن استشراء الجهوية والنزعات العصبية عبر البلد في وقت كانت فيه هذه الشوائب أكثر تفشيا في أعلى هرم النظام، بما في ذلك الحكومة المؤقتة، فانتشرت عدواها إلى الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري والحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية والمركزيين وجمعية العلماء ومن إليهم. تصدّعت المناطق باستثناء الأولى والثانية. فانشقّ علي حنبلي وحمالو وتآمر العقداء ضد الحكومة المؤقتة شهرين بعد تشكيلها، وطالما بقيت الوحدات التي تم إحضارها من الولايات الداخلية خاملة في معسكرات بتونس، ولم نكن ندري دائما لماذا تم حشد تلك المجموعات هنالك.

هذه الأحداث كلها تبرز المأزق السياسي والعسكري الذي كانت الثورة تعمه فيه. وفي ذات الوقت، لم تبق قيادة الأركان الفرنسية مكتوفة الأيدي، إذ شنت عمليات هجومية منذ 1959. ولقد صرح ديغول في أفريل من نفس السنة قائلا : " أعتبر أنه يمكن الوصول إلى حل عسكري للقضية الجزائرية؛ لأن الحواجز التي أقيمت على الحدود تؤدي دورها كما ينبغي، فيمكننا بالتالي التخلص من الخصم في وقت ليس بطويل.

أعدت قيادة الأركان الفرنسية العدّة فباشرت عمليات "كروا" و "إيتانسيل" و"جيمال" ثم "بيير بريسيوز"، مهمتها تمشيط جبال الزكّار ومرتفعات البليدة والحضنة والقبائل. وأما عملية "بيير بريسيوز" فانقسمت إلى

ثلاث : "توركواز" التي استهدفت سلسلة جيجل الجبلية، و"إمرود" القل، و" توباز" الإيدوغ.

رضا مالك، في كتابه "الجزائر في إيفيان" في فصله المعنون "الانطلاقة الجديدة"، حول الإجراءات التي اتخذها المجلس الوطني للثورة الجزائرية ومجموعة العشرة، وكلهم عسكريون، قائلا : " لم تكن آفاق المفاوضات على أية حال لتصرف نظر جبهة التحرير عن الوضع السائد في الداخل. كان اجتماع العشرة متواصلا وكان الوقت وقت الحصيلة و إشكاليات التقويم وتعزيز القوة العسكرية الكامنة وعودة القيادة إلى الداخل. وعقبت مؤامرة الزرق "لابلويت" في الولايات : الثالثة والرابعة والسادسة تعليمات صدرت عن الحكومة وقيادات الأركان الشرقية والغربية وممثلي الولايات، في نفس الوقت، لكل المسؤولين في الداخل، تضمنتها وثيقة مؤرخة في 16 أوت1965 .

تتلخص في النقاط التالية : الكف عن التعذيب والامتناع عن اللجوء إلى الإعدام دون سابق إذن من السلطة المسؤولة، ومنع مسؤولي الولايات من الحكم بالإعدام في حق الضباط وضباط الصف دون استشـــارة قيادة هيئة الأركان. ولفتت الوثيقة الانتباه إلى ضرورة خلق مناخ تسوده الثقة بالقضاء على الشكوك التي زرعها العدّو.

أنشأ العشرة لجنة عسكرية مكلفة بوضع استراتيجية لجيش التحرير، اجتمعت من 31 أوت إلى 3 سبتمبر 1959 وكانت تضم كلا من بوصوف وقائدي الأركان الغربية والشرقية محمدي السعيد وبومدين والرائد أحمد قايد واتفقت على الأهداف الاستراتيجية التالية :

- تحطيم الحواجز المكهربة.
- ضم الحركة باستعمال كل وسائل الإقناع.
- تحطيم القوة الاقتصادية : مخطط قسنطينة والبترول وطرق الاتصال.
- توسيع نشاط جبهة التحرير وجيش التحرير الوطنى إلى المناطق الصحراوية.

- القيام بعمليات عسكرية على الأراضي الفرنسية.
- تنصيب قيادة الثورة في الداخل.

واتخذ العشرة قرارات بالغة الأهمية صادق عليها مجلس الثورة الجديد في اجتماعه بطرابلس لمدة ثلاثين يوما: من 16 ديسمبر إلى 18 جانفي 1960.

دعا مجلس الثورة – علاوة على المصادقة على قانون أساسي لجبهة التحرير وبرنامج ومشروع لإقامة مؤسسات مؤقتة للدولة الجزائرية – إلى تصعيد الكفاح باعتماد عدد من الإجراءات : التقشف والصرامة في النفقات وخلق لجنة لإدارة الشؤون الحربية "CIG" تجمع عدة وزارات، وتضم كريم بلقاسم وبن طوبال وبوصوف، على أن تحلّ اللجنة محلّ وزارة القوى المسلحة؛ ومن بين الإجراءات كذلك إنشاء قيادة أركان عامة تقوم مقام قيادات الشرق والغرب يرأسها بومدين، وتقسيم منطقة الحاجز المكهرب في الشرق إلى قطاع عملي للعبور وآخر لمناوشة العدو، وإجبار الجنود والإطارات الذين مكثوا أكثر من ستة أشهر في الخارج بالعودة إلى أرض الوطن ".

نلاحظ من أول وهلة أن أغلب هذه الإجراءات التي اتخذها مسؤلو جبهة التحرير يستحيل تجسيدها على أرض الواقع لسبب بسيط هو أن السواد الأعظم من المسؤولين الذين شاركوا في الاجتماع لم يهتموا أبدا بالواقع العسكري، جاهلين تماما ما كان يدور في ميدان الرّحى، فلم أر مسؤولا قط من بين هؤلاء، وأنا نائب عسكري للمنطقة ثم قائد فيلق، يأتي فيجري اتصالات مع العسكريّين، والحال أنه لو بادر أحدهم بذلك لرفع من معنويات الجنود. وإن اتخاذ قرار بالإجماع مفاده حث الجنود والإطارات المقيمين بالخارج أكثر من ستة أشهر على الدخول وإقامة قيادة ثورة في الداخل يبرز الهوة الموجودة بين السياسيين والعسكريين.

وكانت عاقبة تلك القرارات تفعيل حواجز العدوّ والاستخفاف بقلة التحضير العسكري والبدني لجنودنا. أما القرار الوحيد الصائب الذي تم اتخاذه فهو ـــ في رأيي ـــ ذلك المتعلق بإنشاء هيئة أركان عامة على رأس جيش

التحرير، مع أنه كان من الأجدر التفكير في ذلك من قبل، لتفادي الشروخ التي كادت تعصف بجيش التحرير؛ وتحديد استراتيجية من شأنها أن تتصدى لقيادة الأركان الفرنسية أو تضايقها على أقل تقدير.

لما استدعيت يوما إلى مركز قيادة المنطقة الثانية للقاعدة الشرقية رأيت، لأول مرة، كريم بلقاسم وهو يخطب في جنود من الولايات الثانية والثالثة وآخرين من القاعدة الشرقية كانوا مجتمعين، يحضهم على الالتحاق بالداخل، أظنه أتى كي يطبق قرارات مجلس الثورة.

كان كريم بلقاسم يتحدث وكأن الأمر يتعلق بإعطاء إشارة انطلاق مقابلة رياضية، متجاهلا تماما حقائق الميدان والتدابير اللازم اعتمادها من أجل العبور. فتوثّق لديّ تحفّظي تجاه السياسيّين الجاهلين لوضعنا العسكري مقارنة بوضع العدوّ. والدليل على ذلك أن لا معلومة ولا تعليمة بلغتنا يوم تحضير خط شال وبنائه. يجب أن أعترف أن ما إن اعتلى بومدين قيادة الأركان حتى تمكن السياسيّون الذين أوكلت لهم مهمة تموينا بالسلاح ووسائل الاتصال من توفيرها بكميات هائلة، مما سمح لنا بتجهيز زهاء أربعين فيلقا.

لكن السؤال يبقى مطروحا : لماذا وجب انتظار تلك المدة كلها من أجل شحن السلاح ؟ لقد طبق العسكريون الرابضون على الحدود ــ حرفيا ــ الأوامر الصادرة عن المجلس الوطني للثورة الجزائرية والتي بلّغها كريم بلقاسم خلال الاجتماع الذي عقده مع عساكر المنطقة الثانية للقاعدة الشرقية، وكانت هذه الأوامر تملي بتمرير الجنود إلى الداخل، وذلك أنه كان من البديهي احترام أوامر السلطات السياسية. وكانت مهمتنا الأساسية مساعدة الوحدات على اجتياز خطي "شال" و"موريس" بشتى الوسائل.

ولقد بذلت جهود جمّة على جانبي التخوم التونسية الجزائرية. وكانت التضحيات جسيمة، والعناء كبيرا، لكنها ذهبت سدى بسبب الانتظار الطويل. فلو أمرنا بمهمّة كهذه قبل بناء خط شال لكلّلنا بالنجاح بفضل رجال

محضرّين لقطع خط موريس، ولكانت الولايات أقل اختناقا مما صارت عليه بعد إقامة الحاجز الثاني.

شعرنا بالدور الفعّال لقيادة الأركان العامة فور تنصيب بومدين على رأسها، إذ شرع في تنظيم الوحدات، وكفّت الانشقاقات، وتكثفت العمليات العسكرية وأضحت أكثر ضراوة. باختصار، استطاعت هيئة الأركان العامة بعد عام ونصف من العمل الدؤوب أن تخلق أداة قيادة قادرة على أن تزيد الجيش وزنا حتى يشارك الحكومة المؤقتة في المفاوضات التي بدأت تلوح في الأفق. غير أن أعضاء الحكومة المؤقتة المتنافرين اشمأزوا من هذا الوضع الجديد، غير مبالين بأهمية مشاركة قيادة الأركان في المفاوضات. لعلهم نسوا أن عمل قيادة الأركان تلك كان قد ساهم كثيرا في دفع فرنسا إلى البحث ــ بمعية الجزائريين ــ عن حلول لوضع حد للحرب المشتعلة فتيلها.

ينبغي أن لا يخفى علينا أنّ مجيء ديغول إلى سدة الحكم كان هدفه الحسم العسكري، وخير دليل على ذلك الأرقام الرسمية للخسائر التي تكبدها الجزائريون، والتي صدرت وقتئذ عن قيادة الأركان الفرنسية في الجزائر. ولقد أوردها رضا مالك في كتاب "الجزائر في ايفيان" كما يلي : "قتل في المعارك إلى غاية 23 أكتوبر 1958، 000 77 جزائري وسجن 000 60 آخرين. سقط إلى غاية 10 نوفمبر 1959، 000 145 جزائري في ميدان المعارك وزاد عدد السجناء بثلاثين في المائة. ويعني هذا أنّ الخسائر الجزائرية تضاعفت في أقل من سنة و أنّ عدد الضحايا بلغ في عام 1959 وحده ما بلغه في السنوات الأربع التي سبقته. وتضيف نفس المصادر أنّ عدد الضحايا المدنيين يكون قد بلغ 600000 في سبتمبر 1959.

وكانت مراكز الاعتقال تأوي في نفس المرحلة 000 160 سجينا، في حين بلغ عدد المعتقلين في السجون الفرنسية و000 16 في الجزائر. ويكمن تفسير هذا العدد الضئيل من السجناء في الجزائر في التصفية الجسدية التي كان العدو يلجأ إليها. هذا، وقد ألقي بأكثر من مائتي متظاهر جزائري في نهر" السين

"بباريس خلال المظاهرات السلمية دون أن يعترف الفرنسيون بذلك رسميا. مع أنّ هذا الرقم أكده الصحفيون الفرنسيون أنفسهم.

أما عن المحتشدات، فلقد قدّر "بول دي فريبي" عدد المتواجدين فيها في مارس 1959 بمليون شخص بينما قدر الأسقف "رودان "والقس" بومون" عددهم بالضعف، أي بمليونين.

لم يبق أمام ديغول، بحكم الأسباب الآنف ذكرها، وبالإضافة إلى مقاومة شعب برمته، والديبلوماسية النشيطة لمسؤولينا، وضغط الرأي العام الدولي، حلّ غير التفاوض مع الجزائريين. ولقد ظن الأقدام السود وجنرالات الجزائر: "ماسو" و"جوو" و"شال" و"سالون" وغيرهم ــ خطأ ــ أنّ ديغول كان يفرّط في الجزائر. والواقع أنّ ديغول ــ بالعكس ــ لم يخنهم، لكنّه لم يكن يملك خيارا آخر.

لم تكن المفاوضات الجارية في إيفيان تعدو أن تكون في نظرنا كعسكريين يجابهون العدوّ في الميدان، مجرّد ظاهرة عارضة سرعان ما تناسيناها، فالوضع الذي كنا نعيشه لم يكن يتماشى أبدا مع تلك المحادثات التي اعتبرناها مخادعة يحاول الفرنسيون بفضلها ربح الوقت أمام الضغوط المتعددة الأوجه والتي كانت تثقل كاهل فرنسا، لم نكن نعلّق على تلك المفاوضات قط. بل إننّا لم نفكر فيها أصلا، بحيث كنّا منهمكين في الحرب التي كنا نخوضها.

كان بومدين يجتمع و الإطارات وقائدي الفصائل كل ثلاثة أشهر للتحدث عن مسائل عسكرية ومعنوية، ولّما حلّت أزمة الحكومة المؤقتة أصبحنا نهتم شيئا ما بالمسائل السياسية، لكن دون التفصيل فيها. كنا نثق في قائد هيئة الأركان، كيف لا وقد أعطى للثورة الكثير، ورصىّ صفوف جيش التحرير في مرحلة حاسمة، ونظم صعوده بقوّة، وقاد العمليات كما لم يفعل أحد من قبله.لم تكن الشكوك تراودنا وقت ذاك بل إنني متأكد أنّ غالبيتنا كانت مستعدة للتضحية بمجرد أمر من بومدين.

يعود رفض فكرة اللجوء إلى المحادثات لكونها لم تكن تساير الأحداث في الميدان، فسلم الشجعان الذي نادى به ديغول أدّى إلى رفع القوى الفرنسية بحوالي الثلث، وبناء خط شال وإقامة مناطق محظورة جديدة و مواصلة تطبيق مخطط قسنطينة، واستئناف العمليات العسكرية على اختلافها. فهذه الإجراءات كلّها جعلتنا نغضّ النظر عمّا كان يجري خفية على الساحة السياسية، إذ كانت تشكل دليلا قاطعا على إرادة الجيش الفرنسي في قمع ما كان يسميه بالتمرّد. كان الزمن زمن السياسة ولم يكن لدينا، نحن العسكريين، الوقت ولا حتى القدرة على التوغل في متاهاتها.

ساورنا الأمل لّما بدأت المفاوضات في إيفيان، لكن سرعان ما تلاشى بسبب بطئها وعدم قدرتنا على فهم سرّها، حتى أنني لم أكن أشير إليها أبدا أمام جنودي الذين لم يكونوا يأبهون بها، إما لعدم الاهتمام بها أو لعدم فهمهم إياها.

كنا نطرح المسألة بين الفينة و الأخرى خلال اجتماع الإطارات الذي كانت تنظمه هيئة الأركان للمنطقة الشمالية، دون التعمق فيها، لحدّ أننا كنا نعتبر التصريحات الموالية لنا لعضو مجلس الشيوخ الأمريكي، جون فتزجرال كينيدي، مجرّد خديعة، إذ كان يكفينا مقارنة أقواله بالجهود العسكرية التي بذلها الأمريكيون لصالح حلفائهم الفرنسيين لتكذيبها، ولولا تلك المساعدة المكثفة ودعم الولايات المتحدة الأمريكية لفرنسا، لما طال أمد الحرب، ذلك لأنّ فرنسا لم تكن تملك القدرات لخوضها ناهيك عن الفوز بها.

ويجدر بنا في هذا السياق أن نذكر بأنّ فرنسا انهزمت في حرب الهند الصينية في حين لم تخرج من الحرب العالمية الثانية مظفرة إلاّ بفضل الأمريكيين والإنجليز، أي – باختصار – الحلفاء.

والحال أنّ فرنسا لقيت التشجيع الضروري لتصعيد الحرب على الجبهة الجزائرية بفضل مساعدة الحلف الأطلسي والوسائل التي وضعها تحت تصرّفها، واعتلاء ديغول السلطة.

ومن ناحيتنا، كانت استراتيجية هيئة الأركان تحضّر لحرب طويلة، انتابنا الشعور بأننا كنا قادرين على خوضها، سيما أنّ احتمالات كثيرة أخرى كانت ممكنة كتدويل القضية أو التعزيز المستمر لجيش التحرير عبر تعبئة عامة للاجئين سواء أكانوا في تونس أو المغرب وتدريبهم في المراكز، كما أن تكوين الإطارات في الطيران والبحرية والمدفعية والدفاع المضاد للطيران في البلدان الصديقة والشقيقة كان سيمكننا، على مدى متوسط من تجنب الخط أو اجتيازه عبر تونس.

يعتقد الكثير بأنّ الأزمة التي نشبت بين القيادة العامة للأركان والحكومة المؤقتة كانت ستبطئ المفاوضات بشكل كبير وهذا خطأ تماما. فذلك أنّ بومدين وهيئة الأركان التي كان يترأسها لم يعارضوا أبدا مفاوضات إيفيان، بيد أنه كانت لهم آراء مختلفة عبروا عنها بشجاعة و وضوح، على عكس الحكومة المؤقتة الواعية بالنزاعات الداخلية التي كانت تشوبها، فخافت أن تنكشف، مع أنّ وضعها ذاك كان باديا للعيان ويدريه العام والخاص. لا يعقل أن يتم إطلاع هيئة للأركان أسبوعا فقط قبل مشاركتها في المفاوضات وأن يخفى عنها تعيين بن خدة مسؤولا على الحكومة المؤقتة وتغييرها؛ وإنّ تصرفا كهذا يترجم ازدراء الساسة بالعسكريين، ممّا أدّى بقيادة الأركان إلى الاستقالة للتعبير عن عدم تأييدها للحكومة المؤقتة بواسطة رسائل بعث بها مسؤولو الحدود الشرقية والغربية في نفس الوقت. أراد بومدين بهذا القرار أن يبين بأنه لم يكن وحده معنياً بما كان يجري لاسيما أنّ الرهان كان يتعلق بمبادرة هامة وحساسة.

ذكر رضا مالك هذه الاختلافات وأبرز أزمة الثقة السائدة في الحكومة المؤقتة في كتابه قائلا : "كان فرحات عباس يعترف شخصيا آنذاك بأنه كان في موضع الرئيس الذي يرأس، لكنه لا يحكم. لقد أكد أقواله البعض من أمثال كريم بلقاسم الذي تحدّث عن نقائص في الحكومة المؤقتة، في حين اقترح بوصوف أنّ ينتدب بمعية كريم بلقاسم وبن طوبال للاجتماع مع قادة الولايات فيعلنوا عن انطلاق هؤلاء لحضور الاجتماع، على أن تقدم الحكومة المؤقتة

استقالتها للمجتمعين في شكل مؤتمر بعد حوار حول التفسير الواجب إعطاؤه لعبارة "الداخل"، قدّم بوصوف، خلال الاجتماع الذي جرى في 10 جويلية، لائحة أخذت، باقتراح من فرحات عباس، شكل رسالة من رئيس الحكومة إلى قادة الولايات ومجالسها، هذا نصها :" لقد لاحظت خلال اجتماع مجلس الوزراء أنّ أزمة خطيرة آلت بالحكومة إلى المأزق. وأمام استحالة اللجوء إلى تحكيم الحكومة المؤقتة ومجلس الثورة اللذين يعترض البعض عن تشكيلتيهما، وجدت الحكومة نفسها مشلولة.

في هذه الظروف، أتحمل كلّ المسؤوليات المنوطة بي بصفتي رئيسا للحكومة وأدعوكم إلى الاجتماع في أقرب الآجال من أجل إنشاء مجلس للثورة غير متنازع عليه. وسيخوّل للمجلس الصلاحيات التالي ذكرها :

-استلام الاستقالة الجماعية للوزراء الحاليين؛

تشكيل حكومة جديدة؛

وضع استراتيجية سياسية وعسكرية وديبلوماسية جديدة لثورتنا، تليق بالتضحيات الجسيمة التي فرضتها خمس سنوات من الحرب على شعبنا؛

يستأنف الوزراء الحاليون مهامهم إلى غاية ترسيم الحكومة الجديدة؛ يكلف وزير القوى المسلحة بالاجتماع إليكم و إلقاء هذا البيان على مسامعكم.

أبقى أنا ومساعدي تحت تصرفكم لمساعدتكم في المهمة الموكلة إليكم وإطلاعكم بكل المعلومات المفيدة للاضطلاع بمهمتكم".

يا له من درس جميل في الديمقراطية هذا لو كان التصريح تصريح رئيس الحكومة فعلا، لكن الأمر غير ذلك، فلم يسمح لفرحات عباس إلا بقراءة نص كتب من قبل، وكالعادة، واصل بوصوف وبلقاسم وبن طوبال في بسط سيطرتهم المطلقة على جلّ القرارات السياسية.

وبالتالي، فإنّ بومدين، وعلى عكس ما ورد هنا وهناك، لم تكن له أيّة عدواة إزاء المفاوضات، على أنه عبّر عن موقفه بخصوص نقطة عالقة، ربّما كانت حساسة، لكنها كانت تهم مصير البلد قاطبة.

كانت قيادة هيئة الأركان ترى أنّه يجب فضّ النزاعات الداخلية أولا وقبل كل شيء، فراح يخاطب المفاوضين محترما القانون احترام العسكري المنضبط قائلا لهم : " اذهبوا للتفاوض فلسنا صبيانا ". يعترف رضا مالك بنفسه، إذ كان مقرّر لجنة المفاوضات، بأنّ بومدين أجابه بالحجة القائلة " إن التفاوض مع فرنسا يشكل للمرّة الأولى فرصة تاريخية قد لاتكرّر ". إن كلاما مثل هذا يعني نكرانا لوجود ثورة بأكملها ويدعّم النظرية القائلة بأنّ الاستقلال من لدن حكومة ديغول. إنّ الثورة، مهما كانت سائرة لا تتوقّف حتى تنزع الاستقلال وإلا فما الحكمة من القتال ثمان سنوات بأكملها، خسر فيها العدوّ حسب أرقام رسمية 39 000 جندي وجرح أكثر من 350 000 آخرين ؟ حتى فرنسا انتهت إلى الاعتراف بأنّ " أحداث الجزائر " حرب حقيقية مكذّبة بذلك كل الأقاويل الزاعمة بأنّ الاستقلال لم ينتزع بالقوّة.

كان خصوم بومدين يؤمنون بتغيّر موازين القوّة الداخلية ورأوا في موقف هيئة الأركان مسعى هدفه التشويش على المفاوضات التي كان يزعم أنها في صالح الحكومة المؤقتة، ومنه، فحسابات بومدين كانت كلها - حسبهم – تسعى وراء التقليل من أهمية تلك الورقة ومنع الحكومة المؤقتة من استغلالها من أجل استرجاع نفوذه. لكن، هل كان بومدين في حاجة إلى مناورة كهذه علما بأنّ الجيش كان مستعدّا للتضحية بحكم عرفانه له بكلّ ما فعله من أجله وما قدّمه للثورة ؟ بالعكس، لم يكن بومدين ليأبه بموازين القوى، فذلك أنّ الوقت الذي قضاه مع الجيش وثمرة العمل الذي أنجزه كان يكفيانه، فلقد كوّن في وقت زمنيّ قصير أداة عسكرية قوية بات من الضروري على الجيش الفرنسي أن يحسب لها حسابا. كل المآسي والدسائس التي كان وراءها بعض أعضاء الحكومة المؤقتة لم تكن سوى جانبا مرئياً للنزاعات العصبية ولعلّ تصريح بن

طوبال خير ترجمة لهذا التهافت من أجل السلطة : " إنّ بومدين يصعّد في العمليات من أجل عرقلة المفاوضات "، لكن أليس دور كلّ هيئة أركان تعزيز المواقع من أجل السماح بالتفاوض في ظروف ملائمة ؟

سعت كل التوصيات آنذاك، خاصة تلك الآتية من المسجونين الخمسة بفرنسا، إلى المصالحة بين الحكومة المؤقتة وقيادة الأركان العامّة. قام رئيس الحكومة، بن يوسف بن خدة، بجولة عبر المراكز قادته إلينا لمعرفة موقفنا. تظاهر بن خدّة بمساندته للجيش وما إن بلغ تونس حتى تراجع عن موقفه، فراح يقيل قائد هيئة الأركان. ولكم كان قرارا لا مسؤولا وخطرا عواقبه وخيمة على مجريات الأحداث، ولم يق الثورة من الانزلاق سوى تريث بومدين وتعقّله وروح المسؤولية العالية التي كان يتسم بها.

انتهت الحكومة المؤقتة إلى الاهتمام برأي هيئة الأركان خلال المحادثات. ورضا مالك يثبت ذلك في كتابه الذي يروي المقتطف الآتي منه كيف كان موقف أعضاء الحكومة و الإجراءات التي تلت ذلك :" هل كان يجب عقد دورة غير عادية لمجلس الثورة قبل مباشرة المفاوضات ؟

لم يكن ذلك مفروضا قانونيا حيث أن الحكومة المؤقتة كانت مخولة لبدء المفاوضات على أنه كان يتعين في حالة الوصول إلى اتفاق، أن يجتمع مجلس الثورة من أجل المصادقة على بنوده بأغلبية 5/4 وإعلان وقف إطلاق النار.

هكذا كان السبيل الذي اختارت الحكومة المؤقتة انتهاجه، لكن التخوفات الناجمة عن الوضع الداخلي استلزم أخذ بعض التوصيات بعين الحسبان :

يجب على الحكومة المؤقتة قبل الشروع في المفاوضات أن تتأكد من الأمور التالية :

وحدة الثورة ؛

موافقة الإطارات في جبهة التحرير وجيش التحرير(...).

يمكنهم تطبيق بنود الاتفاق المبرم مع فرنسا؛

أن تتخذ كل الإجراءات بهدف إطلاع الإطارات واستشارتها طوال المفاوضات.

هذه نقطة حاسمة إذا بوشرت المحادثات في جوّ لا تسوده الثقة، وإذا لم تعرف الحكومة المؤقتة مسبقا موقف النظام إزاء المفاوضات والمشكلات الواجب حلّها، فقد يكون مصيرنا المغامرة وتكون العواقب وخيمة.

نرى أنّه يجب فضّ النزاعات الداخلية قبل الخوض في اتفاقات قد لا يقبلها الجميع فيما بعد. وبالتالي، فإنّ عقد اجتماع مجلس الثورة أمر ضروري.

تمت المصادقة على النتائج الجزئية بالنصاب المنصوص عليه في القانون الأساسي لجبهة التحرير. وقد ضمّ الاجتماع، حسب معلوماتي، أعضاء لا يمثلون شيئا. عارض أعضاء هيئة الأركان تلك النتائج فانتخبوا ضدّها بلا، في حين غاب ممثلو جيش التحرير النشطاء في الداخل عن الاجتماع. حتى فرحات عباس انتقد تلك الاتفاقات انتقادا لاذعا. وأكد الاجتماع الأخير لمجلس الثورة كل المخاوف التي عبّرت عنها هيئة الأركان فور الإعلان عن الشروع في المفاوضات، إذ كانت ترى بوجوب توحيد صفوف الجبهة والجيش حتى لا يظهروا منقسمين أمام الشعب الجزائري. شارك الأستاذ علي هارون، وقد كان عضوا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية وفيدرالية فرنسا، في عدة جلسات لهذه المؤسسة الموقرة وتحدث عنها بكثير من التأثر؛ لأنّ مجلس الثورة كان السبيل الوحيد لإحلال الديمقراطية وإعفاء الجزائر من كلّ المآسي التي مرّت بها ومازالت، ربما بسبب تلك الأزمة ؟ أعتقد أن اقتران كلّ هذه العوامل المتفجرة قد كان في قلب تلك المؤسسة المسماة بمجلس الثورة إذ سادت الجهوية إلى جانب الوطنيين المخلصين، وتفشت الشكوك وانتشرت النزاعات من أجل المصالح، ذلك لأنّ الصراع من أجل السلطة كان على أشدّه. هذا الكلام لعلي هارون الذي وصف بتأثر مآل تلك المؤسسة التي جابهت العدوّ وعجزت عن الوفاق مع بني ملّتها.

كتب هارون في "صيف الشقاق" في فصله المعنون " جلسة غير مرفوعة " يقول :" بهذه الصورة إذن كان سينتهي مجلس الثورة بسبب عدم تعقّل البعض الذين زلّ لسانهم وحبّ البعض الآخر المفرط للسلطة. ومع ذلك، فقد عرف مجلس الثورة طوال هذه السنين الجهنمية، كيف يحافظ على الانسجام والصرامة رغم كلّ المعوّقات، فانتهى بالشعب الجزائري إلى الانتصار رغم القوى الاستعمارية. لكن لا أحد في تلك الفترة كان يعي حقّا بأنّ الكلام المبتذل الذي نطق به البعض كان سيحرم مجلس الثورة من القدرة على مواصلة مهمّة كان سيضطلع بها إلى غاية انعقاد المؤتمر على التراب الوطني مباشرة بعد الاستقلال. ساد الشعور، طبعا، بأن المناوشة التي حدثت بين الرئيس ونائبه في الحكومة المؤقتة كانت ستزعزع ثورتنا فبدا من المؤسف أنّ انحرافات كتلك تخلخل الهيئة القيادية عشية حصول البلد على استقلاله. أفلم يقترف أولئك المؤتمرون خطأ ذلك الإنسان الذي قاسى طيلة سبع سنوات ونصف لتشييد بيته، ولّما حان الوقت لكي يدخله بمفتاح من بابه الواسع، راح ينسفه نسفا ؟ كلا، لم يكن يجدر بالمجلس الوطني للثورة الجزائرية أن يغادر ساحة التاريخ بمثل ذلك الانحطاط.

التعريـــف بمنطقـــة العمليـــات

دارت العمليات بين خط موريس والحدود التونسية من جهة وبين خطي موريس وشال و الحدود عينها من جهة أخرى. أقام الجيش الفرنسي خط شال من أجل إنشاء منطقة تماس بين الخطين بهدف الحيلولة دون اجتيازها. عباً الجيش، وحدات احتياطية إضافية سطحية تمّ تجنيدها في القطاعات الدفاعية كانت مستعدة للتدخل بمجرّد إعطاء إشارة الإنذار، إما عن طريق نقاط المراقبة الموزعة على طول الطريق من مختلف المراكز العسكرية، إما فور قطع الخطوط المكهربة. كان في حوزة الجيش الفرنسي نقاط ارتكاز عديدة من فرق وسريات وفصائل. وقد تم نشر معاقل ملائمة للتضاريس على طول المسافة الفاصلة بين نقاط الارتكاز وفق نظام ناري محسوب بالمتر الخطيّ.

كان زرع الألغام يناط إلى رؤساء القطاعات الذين أصبحوا يتحكمون في هذا المجال تحكّما إلى حدّ أنّ الجيش الفرنسي عجز غداة الاستقلال عن تزويدنا بالخرائط المبينة للمناطق الملغمة، ومازال مواطنون يسقطون ضحية هذه المخلفات الاستعمارية إلى يومنا هذا، أو يصابون بعتوه على الرغم من الجهود التي بذلها الجيش الوطني الشعبي من أجل إزالة هذه الآلات الفتاكة.

أقام الجيش الفرنسي أيضا خطوطا للإنذار في الجبهة الشرقية للخط لتفادي الهجمات المفاجئة، بالإضافة إلى أنظمة للترصد ورادارات كهرومغناطسية وأخرى خاصة بالمدفعية كانت تكمّل ذلك الحاجز المنيع الذي كان يشكله خط شال.

هكذا كانت الأمور منذ مطلع سنة 1959 ودامت إلى غاية الاستقلال. كانت العمليات تدور في المضلّع الرباعي الذي تحدّه مدينة القالة شرقا ونهر بوناموسة غربا. وقرية بوحجار من الجهة الجنوبية الغربية، والطريق الرابط بين بوحجار والقالة والمار عبر قرى الزيتونية والطارف وعين العسل ورمل السوق والعيون وقرية أم الطبول الممتدّة نحو الشرق والبعيدة عن الطريق ببعض الكيلومترات.

كانت العمليات تجري في منطقة ذات أرضين مختلفتي التضاريس، أولهما جرداء تقريبا، يتخللها سهل ريغية، بها أشجار متباعدة والنشعة، وهي نوع من الشجيرات المنتشرة في المنطقة، تحيطها مستنقعات، وتخفي قطعا أرضية كان يزرع فيها البقول والتبغ والفول السوداني قبل اندلاع الثورة، يحاصرها الساحل الرابط بين عنابة والقالة، والطريق المؤدية إلى المدينتين يتخلّلها مراكز عسكرية للمراقبة والتدخل. أمّا الجزء الثاني من الأراضي فكان مكثفا بشكل لا يسمح بالتمويه فحسب بل وبقيادة عمليات بسهولة، يمتد إلى غاية الحدود التونسية باستثناء مدينة القالة التي كانت تحميها المستنقعات والبحيرات والمحصّنة بالحواجز الطبيعية وأخرى أقامها العدو.

وبالإضافة إلى صعوبة التضاريس، فإن المنطقة التي كانت تدور فيها العمليات. لاتزال إلى يومنا هذا تعجّ بالبعوض الذي كان أثناء الحرب يعيق عملنا. تكاثرت هذه الحشرات منذ أن أعلن الفرنسيون المنطقة منطقة محظورة إذ كان السكان قبل ترحيلهم يضرمون النيران لإبعادها.

نشر العدوّ في الخلف مدفعية معيار 105 و155 مم، حسب مدى المدافع، ودبابات ومدافع أخرى ذات التصويب المباشر معيار 20 و 40 و 75 مم ورشاشات ثقيلة. وأقام أسلاكا للإنذار المسبق من جانب الخط باتجاه الشرق تفرق بينها مسافة تتراوح بين 20 و 50 مترا، وقد وضعت هذه الأسلاك الرقيقة جدّا على علوّ لايصل إلى الركبة وكلّما اصطدمنا بها عن غير

قصد،كشفنا فورا وبصفة آلية، ومن أجل تفادي الوقوع في الفخ، بتنا نستعمل عصى خفيفة، نضعها بين أصبعينا ونتركها تلامس الأرض حتى نتأكدّ من عدم وجود سلك للإنذار فنواصل مشينا بحذر شديد أو نتوقّف لنمرّ الواحد تلو الآخر.

كانت حدود المنطقة الأولى للقاعدة الشرقية كما يلي :

1 مدينة القالة؛

2 الحدود التونسية؛

3 الساحل إلى غاية حدود مدينة عنابة شمالا؛

4 حدود قرية بوحجار وقرية مرداس وجزء من خط موريس إلى غاية الجسر على مشارف بن مهيدي، شرقا.

التحلـــي بالوعـــــي

شعرت بالهوة التي كانت تفصل بين الجزائريين والفرنسيين وأنا في المدرسة الابتدائية إذ كنا تلاميذ من الدرجة الثانية في حين كان التلامذة الفرنسيون ينتقلون من قسم إلى آخر حتى وإن كان مستواهم أدنى من مستوانا، فيلتحقون بالمدارس التكميلية الكائنة بباتنة وقسنطينة، بل إن بعضهم كان ينتقل إلى فرنسا.

قرّر الفرنسيون في البرنامج المدرسي كتابا عنوانه " عبد الله " كان يشوّه صورة الجزائريين. يعود ذلك إلى الخمسينات حيث كانت النصوص تعكس صورة جزائري يمتطي حمارا و يرتدي " الجلابة "و" الشاشية "، حافي الرجلين تارة ومرتديا زوج طرابيش تارة أخرى.

كان الجزائريون المصطفّون على طول أزقّة المدينة لتلميع أحذية الكولون يلقّبون " بالأولاد " في حين كان الكتاب ذاته يظهر الطفل الفرنسي بزيه الحسن الذي تزيده جمالا والجوارب القصيرة وتسريحة الشعر التي يتوسطها مفرق ممشوط بعناية.

وكان المجتمع في القرية يعيش في عزلة، يحترم تقاليده ومبادئه الثابتة ويحتكم لعقّاله لفض النزاعات وإحقاق الحق. أقيمت مدراس قرآنية من أجل تعليم الصغار، وأمّا المزارعون الميسورون فكانوا يرسلون أبناءهم إلى "المدارس" في الجزائر أو في الخارج. حتى الألعاب كانت مختلفة. كنّا نقضي معظم أوقاتنا في اللعب بالكريات الملوّنة. كان يوجد في القرية مطعم يتردد عليه لاعبوا الكرة

الحديدية لسدّ رمقهم،وكان ديبويسون وهو صاحب المطعم يسخّر محلّه كذلك لبيع الخبز.

في أحد الأيام، وأنا ألعب بالكريات الملوّنة، ناداني أحد أعمامي كان يقف في زاوية المطعم. كنّا في موسم "العزيب" وهي عادة يتنقل فيها السكان إلى السهل إمّا للحصاد أو الحرث.طلب مني عميّ أن أشتري له خبزا، ولمّا ساورني الشك تجرّأت فسألته لماذا لم يفعل ذلك بنفسه، أجابني :

" لا أريد أن أصبّح على وجه مستعمر". كان موقف عميّ الذي لم أستوعبه إلاّ بعد مرور الأعوام، يترجم الاعتقاد السائد آنذاك عند الجزائريين بأن الكولون فأل مشؤوم.

أرسلني أبي لمّا ضاق الأفق في وجهي، إلى مدرسة القليعة للأشبال حيث تلقيت كل أنواع الإهانة والاحتقار. وكلّما اقتربت من سن المراهقة كلّما تجلّى في أعيني الفرق الشاسع بين الجزائريين والفرنسيين.

ذهبت إلى فرنسا سنة 1951 للمشاركة في أول مخيم صيفي بالنسبة إلي، وكان ذلك السفر مناسبة لي حتى ألاحظ بأنّ مدرسة القليعة كان الهدف منها تزويدنا بتكوين يؤهلنا لوظائف ثانوية لا أكثر، مقارنة بالمدارس المتواجدة في فرنسا والتي تضمن تعليما مختلفا تماما يمكّن التلاميذ من مزاولة الدراسات العليا.

لم يكن تواجدنا في مدرسة القليعة مصدر اعتزاز لنا لكنّ أوضاعنا الاجتماعية المزرية لم تكن تسمح لنا بالالتحاق بغير تلك المدرسة.كنا نشعر بالخزي ونحن نرتدي أزياءنا غير اللائقة في أيام الأحد، عندما كنا نبرح المدرسة فنقطع المدينة بخطى منضبطة متوجهين إلى دار السينما، كنا نشعر بالأنظار المزدرية بنا تحدّق فينا،ونسمع ضحكات ماكرة خلفنا. وأمّا المدّرسون فغالبا ما كانوا يحوّلون الدروس إلى حلقات سياسية.

عندما كنا نتنقل خلال العطل، كناّ نرتدي زينا المدني الذي كنا نودعه عند السكان أو نتركه داخل الحقيبة في الدولاب المخصص لحفظها. حتى لا يتفطن لنا أحد. وداعا لتلك الدروس التي تزعم أنّ أجدادنا غاليون؛ وداعا لذلك النفاق الذي يريد أن يجعل منّا فرنسيين؛ وداعا لتلك الأبوية ذات الوجهين.

تزامن عامي الأخير في المدرسة مع اندلا ع الثورة المسلحة. التي كثيرا ماكان التلاميذ يتحدثون عنها : " الحمد لله، لقد حان الوقت لكي يثور الجزائرون ضد التمييز والبذخ وينهضوا من اجل الحرية والاستقلال". ومع ذلك فلقد خرجنا من تلك المدرسة القاسية محنّكين قادرين على مجابهة مصاعب الحياة. ولقد كان لها الفضل ــ إذا صحّ القول ــ في توعيتنا بانتمائنا الجزائري وترويدنا بمعارف سمحت لنا فيما بعد بتسطير السبيل الذي كان علينا انتهاجه، فلقد كانت مدرسة القليعة بوتقة حقيقية أعطت للثورة أفضل جنودها ولا يوجد مدرسة في الجزائر وفرت للثورة ما وفرته القليعة.

ربّما أعود إلى مدرسة القليعة في كتاب قادم وسأروي بالتفصيل البلاء الحسن الذي أبلاه العديد من الرفقاء، وكثيرهم سقطوا في ميدان الشرف، في حين انضم آخرون إلى المنظمة المدنية لجبهة التحرير، ومازال العديد من خرّجيها على قيد الحياة وهم من قدامى المجاهدين.

اكتشفت الثورة عن كثب عند عودتي من مدرسة سترازبوغ حيث ارتديت الزي العسكري في سن لا تتعدى السابعة عشرة مع أنّ القانون السائد آنذاك كان يجبر السلطات العسكرية على تجنيد الشباب في الثامنة عشرة لاقبل. كنت شاهد عيان لمجازر اقترفت في حق المواطنين العزل وكان من بينهم العديد من أفراد عائلتي في حين التحق غالبية أعمامي وأقاربي بالثورة فبات الاختيار لدي واضحا لا نقاش فيه غير أنّ الوقت، هذا العدوّ الآخر، حال دون التحاقي بإخواني في الجبل من أول وهلة إذ استدعيت ــ على عجل ــ للتوجه إلى العاصمة من أجل إجراء مسابقة الدخول إلى مدرسة الضباط بسان ميكسان.

ولمّا بلغت المدينة الفرنسية، لم أنفك أتصل بالإخوان لمساعدتي على الانضمام في صفوف جيش التحرير لكن دون جدوى. ولم يتحقق ذلك سوى بعد أن أرسلت إلى ألمانيا حيث تمكنت من إجراء اتصال جدي مع ممثلي جبهة التحرير المنتمين إلى الفيلق الثالث عشر للقناصة الجزائريين. كانت الاتصالات مع فيدرالية فرنسا مقطوعة في تلك الفترة حسب ما قيل لي فطال انتظاري مدّة سنة اغتنمت في غضونها الفرصة لأنخرط في صفوف المنظمة المدنية لجبهة التحرير، إلى أن جاء اليوم الموعود.

التكـــــويـــــن

أعدّت منظمة فيدرالية فرنسا العدّة لتسهيل التحاقي بتونس حيث لم أقض سوى ليلة واحدة. ها أنا ذا في مدرسة الإطارات، وسط ذويّ فيتسنى لي إعطاء الثورة ما تعلمته في مدرسة الضباط. استقبلني ورفقائي، قبل توجهنا إلى مدرسة إطارات جيش التحرير، مجاهد مبتور اليد كان مداوما في مقر الجبهة في الصديقية دوّن معلومات تخصنّا ثم التفت صوبي وسألني هل كانت صلة قرابة تربطني بتزار الحاج فأخبرته بأنه عمي. ثم راح يكتب على استمارة : " يعين في الولاية الأولى ". كان المجاهدون آنذاك يعينون بالنظر إلى مسقط رأسهم.

قضينا الليلة في فندق صغير بالمدينة ثم اقتدنا في الصباح إلى مدرسة الإطارات الكائنة قرب مدينة الكاف حيث التحقت بالعديد من الضباط الفارين من الجيش الفرنسي. انتظرت هناك تعييني في الولاية الأولى. في البداية، كنا نسهم في تكوين المجاهدين، ولمّا طال قرار إرسالي إلى الولاية الأولى، أوكلت إلينا مهمة التدريس في مدرسة المتفجرات قرب ساقية سيدي يوسف. ربما كان القرار قرار العقيد عمارة العسكري المدعو بوقلاز وكان مسؤولا على التكوين لدى قيادة العمليات العسكرية COM .أعتقد أنّ تعييني في هذا المنصب جاء إثر رحيل المكونين السوريين ذوي الأصل الجزائري الذين كانوا قد حضروا لتكوين مفرزة تم توزيعها فيما بعد على مختلف الوحدات المقاتلة، بيد أنّ بعضهم بقي في عين المكان أمثال عبد الله التومي الملقب "بالمهماه" والمرحوم بوبكر حشاني وأحمد قايد صالح والمرحوم محمد بولنوار وعبدو وآخرين.

كان يدير المركز محمود فارس و قد كان رجلا لطيفا وضع ثقته في شخـــصي إ ذ كنت أدرّس كلّ المواد، وكان يساعدني في ذلك المرحوم بولنوار ذو الثقافة العامّة الواسعة. كان بولنوار يساعدني في التدريس وإعداد العدّة التدريبية كميدان الرمي وغير ذلك.

أنيطت بي مهام المركز كلها وتوجب علي تبليغ مجمل المعارف التي كانت لدي فدرّست المواد التقنية والتكتيكية بخاصة تلك المسماة بالهندسة؛ والحال أنها تعدّ ركيزة التكوين الأساسية التي كان يجب على المتربصين تعلّمها، ذلك لأنها مهمتها الأولية. ركّز التكوين على استعمال الألغام والفخاخ، و كان يشمل المعارف المتصلة بجسم اللغم والمتفجرات على اختلافها : المكسرة والمتتالية والمفجرات والفتائل العادية منها والفخية، بما في ذلك السلاسل النارية والكهربائية، وكان المتربصون يطلعون أيضا على كيفية زرع الألغام ونزعها.كان الجميع يتعلمون بسرعة، بحكم رغبتهم الشديدة في استيعاب المعارف، إلا أن مشكلة عرضت بحيث تعسر على إقناع المجاهدين بضرورة التعلم من جديد، إذ أنّ الكثير منهم قد جابهوا القتال في الميدان، لكنني سرعان ما تمكنت من الحصول على موافقة ما تبقى من المتعنتين. كانت الأمور صعبة في البداية لكن طريقة التعليم التي انتهجتها جعلتني أكسب ثقة المجاهدين فانضموا قلبا وقالبا إلى التربص. كنت أضع دارئة على بعد متر وآمر المتربصين بإطلاق النار في وضعية الجندي المنبطح وهم متكئون على مساند كما هو الحال بالنسبة إلى المجندين الجدد.

بيد أنّ لا أحد كان يصيب الهدف مع أنه كبير وقريب. فرحت أريهم كيفية التصويب بإحكام حتى جعلتهم يهتمون شيئا فشيئا فيتعلمون. ولقد أصبحوا بعد ذلك قناصين بارعين.

كانت سيارة رونو القديمة تتجه كل صباح إلى الكاف للتزود بالمؤونة، لكنها هذا الصباح عادت قبل موعدها وهي تخترق الطريق تاركة في زبدها غبارا متناثرا من فرط ما كانت تسير بسرعة. اندهشنا لحالها فاحتشدنا قرب

مدخل المركز ننتظر السائق على أحرّ من جمر لنعرف ماذا جرى. أطلعنا بأنّ مدينة الكاف قد طوّقها الجيش التونسي وأنه تم القبض على جزائريين. ماذا حدث؟ في المساء وصل إلى المركز أحمد درايا و معه جنود من بينهم جريح فعلمنا بأنّ "مآمرة العقداء" قد فشلت.

كنت عندما يسمح لي الوقت بين فتريّ تدريب بالنهار أو بالليل، أتحوّل إلى إداري، وكثيرا ما كنت أتفسح في المنطقة ذات الجمال الجذاب بتلالها المعشوشبة ووادي المجردة السخي بالسمك، كنت ــ بين الفينة والأخرى ــ أصطاد أو أسبح لأنزع عني بعض الوسخ؛ وكنت، إذا أردت اصطياد السمك، أستعمل بعضا من قضيب الديناميت، وإذا فضلت صيد الطيور، أخذت بندقية صيد قديمة من المركّز فزوّدتها بخراطيش فارغة أملأها ببارود أسترجعه من بنادق فرنسية قديمة يعود تاريخها إلى الحرب العالمية الأولى ثم أضيف إليها قطعا من الرصاص لم تكن تخفق أبدا في تلك المنطقة الزاخرة بالأرانب، وكنت في بعض الأحيان أعود إلى المركز وفي جعبتي أرنب أو اثنان يجعلاننا نغيّر طبق المحمصة الذي كان يلازمنا كل يوم، وهو عبارة عن حبات كبيرة من السميد مسقي بمرق أحمر.

لكن العمل كان أولى، ولقد أصبح مرهقا أكثر فأكثر وباتت الحمّى لا تفارقني، لكني لم أكن أشتكي مرضي. شخّص الدكتور بودربة رحمه الله مرضي، عندما مرّ بنا في المركز، فانتهى إلى أنها حمّى المستنقعات، ولم يبرحني المرض حتى بعد الحرب. عندما كانت النوبات تنتابني، تصيبني الحمّى كل يومين يسبقها دائما إسهال، ولم يكن يقلّل من ألمي سوى أشعة الشمس الدافئة.

اغتنمت فرصة زيارة العقيد عمار بوقلاز المركز لإطلاعه على رغبتي في الالتحاق بالوحدات المقاتلة إذ أنه كان من المفروض أن أمكث في مركز التكوين مدة قصيرة فحسب، رد علي بوقلاز قائلا إنّ التكوين من أولى الأولويات في نظره. فعدت وكرّرت له موقفي وأكدت له بأنّ المفرزة قد أنهت

تكوينها. وأنّ المدرسة تحتوي على مكوّنين أكفاء وبأعداد كافية،فقاطعني بوقلاز وردني على أعقابي.

كانت مدرسة المتفجّرات مستقلّة، عيّن على رأسها المسؤول الجديد على التكوين في الحكومة المؤقتة الملازم الأول بوعنان وهو من الفارين من الجيش الفرنسي، في حين غادر محمود فارس المدرسة نهائيا محتجّا بأسباب صحية بحتة بقيت في المدرسة لوحدي. كان الملازم الأول بوعنان يترأس المدرستين، مدرسة الإطارات بالكاف ومدرسة المتفجرات. وما إن زار المدرسة لأول وهلة حتى راح يخترع الحجة تلو الحجة بهدف تعيين مسؤول آخر عوضي. كان بوعنان يزدري التكوين ازدراء. وصلت إلى المركز في أحد الأيام سيارة من نوع لاندروفر تقّل الملازم الأول طاهر مادوي والمرحوم موسى حمداش. أراني مادوي وثيقة تأمرني بالتخلي عن منصبي لحاملها والالتحاق بمدرسة الإطارات في ذات اليوم ففعلت.

عندما وصلت إلى المدرسة، تصرفت وكأن شيئا لم يحدث. أوكلت إلي قيادة المجموعة الفرعية الثانية، ولّما باشرت تكوين أفرادها، تيقنت من صحة تخميناتي وذلك أن بوعنان لم يكن يولي التكوين اهتماما قط، وكان يوقف الدروس كلّما زار مسؤول المدرسة يقوم باستعراضات ويتملّص من التكوين بشتى الوسائل،فإما أن يأمر الجنود بطلي حافة الطريق المعلّمة بالحجارة أو غرس البطيخ وكم من عمل آخر لاجدوى منه ولا طائل.

طالما عبّر عن غيظنا للملازم سليم سعدي، وكان آنذاك مكونا متنقلا في تخصص قاذفات الصواريخ التي كانت وصلتنا مؤخرا، لكن لاحياة لمن تنادي، فهكذا كانت ذهنية بوعنان، لا تبرحه ولا يبرحها.

قررت مغادرة المدرسة بمحض إرادتي من أجل الالتحاق بالوحدات القتالية متيقنا كل اليقين بأنه كان علي أن أفعل ذلك. طبعا، كنت أعلم بأنني سأجابه الموت، لكنني لم أفكّر في التخاذل أبدا، ربما لأنني كنت بعيدا عن ميدان المعارك، مع أنّ الطائرات الحربية من طراز ب 62 كانت تقنبلنا من حين لآخر

وكثيرا ما أفشلنا محاولات العدوّ لاقتحام المدرسة عن طريق المظليين، ولقد سقط من بيننا الكثير من القتلى والجرحى وأصيب رفيقي عبد المالك قنايزية في عصبه السمعي بسبب شظية قنبلة طالت رقبته. ولقد جرح مرتين على رأس فيلقه في معركة قادها ضد مركز القوارد.

كنت لا أزال في مدرسة الإطارات عندما حدثت قضية على حمبلي. استدعاني الملازم الأول بوعنان قائد مدرسة الإطارات في أحد الأيام وأمرني بالالتحاق بمركز القيادة الذي كان يترأسه ناصر محمدي قائد أركان الشرق. كان علي أن أكون تحت تصرفه برفقة مجموعة مأخوذة من مختلف المجموعات التي كانت قيد التكوين.

كان مركز القيادة مقابلا لجبل سيد أحمد ولقد أقام ناصر محمدي في بيت يملكه جزائري مقيم في تونس. طلب مني البقاء في مركز القيادة وهو بيت من القرميد به غرفة واحدة واسعة فرشت فيها حصائر بها جنود ملقون على الأرض يستريحون.

كان قائد الأركان يتوضّأ وسط القاعة لأداء صلاة العشاء. لم أكن أدري بعد ماذا كان يجري بالضبط. ارتديت قشّابيتي و وضعت بندقيتي من نوع 303 الإنكليزية الصنع بين رجلي وتمدّدت محاولا أن أسرق بعض الدقائق من النوم رغم الاشتباك العنيف الذي كان يصلني صوته من بعيد. علمت بعد ذلك بأننا أمام عملية تمرّد يقودها ضابط من المنطقة الخامسة للولاية الأولى وبلغتني أخبار غريبة الأطوار عن علي حمبلي جعلتني أتساءل إن لم يصب بالجنون. قيل لي إنه كان يحلق نصف ذقنه دون النصف الآخر ويمزق جزءا من سرواله ويدع الجزء الآخر.وعلمت كذلك بأنّ الضابط المنشق تموقع في منطقة دفاعية على سفح جبل سيد أحمد مع أتباعه الذين كنا نجهل عنهم كل شيء وكان السفح يطل على المنطقة كلّها إلى حدّ التخوم التونسية.كانت القوات المرسلة لمواجهة حمبلي مشكلة حسب علمي من عناصر من الفيلق المستقل الأوّل وعناصر من المناطق الثالثة والخامسة والسادسة ومن مجموعات أحضرت من هنا وهناك. ومن بينها

مجموعة من مدرسة الإطارات التي كلفت بوضعها تحت تصرف قائد أركان الشرق. لكن خطأ فادحا ارتكب خلال العملية، إذ أنّ التطويق لم يحدث ولم يجر الهجوم سوى من الجانب التونسي في حين ترك الجانب الجزائري المستعمر دون تغطية.

لما ضيّق الخناق على حمبلي، أرسل إنذارا خطيا لقيادة الأركان يطالبه بسحب جنوده. ولقد كتب حمبلي يقول :" إذا لم تفكوّا عني الخناق على الساعة الرابعة زوالا، فسوف أسلّم نفسي للفرنسيين". استمر الاشتباك ولم يرفع الحصار ولم يتم الاستيلاء على الموقع الذي احتله حمبلي ورجاله.

تجمعنا في الرابعة زوالا أمام مقر مركز القيادة، ولاحظنا طائرة مروحية مهمتها الاتصال وهي تحط في موقع المنشقين. سمعت قائد الأركان يقول بعد أن نزع المنظار المقرب عن عينه : "لقد أوفى بوعده لقد قال بأنه سيفعل، وها قد فعل حقاّ". يبدو أن الضباط الذين كانوا يقلّون المروحية كانوا مكلفين بتنظيم استسلام حمبلي. عند مجيء الليل، اعترضت سلسلة كبيرة من الدبابات بيننا وبين المنشقين وقد قدمت من مدينة الونزة فتم إجلاء حمبلي ومن والاه ليلا دون أن نحرك ساكنا. في الصباح، انشق عدد كبير من الجنود عن حمبلي والتحقوا بإخوانهم لّما تيقنوا من خيانة قائدهم. لن نعلم أبدا عدد الجنود الذين بقوا أوفياء لحمبلي فالبعض يتحدث عن ثمانين والبعض الآخر يقول إذ حاول حمبلي بعد ذلك بأيام القيام بعملية على جبل سيدي محمد مع الجنود الفرنسيين لقي خلالها قائدها الأسبق وهو من أقربائه، حذفه فيها. ولقد فشلت محاولة اقتحام مركز قيادة بومدين. بعدها أيضا كانت حدثت في غار الدماء بتونس، يقال أنّ حمبلي كان وراءها. وبقيت موت هذا الضابط المنشق قبل الاستقلال غامضة.

تعييـــني في المنطقـــة الأولى

رفض طلب تعييني في الولاية الأولى رفضا باتا فاتصلت عن طريق سليم سعدي بالرفقاء الموجودين في قيادة الأركان الشرقية الكائن مقرها في غار الدماء ليتوسطوا لصالحي فأغادر مدرسة الإطارات. مرّت بضعة أيام، علمت بعدها باندهاش بأنّ العقيد ناصر طلب رؤيتي : "هذا أمر". قال لي أحد الرفقاء. شددت رحالي وأخفيت بندقية 303 وكنانة في السيارة التي كانت ستنقلني إلى قائد الأركان الشرقية. شعر الملازم الأوّل بوعنان بالحرج فانزوى بي ثم قال : "إنهم يحتاجون إليك لمدّة قصيرة ثم تعود إلى هنا". غادرت المدرسة مطمئن البال مرتاح الضمير لأنني كونت مجموعة واخترت أفضل العناصر لوزارة التسليح والاتصالات العامة.

كانت صور المدرسة تتبادر إلى ذهني أحيانا، لكنني لم أحزن لمغادرتها، فلقد أسهمت في تكوين الإطارات الذين لقنتهم كلّ ما تعلمته في المدارس الفرنسية. سقط الكثيرون منهم في ميدان الشرف أو أنهوا حياتهم العملية برتب سامية، ومازال العديد منهم في الجيش برتبة عقيد أو جنرال. أنا أعتز بذلك أيما اعتزاز.

تناسيت الفرصة التي سنحت لي مع إعادة هيكلة قيادة المنطقة الأوّلى. استقبلني العقيد ناصر شخصيا وقال لي مباشرة : " لقد عينت نائبا عسكريا للمنطقة الأولى ". ثم أردف قائلا : " سياسيا وعسكريا". برحت مكتب قائد الأركان الشرقية دون أن أتلفظ بكلمة، منذهلا تماما بقراره ذاك، ورحت أتساءل في قرارة نفسي كيف عساني أن أضطلع بمهمة كهذه و أنا لا أملك أية خبرة قتالية ؟

كيف سأجابه مقاتلين محنكين أكبر مني سنّا وأنا في سن المراهقة ؟ لكن تخوفاتي كفّت بمجرد أن قابلت المجاهدين الذين سرعان ما تبنوني.

كان يساعد الشاذلي بن جديد أحمد ترخوش، ضابط متخرج من مدرسة الزيتونة العتيقة وكان مكلفا بالاستعلامات والاتصالات، وكان للشاذلي نائب سياسي في شخص عبد القادر عبد اللاوي الذي كان يؤدّي دور المحافظ آنذاك. سقط أحمد ترخوش إبان الثورة على رأس الفيلق الحادي عشر.

وصلت إلى مركز قيادة المنطقة في يوم ممطر، وقد نصّب لي خيمة وسط الغابة قرب الحدود. استقبلني الشايب حامد. لم احتج لأكثر من يومين حتى أتأقلم مع المكان.

كانت المنطقة تمتد على طول الحدود وتشمل القالة إلى غاية عين الكرمة "مونيبي" سابقا ومنطقتين في الداخل تتكوّنان من مئتين أو ثلاث مئة رجل، إحداهما مرابطة في ضواحي عنابة والأخرى تمتد إلى حدّ الشافية وجبل بوعباد وتضم مرداس، "كومب" سابقا، قادني الشاذلي إلى مركز قيادة المنطقة الثالثة حيث التقيت بعبد القادر قارة الذي أصبح فيما بعد ضابطا ساميا في الجيش الوطني الشعبي وسفيرا للجزائر. وهو اليوم متقاعد.ولقد أصبت وعبد القادر قارة بشظايا قنبلة واحدة انفجرت بجانبنا فجرحت كلينا.

قضيت الليلة في مركز القيادة ثم التحقت في الصباح رفقة قارة بالقطاع الذي كان يقوده الشايب العيد،كان الشايب العيد يرأس قطاعا يتكون من فصيلة تشمل خمسين أو ستين رجلا تحت قيادة محمد بوزينة، وكان بحوزته ثلاثة رشاشات م ج 45 ألمانية الصنع.

وصلنا صوت انفجارات يوما ونحن نتدرب على الرمي، كانت المدفعية تدوي في جبل البلوط فقررنا التنقل إلى عين المكان لنتقصّى الأمر وأخذنا معنا فصيلة بوزينة. لما اقتربنا من المكان التقينا بقائد الفصيلة طراد الشابي الذي اخبرنا بأنّ سرية من الكوموندو الفرنسية لاحقتهم عشية القيام بعملية مناوشة ضد قرية الزيتونة "توستان" سابقا. واغتنمت فرْصة الظلام لتحتل موقعا يطل

عليهم تحميه الأحجار الكبيرة والغابة الكثيفة. عند بزوغ الفجر، خرج الشابي ورجاله كالعادة للاستطلاع فوقع في الكمين. قتل الشايب حمدة وأخذ العدوّ منه بندقيته موزر الألمانية الصنع. دخلت فصيلة سلمـــون المشكلة من رجال مدربين في اشتباك مع العدو وحاولت إرغامه على مغادرة الموقع مستعملة رشاشاتها والمرتر عيار 45 مم. وللعلم، فإنّ الجيش الفرنسي كان قد أحضر إمدادات مشكلة من القوات الخاصة التي كوّنها بيجار في سكيكدة من أجل ملاحقة المجاهدين والقضاء عليهم منذ أن شرع هؤلاء في مهاجمة المراكز الفرنسية بسلاح البازوكا الذي كان قد تم اقتناؤه مؤخرا. هاجمت فصيلة قرية توستان فاقتفى العدو أثرها عندما شرعت في الانسحاب وعرف مخبأها.

لاحظت غياب سلاح الجو وتبين لي أنّ ضربات المدفعية كانت تعوزها الدقة، معنى هذا أنّ العدو لا يملك وسائل الاتصال. ولقد تأكد ذلك فيما بعد لّما عثرنا على أجهزة الراديو معطّلة. سألني قائد الناحية : " ماذا عسانا أن نفعل ؟ " سؤال عصيب. ذلك أنني لم أكن أعرف في شؤون الحرب سوى الجانب النظري. نظرت حولي وتراءى لي مرتفع به أشجار كثيفة اتخذه المجاهدون موقعا لمجابهة العدو. وكانت تتوسطه تلعة تنزل إلى أسفل منّا وكانت ثمة هضبتان بهما غابة بلوط – لذا سمي بجل البلوط – اقترحت على قارة أن يموقع الفصيلة التي كانت ترافقنا وسط الوادي على بعد بضعة أمتار منّا لسد الطريق أمام العدوّ. كان اعتقادي أنّ العدوّ كان سيجبر على المرور من هنا. ما إن اتخذت فصيلة بوزينة موقعها بجانب الوادي حتى سمعنا صوت الرشاشات الثلاث يدوي، فوقع الكوموندو بين نارين، فأراد التخلص من قبضة المجاهدين بأنّ حاول قطع الهضبة دون تغطية لبلوغ ضفة الوادي والتقهقر. أصاب الذعر العدوّ. كنت خلال المعركة أطلق النار ببندقية موزر على غرار الجنود الآخرين. هذا كل ما أبليته في معركة جبل البلوط، ومع ذلك، فلقد استولينا على حوالي أربعين بندقية رشاشة ومن بينها رشاشين أ أ 52 وبندقية موزر التي كان أخذها العدوّ من الشهيد حمدة في صباح ذلك اليوم، استولينا كذلك على أزياء عسكرية

وأحذية بالاديوم وحاملات القنابل اليدوية التي اكتشفتها لأول مرة وشبكات التموين التي ترتدى كاللثام. لولا التعب والليل اللذان حلاّ بنا، لغنمنا أكثر.

قضينا الليلة في عين المكان رفقة بضعة جنود من جبل كاف البشير. أسرنا جنديا فرنسيا أصيب بجروح طفيفة بفعل قنبلة يدوية سلمناه بعدها مع آخرين للصليب الأحمر. في يوم الغد شاهدنا من على سفح الجبل مذهلين الجنود الفرنسيين وهم ينقلون جثث قتلاهم والأسلحة وقد أحضروا إمدادات واستعملوا المروحيات والدبابات. أخبرنا سكان من قرية المرادية أياما بعد ذاك حيث توقف الفرنسيون لمدة قصيرة، بأنه لم ينج من المعركة سوى خمسة وعشرين من بين المئة وعشرين أو المئة وأربعين جنديا الذين وقعوا في مخالب المجاهدين وكثيرهم أصيب بجروح.

غداة ذلك اليوم المشهود، ارتدى العديد من المجاهدين قبعة بيجار الشهيرة وكلهم فخر بالدرس الذي لقنوه للجنود الفرنسيين على الرغم من تفوقهم عدّة وعددا. واعتبر الجنود بعد المعركة بأنّ النصر قد أحرز " بفضل السي خالد " لكن هل كنت أستحق ذلك التقدير كلّه ؟ الحال أنني لم أقم بأكثر مما قام به رفقائي حتى أكون أهلا لهذا الاعتراف، وعلى أية حال فقد وثقت معركة جبل البلوط تبني الجنود لي. حثني ذلك الاعتراف على أن أسلك سلوكا خاصّا مع هؤلاء حتى بعد الاستقلال، فالحرب علمتني كيف أنّ الجندي ما احترمته أحدث المعجزات، ولكم كان هؤلاء يحمون قائدهم في المعارك الضارية لّما يعترفون له بإنصافه وبسالته. كنت أتقاسم كل شيء مع جنودي وكنت قبيل كل معركة أوزّع المهام ولا أتوانى عن مشاركتهم تناول الشاي والفول السوداني الذي كان القائد عند زيارته يرسل أحدا لاقتنائه بالمناسبة. انسحبت وتركت الجماعة وشأنها. لاحظت القائد وهو يغدق بعض جنوده سخاء وبدا لي أنهم كانوا معتادين على ذلك، ففهمت سبب تسليمه لي النقود. أسرعت لأرجعها إياّه.

لا تضعني في مثل هذه المواقف المحرجة في المستقبل من فضلك أطلعته على حاجاتي اليومية وكانت تقتصر على علبة سجائر ليس إلاّ، وذلك كل ما جنيته طوال عامين. فهمت مذ ذاك لماذا كان يسمح البعض لأنفسهم وهم قلة باستعمال أموال الدولة لأغراضهم الشخصية وكأنّ بها ملكهم.

لما تم تشكيل قيادة الأركان العامة، بعد ذلك بكثير، خصصت رواتب للجنود والضباط على السواء : خمس فرنكات قديمة ثم عشرة ثم خمسة عشر فرنكا، لاتكفي حتى لاقتناء السجائر. ومع ذلك، كان الجنود غير المدخنين يضعون علبة سجائرهم تحت وسادتي بعد أن يشتروها بنقودهم.

مرّت على التحاق قائد الفيلق الثاني، بوطرفة الفاضل بناحيته ثلاثة أيام، تاركا في أعقابه ضابط الاستطلاع وقد تلقى الأمر بتوصيل قافلة من البغال محملة بالتموين تحميها مجموعة من الجنود تحت قيادة الرقيب عمار بوقشابية.

مرّت ثلاثة أيام ولم ينطلق الموكب، ذلك أنّ العدوّ كان يحتل مخرم برجيلات. تلقيت الأمر من قائد المنطقة بالذهاب إلى مركز قيادة الفيلق الثاني وتقصي الأمر في عين المكان. قال لي وهو يدري بأنني لم أكن أعرف المنطقة بعد : " اكتف باستقاء الأخبار لدى المسؤولين ولا تحاول أن تفعل شيئا غير ذلك ". لما وصلت إلى مركز القيادة، جمعت المسؤولين وسألتهم :

ما الذي يحول دون إتمام المهمة المنوطة إليكم ؟

العدوّ يحتل مخرم برجيلات منذ ثلاثة أيام.

ثمّ وضّح لي المسؤولون بأنه، وحسب معلومات صادرة عن جنود قاموا بالاستطلاع، قد تم الاستيلاء على المخرم وأنّ خيال رجال كان يرى بين حين و آخر. لم يكن بوسعي مغادرة المكان مالم استوف المعلومات المطلوبة مني فاقترحت على المسؤولين الالتحاق بالجنود في مواقع الاستطلاع. والاقتراب من الفجّ حتى نتأكّد من الوضع هناك بأنفسنا.

سألت أحدهم أن يعطيني سلاحا وغطاء ربطته إلى حزامي. سلّمني قائد الفصيلة، بوشريط ساسي المدعوسويسي، رشاش مات 49 وثمانية ملاقم

اكتفيت بأربعة حتى لا تثقل سيري، وفضلت على الأربعة الباقية عصلي التي كانت توجهني بالليل.

انطلقنا على التو، فأكيد أنّ قائد الناحية قلق لعدم وصول التموين. اقتربنا من المستطلعين ولاحظنا فعلا وجود خيالات على الفجّ، وكان ذلك شيئا غير مألوف لأنه من عادة العدوّ أن يستعمل الخديعة عند تنصيبه الكمائن ثم يسيطر على الوضع. اندهشت فقررت مواصلة السير. ما إن قطعنا الطريق الرابطة بين بوحجار وسوق أهراس، حتى تموقعت في الأمام مع قائد المجموعة متبوعين بفرقة من المشاة كلهم فطنة وحذر كون الخيالات قد تكون خدعة من خدع العدوّ بهدف إيقاعنا في كمين.

ونحن نتقدم، مررنا ببيت وكأنه زرع في تلك الشساعة المملّة. طرقنا الباب.

افتحوا الباب يا من بالداخل.

ردّ علينا أحد :

اذهبوا عنّا، الفرنسيون يزعجوننا في النهار وأنتم في الليل.

اغتاظ بوقشابية فأراد كسر الباب لكنني منعته. كان يجب تفهّم وضع ذلك المواطن الذي ربّما ملّ من الإستنطاقات وابتزازات العدوّ. واصلنا السير والمجموعة التي كنت أنتمي إليها منتشرة عرضا، الكلّ يقظ. فجأة، أمرنا صوت بالتوقف : " قف " فانبطحنا. وبعد تبادل للحديث، تعرّف قائد المجموعة على أحد جنوده. لما اقتربنا منهم عبّروا عن دهشتهم لرؤيتنا نتقدم ثم نتراجع وهكذا دواليك منذ أيام.

– لقد وضع الفاضل على طول المسافة وفي المناطق الخطرة، جنودا لتسهيل تنقلهم علما بأنّ المؤونة تثقل كاهلكم.

ارتحنا لمعرفة أن مشوارنا محميّ ومعلّم فواصلنا سيرنا اتجاه الفاضل، عندما بلغنا المخرم، كان جنديان في انتظارنا في موقع يسعهم التصدي منه لخطر العدوّ المحدق. روى لنا قائد المجموعة بأنه كان يرانا هو الآخر نتقدم فنتراجع وفهم أننا لم نكن على علم بوجود جنودنا على طول الطريق فاحتطنا للأمر.

انتظرنا وصول البغال التي كان يحرسها جزء من المجموعة ثم أطلعنا قائدها على الموضع الذي كان ينتظرنا فيه المجاهدون وعلى رأسهم قائد الناحية. علمنا أيضا أنّ فصيلة بوجمعة الماروكي لم تستطع الالتحاق بالفاضل لأنّها اشتبكت مع العدوّ في غابة قرب دوار الشافية. وقد ترك بوجمعة عند انسحابه فرقة من أجل إطلاع قائد الناحية على موقعه. سقط جندي خلال الاشتباك ودفن في عين المكان منذ أربعة أو خمسة أيام.

سمعنا صوت البغال و هي تقترب فاستعدّينا لمواصلة السير. كنت اعتمد كثيرا على عصاي في الليل، وقد زادته ظلاما الأعشاب العالية التي كنا نمر خلالها. مشينا على وتيرة البغال، ذلك لأنّ الإسراع لم يكن مفيدا لاسيما أنّ الطريق كانت مؤمّنة على أن نصل إلى الهدف قبل بزوغ الفجر، حتى يتسنى لنا تمويه الدواب من الطائرات التي كانت تستطلع المنطقة في النهار. لّما وصلنا، أوقفنا جندي كان يحرس المكان، فأدلى قائد المجموعة بكلمة السر. كان الجنود نائمين. أتى الفاضل نحونا فتعرف علي و حيّاني بتحية السلام، ثم أوشك على صبّ جمّ غضبه على أخيه قبل أن يعدل عن ذلك احتراما لي. سأل المجموعة عن سبب تأخرها. مختار، الذي كان يكنّ لأخيه الفاضل الاحترام والتقدير، فضل الانزواء.

دلّنا الفاضل على مكان مغطى لنستريح فيه. كنا في تخم جبل يقع قرب دوار حرّاقة. أيقظني صوت الطائرات عند الصباح، ففتحت عيناي و تراءت لي الشافية وسهلها الشاسع يدرأها جبل بوعباد الشامخ.

طلب منّي الفاضل لا أبرح مكاني لأنّ الطائرات كانت تقترب منّا. أحظر لي جندي القهوة في علبة حليب فارغة محاطة بسلك اسودّت من فرط استعمالها للطهي. اقتربت الطائرات أكثر فأشار لي الفاضل بأنّ أنظر إلى البغال التي كانت ترعى العشب راحت تختفي لوحدها ما إن بلغها صوت محركات الطائرات. وكان اثنين من بينها، لايكة ولولو، أخذتا من قومية خلال اشتباك، أكثر خفّة من غيرهما، وكأنّهما مدّربتان على ذلك. ولقد روي لي بأن لايكة

ولولو ينبطحان ويزحفان عندما يسمعان طلقات الرصاص. كانت الدابتان تساعداننا على نقل المورتر والقنابل.

أعطاني الفاضل لمحة عن المنطقة ثم أطلعني بأنها أصبحت محظورة منذ أيام فقط. لقد تم إجلاء السكان منها حيث تم تقريبهم من المراكز الفرنسية تطوّقهم أسلاك شائكة. باتت المنطقة خالية تذكّرنا بسياسة ماو المتمثلة في تفريغ الحوض من مائه حتى يموت السمك. أضاف الفاضل بأنّ المنطقة تعجّ بالكوموندو الفرنسيين الذين ينشطون فيها في النهار وينصبون الكمائن في الليل وخصّ بالذكر كوموندو توما الأكثر شراسة بسبب التحاق الخونة بصفوفه ومن بينهم المساعد لحبيب وهو قائد فصيلة سابق في المنطقة، والرقيب خميس الذي جعلنا بأسه نأمره بالتغلغل في الكوموندو من أجل القضاء على لحبيب لكن خميس، وبعد أن زوّدنا بمعلومات هامة مدّة ثلاثة أشهر، خان والتحق بالكوموندو هو الآخر. ولقد خلق لنا خميس مشكلات عويصة لكونه يعرف المنطقة أيما معرفة وعلى علم بعادتنا كلّها.

في الصباح وزّع الفاضل المهام على جنود الفصيلة ونشرها في مواقع كثيفة داخل الغابة بحيث لا يكتشفها عناصر الكوموندو توما الذين كانوا يراقبون تحركاتنا في النهار للهجوم علينا عند مجيء الليل. اجتمعنا، نحن الإطارات وسط الحشد لوضع طريقة للتنقل في الليل حيث كان علينا أن نلتحق عند غروب الشمس بفصيلة بوجمعة الماروكي المتموقع في غمد الزانة. في السفح الغربي لجبل بوعباد. كانت تلك المنطقة التي لم تطأها أقدام العسكريين منذ بداية الثورة، تعدّ نقطة تراجع للفصائل عند الضرورة. فأجابني الفاضل إذ طلب مني أن ألتحق بالماروكي في جهر النهار زوالا. لم أفهم موقفه ذاك المتعارض تماما مع كل الشروح الموضوعية التي كان قد قدّمها لي.

كان الهدف من قرار الفاضل أن نلتحق بغمد الزانة معا مرفوقين بجنديين والمرشح علي بوعشة، النائب السياسي للمنطقة. عدل الفاضل الصارم عادة في شأن الإجراءات الأمنية التي تسبق كل عملية عن صدامته، أظن أنه أراد ذلك حتى يعفيني من صعوبة قطع الجبل ليلا وتجنّبا للوقوع في كمين. فكّرت في الوهلة الأولى أن أذكّره بأهمية التقيد بالقواعد الأمنية، لكنني تراجعت في آخر

لحظة، ذلك لأنّ الفاضل أدرى بشعاب منطقته وأكثر علما بتحركات العدوّ فيها. سألته فيما بعد عندما بتنا نعرف بعضنا البعض أكثر، عن السبب الذي دفعه إلى ذلك، فأجابني قائلا : "لّما أتيت مع مجموعتك إلى منطقتي، شعرت أنني مسؤول على سلامتك لاسيما أنّ عناصر كوموندو الاستطلاع والمباغتة كانوا يتربصون بنا فتصرفت كذلك لأبعدك عن الخطر.

شرعنا في السير في الساعة المحدّدة. قطعنا سهل الشافية وقرى مهجورة لم يبق فيها سوى القطط تجوب الأزقة وتراءت لنا البساتين التي يدلّ ما تبقّى منها على أنّ السكان قد رحلّوا على عجل. واصلنا سيرنا نسطّر بخطانا زبدا وسط الأعشاب العالية التي غزت الأراضي غير المحروثة منذ سنوات. قلت في قرارة نفسي ربّما كان الفاضل محقاّ، فارتفاع الأعشاب كان يسمح بمرور ثلاثة أشخاص أو أربعة دون أن يراهم العدوّ. دخلنا غابة بوعباد الكثيفة وشرعنا في تسلق سفح وعر فوصلنا إلى المكان المحدّد عند حلول الليل. وكان على الموكب أن ينطلق في موعد وصولنا.

تعرفت على بوجمعة. كان ملتحيا، عمره يناهز الثلاثين. علمت بأنه شارك في الثورة التونسية قبل أن يلتحق بصفوف جيش التحرير عند إحراز تونس على استقلالها في **1956**.

طلب قائد الناحية نائبه العسكري سبتي زمولي رحمه الله الذي كان من المفروض أن يرافق بوجمعة فأجيب بأنّه ذهب ومجموعته يناوش قرية مرداس.

كانت غمد الزانة تبدو صعبة المنال بالنسبة إلى العدوّ، فقبل أن نصلها، قطعنا فجا كان سيجعل الاستيلاء على المنطقة مستحيلا إذا ما احتليناه. المنطقة كثيفة الأشجار، زرعت فيها أكواخ دفن نصفها في التراب ما كنت لألاحظها لو لم يشر إليها قائد الفصيلة. دخلنا كوخ قائد الفصيلة واستلزم ذلك أن ننحني تماما، وما إن نجتاز المدخل حتى يبدو لك المكان واسعا مريحا.

كان الحديث ذا شجون عندما سمع دويّ رشاشات م ج 42 أسفلنا، معلنا بداية المناوشة التي حدثنا عنها قائد الفصيلة. التزمنا الصمت وأخذنا نسمع

تبادل الطلقات بين جنودنا والعدوّ. كان المجاهدون مسلحين علاوة على البنادق الرشاشة، بالمورتر عيار 35 مم وبنادق موزر. بات رد فعل الجيش الفرنسي مركّزا أكثر فأكثر إذ سمع دويّ الرشاشات الثقيلة 12,7 مم والمورتر عيار81 مم وتبعتّها المدفعية بضع دقائق بعدها كان يسعنا تصور رد فعل جنودنا أمام معركة كهذه، فهم حتما متدرّئون وراء حواجز طبيعية وصامدون أمام نيران العدوّ. لم يكن الهدف من المناوشات إحداث خسائر هامة وإنّما إخطار العدوّ بوجود عناصر جيش التحرير. دام الاشتباك حوالي ثلاثين دقيقة ثم عاد السكون من جديد. سكون مرهب كما بعد كل اشتباك. ساد السكوت الخيمة طيلة المعركة. وكلّنا يدري ما يدور في ذهن الآخر : هل شرع رجالنا في الانسحاب ؟ هل أصيبوا بأضرار؟ أي أضرار؟

وصل الموكب الذي عقبنا فشعر جميعنا بالاطمئنان. خرج الفاضل بوطرفة من الكوخ وتبعه قائد الفصيلة فتفقّد كلاهما حالة الجنود ودلّهم على مكان استراحتهم في الليل. انتشر الرجال عبر الأكواخ دون أن ينسوا الأكياس المليئة بالمؤونة. رجع الفاضل إلى كوخه فوجد فيه زمولي. نظر إليه فأكدّ له زمولي بإيماء ما كنت أعرفه : لم يصب رجالنا مكروه، انشرح الجميع. نادى بوجمعة جنديا حلّ وفي يده قدرة وضعها على النار. كان المجاهدون يبقون على النار موقدة إلى غاية طلوع الفجر لتضيء الكوخ وتسمح برد فعل سريع في حالة خطر. وضع الجندي بعض البطاطا في القدرة، جناها من إحدى البساتين المهجورة.

تحدث سبتي زمولي للمحافظ السياسي مازحا وقد عرف بخفة دمه : " آه ياسي علي، لم يعد هناك سكان يستضيفونكم ويطعمونكم دجاجا لم يبق سوى الكلاب والقطط التائهة ". كان من عادة المحافظين السياسيين أن يحتكوا مع الأهالي لأداء دورهم الدعائي والتحسيسي. ابتسم المحافظ وراح يشارك الجنود مزاحهم فالجميع كان يعلم أنّ علي بوعشة ذو بأس وشجاعة كبيرين وأنّه شارك في الوحدات القتالية قبل توليه مهامّه الجديدة التي لاتقل شرفا،

وكان الرجال يتذكرون لمّا كان يطلق النار برشاشه "بران" الإنجليزي الصنع. كان بوعشة يناهز سن الأربعين.

ونحن ننتظر العشاء، بدأ مطر خفيف يتساقط فأمر الفاضل قائد الفصيلة بأن يشير إلى الجنود المكلفين بمراقبة المخرم بالعودة إلى المعسكر على أن يعودوا إلى مواقعهم في الفجر، حتى لا يبتلوا. تناولنا العشاء ثم ركنا إلى النوم.

كانت رجلاي تؤلماني فسألت قائد الفصيلة هل إذا كان يمكن أن أنزع حذائي الذي لم يتنحّ عن رجلي ثلاثة أيام، فأجابني : " أنت هنا في منطقة مستقلة ". ففعلت ونمت.

عندما التحقت بغمد الزانة مع الفاضل نهارا، رآنا الكوموندو توما، فاستنتج عناصره الذين كانوا يعرفون الفاضل أيّما معرفة، أنّه لم يكن لوحده. كونه معتادا على التحرّك ليلا فقط. تموقع الكوموندو في المسلك الذي انتهجناه في النهار ثم سار في أعقاب الموكب. لم يستطع أن يحدّد عدد الجنود بسبب ظلام الليل، ومعروف أنه لا يهجم أبدا على الخصم ما غلبه عددا. وكان دور الكوموندو يكمن في الإشارة إلى وجود وحدات جيش التحرير أو تنصيب الكمائن لمجموعات صغيرة لإلقاء القبض على بعض المجاهدين واستنطاقهم للحصول على معلومات وافية. لم تكن الكمائن التي كانت تدوم بضعة دقائق ليس إلاّ، تسفر سوى عن خسائر طفيفة وسرعان ما كان الكوموندو ينسحب أمام ردّات فعلنا القوية ولقد أعيدت تشكيلته بسبب الخسائر الجمة التي ألحقها به جنودنا.

لمّا وصل الكوموندو إلى المخرم، وجده خاليا لكنه لم يجرأ على التقدم نحو الأسفل ففضل انتظار طلوع النهار بعد أن أحضر المدفعية والطائرات. تفاجأ الكوموندو على الساعة الخامسة صباحا برؤية مجموعتنا التي كانت قد انسحبت من الموقع ثم رجعت لاحتلاله ثانية. اندلع اشتباك مات خلاله جندي من جنودنا. استيقظنا بسرعة البرق عند سماع الطلقات الأولى فوجدنا أنفسنا تحت نيران العدوّ. إلاّ أنّ الأكواخ المدفون نصفها في الأرض كانت تحمينا

فتمكننا من تفادي نيران الأسلحة الخفيفة للكوموندو. أخذت حذائي دون أن أفرق ذات اليسرى من ذات اليمنى. ارتديته بصعوبة. كفّت النيران توّا. بدأ ضوء الصبح يشرق. أبلغتنا المجموعة عند انسحابها بأنّها وقعت في كمين. ماتت البغال المربوطة قرب كوخنا جلّها بنيران العدوّ. دخلت المدفعية في المعركة إلاّ أنّ طلقاتها كانت مبعثرة وغير دقيقة. أخذت الطائرات بعدها تحلق فوق المنطقة لكنّ سحبا خفيفة كانت تعيقها. لعّل الكوموندو عجز عن توفير معلومات وافية لمسؤوليه عن مكاننا لأنّه لم يتوغّل إلى أسفل المخرم.

ربّما كان ذلك تمشيطا بحكم التنسيق بين مختلف الأسلحة وبخاصة منها المدفعية والطيران.

اجتمع قائد المنطقة بالجنود البالغ عددهم حوالي مئة وعشرين عنصرا. أي ما يعادل ثلاث فصائل. راح الفاضل يعدّ فيعدّ إلى أن تيقن أنّ جنديين كانا ينقصان، سقط أحدهما خلال الاشتباك في حين كان الآخر، العقبي، وهو مسؤول البغّالين، في تعداد المفقودين. قال العديد بأنهم رأوه بعد المعركة. فغالب الظن أن يكون على قيد الحياة لاسيما أنّه كان يعرف المنطقة جيّدا.

تعوّد الجنود على عدم ترك أي شيء للعدوّ فراحوا يقتلعون باقات من الحشفة ليوقدوا بها نارا وكان يتعين على الحرّاس سواء في الذهاب أو الإياب، أن يزوّدوا النار المضرمة بالحطب حتى لا تنطفئ فتحرق فيها المؤونة التي تم إحضارها في اليوم السابق.

كلّ شيء كان يدلّ على أننا وقعنا في تمشيط. استدعى الفاضل رقيبا يعرف المنطقة أيّما معرفة كونه ولد بها وكلّفه بالسير في مقدمة الصف، ربّما ساعدنا على إيجاد مخرج لنا حتى تثبت لنا الرؤية عن العدو. جبل بوعباد شاسع ووعر المسالك وعددنا يجعلنا لا نخاف من مجابهة العدوّ في حالة ما تحتم علينا ذلك، فالمهم أن نعرف ماذا كان بصددنا وماهي نوايا الجيش الفرنسي. اقترح الرقيب أن نتجه صوب مرداس التي كانت قد تمت مناوشتها عشية ذلك اليوم وحيث توجد ربوة على تخوم الغابة تشرف على القرية وتطلّ على الطريقين المؤديين

من مرداس إلى القالة ومن قرية بن مهيدي إلى قرية بارال. ففي حالة ما إذا كانت توجد قوافل من الشاحنات العسكرية، فذلك يعني أن الأمر يتعلق بتمشيط وما علينا إلاّ أن نتموقع في النقاط العالية ونتربص بالعدوّ، وإذا كان الأمر عكس ذلك، تمكننا من المرور،لأنّ ذلك يعني بأنّ العملية عملية محدودة.

برحنا المكان وأخذنا معنا ماعونين من الفخار كنا قد حملناهما من بيت مهجور؛ "طاجينان" قديمان أحدهما مكسّر جزءه كنا سنحضر فيهما الخبز. لم يكن الماعونان شيئا غريب الأطوار في مثل تلك الأوقات الحرجة، فهما بالعكس معنى للحياة إذ كانا يلهماننا القوّة والشجاعة لمواصلة الدرب.

بدأت الطائرات في الابتعاد في حين واصلت المدفعية في إطلاق النار دون تركيز. واصلنا تقدمنا باتجاه القرية تحت قيادة الرائد المرشد. عندما بلغنا أعلى القمة استرحنا. تسلقنا أنا والفاضل والمرشد فترأى لنا سهل عنابة وقرية مرداس وطريق بارال والشافية على اليمين والشمال.

المنطقة خالية. الأمر إذن ليس تمشيطا. لو عرفنا ذلك لتسنى لنا ملاحقة الكوموندو كون عناصرنا كانوا قادرين على الظفر بهم عبر مسالك أخرى بمجرّد أن ننقسم إلى مجموعتين أو ثلاث، ونقطع عليه طريق العودة. قررنا السير على طول التخوم في الغابة بالموازاة مع طريق الشافية المؤدية إلى حمام بني صالح بهدف التأكد من الوضع والالتحاق بنقطة التموين التي لم يكن يعرفها سوى بعض المطّلعين.

أصبح الفاضل يحتاط منذ أن أعلنت المنطقة منطقة محظورة، إذ بات يخزن المؤونة، من سميد وسويكة وهي خليط من السميد المحمّص والسكر، وقهوة وحليب وبعض المأكولات الباردة الأخرى في أماكن مختلفة.

بلغنا نقطة التموين. نشر قائد الناحية الفصائل بنفسه وأطلع الجنود على الأماكن الواجب حراستها. استقبلنا المساعد روشي وهو المسؤول على المكان الذي كان الجنود يستعملونه للراحة في بعض الأحيان .

كان يمكن ملاحظة الجنود المنبطحين وسط الأشجار بسبب زيهم الذي كان الوسخ عليها يعكس ضوء الشمس، كان يعتلي لباسنا سخام الأشجار المحروقة، وتحزّزها الأغصان عندما كنا نمرّ وسط الغابة في المناطق التي لم ينل الحريق منها. وكانت التحززات تلك تبرق مع أشعة الشمس فتجعل العدوّ يرانا على بعد عدّة أمتار.

لم يأكل الجنود شيئا منذ الصباح. بدأنا في تحضير الخبز للجميع على الطاجينين اللذين أحضرناهما معنا. كانت للفاضل فكرة عن غياب العقبي. سأل المساعد روشي وهو يعجن الخبز : " هل رأيت العقبي ؟ ". التفت روشي نحوي وابتسم ثم أجاب : "لا، لم أره". عجنت خبزة وأريت الجميع إيّاها وكلّي فخر بقدرتي على طهي الخبز كغيري من الجنود الذين كان يحصل كلّ واحد منهم على ربع خبزة وحسب. اقترب مني روشي وراح يهمس : "العقبي موجود لكنني أعرف أن الفاضل صارم ففضلت أن أبوح لك بذلك". اختليت بقائد الناحية وأخبرته أنّ مسؤول البقّالين حاضر وأخذت منه الوعد ألاّ يعاقبه. طوى الفاضل الصفحة ولم يتحدث عن الموضوع ثانية ربّما بحكم الاحترام الذي كان يكنّه لي.

جبنا المنطقة مدّة عشرة أيام تقريبا تعرّفت خلالها على الأماكن المهمة. كنا نمشي ليلا ونتوقف نهارا في أماكن مغطّاة. وكثيرا ما كانت مناطق الراحة تختار بالنظر إلى الخصائص الجغرافية التي تسمح لنا بمواجهة اشتباك طويل الأمد. ويعدّ جبل بوعباد أفضل مكان لذلك كونه أكبر حاجز أمام العدوّ بسبب كثافته ووعورة مسالكه وشساعته. ولقد مكثنا فيه عدّة مرّات في مواقع مختلفة.

لم نواجه أي كوموندو طوال تلك الفترة ماعدا بعض المناوشات التي قمنا بها ضد المراكز العسكرية،كنا نتناول وجبة واحدة في اليوم ربع خبزة أو السويكة التي كنا نأكلها في علبة حليب فارغة. كان الأكل قليلا إلى درجة أنّ الرجال باتوا يشعرون بالوهن إذا وقفوا ارتعشت أرجلهم. كان التبغ يعوزنا

أيضا، فبتنا نلفّ أوراق الشجر الجافّة في أوراق الصحف فتناسينا حاجتنا إلى النيكوتين.

أخبرنا حارس في بوعباد أنّ شخصين كانا يتقدمان نحونا. الرجلان عونا اتصال ظنّا أنّ المنطقة كانت لا تزال آهلة بالسكان فارتيا زيا مدنيا. سلّم أحدهم رسالة إلى قائد الناحية ثم سلمني هذا الأخير إياها من باب الاحترام. قرأتها ثم رددتها له. لقد هاجم كوموندو توما القاعدة الخلفية لناحيته، سقط جندي وجرح العديد. قرّرنا الدخول في مساء ذات اليوم مرفقين بمجموعة لحمايتنا في الليل، قصدنا القاعدة الخلفية على بعد ثلاثين كيلومترا. وصلنا في الصبح وعلمنا أوّل ما علمنا أنّ قائد الكوموندو توما لقي حتفه خلال الهجوم وأنّ العديد من رجاله قتلوا أو جرحوا.

حطت مروحيات طبية عديدة غداة ذلك اليوم في عين الكرمة. تمكن الرقيب عمار قشابية من إعطاء الإشارة لوحدة قريبة منه كان قد سبقه حارس أطلق رصاصة إنذار. كان الكوموندو يدري أننا كنّا جميعا في الداخل فاغتنم الفرصة وهجم على القاعدة الخلفية للناحية الثانية. في ليلة حالكة وريّحة. كانت أوراق الأشجار الجافة تتناثر حول مركز القيـــادة الذي أقيم تحت نوع من أشجار البلوط، اعتمد الكوموندو "اقترابا صامتا"، يموّه تحرّكه بساط الأوراق المتناثرة والأغصان بفعل هبوب الرياح، لّما أطلقت رصاصة التحذير كان الكوموندو قد باغت جزءا من القاعدة وتلت ذلك مجابهة جسما لجسم استعملت خلالها القنابل اليدوية على نطاق واسع. أصابت شضاياها العديد من رجالنا، ذلك أنّ تلك الطريقة في استعمال هذا السلاح لم يكن معهودا لدينا. كان الجنود الفرنسيون يربطون ملاعق قنبلتين أو ثلاث منزوعة المسمار بعضها بعضا ثم يربط الكل بقنبلة أخرى لا ينزع منها مسمارها إلا عند رميها، فيتم إلقاؤها على الخصم وتنفجر القنابل الأربعة الواحدة تلوى الأخرى، على أن يتم قبل ذلك ضبط فتيل المفجرّات البطيء. فاجأتنا هذه الطريقة التي ضاعفت عدد المصابين في صفوفنا.

أقام الجيش الفرنسي تشييعا جنائزيا كبيرا على شرف توما الذي كان الكوموندو يحمل اسمه. وقد تم نقل جثته من عين الكرمة في حين خصصت له صحيفة "لوبلاد" مقالا.

لابدّ من الإشارة إلى أنّ توما نكّل بالجزائريين واقترف التعذيب على نطاق واسع وكانت ممارساته تزيد شراسة عندما كان يفقد عناصر من الكوموندو فيصب جم غيظه على المواطنين العزل الذين كان يذبحهم ذبحا. وكم من مرّة مررنا بجثث مدنيين جزائريين أفرغت أجسادهم من دمها وعلامة الذبح بادية على رقابهم.

لم يكن يتوفّر في منطقتنا الشروط اللازمة لقطع خط موريس، ذلك لأنّ التضاريس كانت تشكل عوائق عالية الخطورة على من يحاول الاجتياز من خلالها. ومع ذلك، تلقينا في شهر جوان 1959 الأمر بمحاولة تمرير كوموندو يقوده المرحوم حيدوش من الولاية الثالثة، وآخر تحت قيادة الضابط دعاس الأزهر أحد زملائي في مدرسة القليعة كانت مهمته مرافقة حيد وش إلى غاية الولاية الثالثة. كان كوموندو حيدوش مكلّفا بنقل أجهزة الاتصال ANRGC 9 ومبالغ مالية هامة.

عندما تلقّينا الامر، اتصلنا بالفريق المتخصّص في اجتياز خط موريس والمشكّلة من عشرين عنصرا تحت قيادة بدر أحسن وتركي بوبير. كان الفريق مزودا بوسائل الاجتياز علاوة على زورقين مطاطيين يستعملان لقطع المجاري المائية الكثيرة في المنطقة. تلقى الفريق الأمر بالقيام بعملية استطلاع. وتحضير نقطة عبور أو عدة نقاط إذا استوعب الأمر ذلك. كان علينا أن ننفذ العملية بعد تلقينا الأمر بمجرد وصولنا إلى عين المكان مرفوقين بالعناصر المكلّفة باجتياز الخط. عرّج الكوموندو على مركز القيادة أوّلا من أجل تحضيرهما قبل إرسالهما إلى الناحية الثانية، التي قررنا أن تكون نقطة الانطلاق. كلّف بمرافقتنا عناصر من وحدات قطاعات الناحيتين العسكريتين الثانية والثالثة للمنطقة الأولى في حين كانت القيادة التي كنت أنتمي إليها مكوّنة من نائب

الاستعلامات بالمنطقة الأولى، أحمد ترخوش وقائدي الناحيتين بوطرفة الفاضل وحدّادي عبد النور الذين كانا يعرفان المنطقة جيدا.

قاد الفاضل الصف بمجمله لأننا كنا سنجتاز منطقته، وكان الصف مشكلا من فصيلة تابعة للناحية الأولى كوموندو حيدوش ودعاس. كنت أشرف على العملية بمعية مسؤول الاستعلامات. أنيطت إلى قائد الناحية الثانية مهمة مرافقتنا إلى غاية السفح الشمالي لجبل بوعباد، الزوية، المطل على سهل ريغية. على أن يواصل المهمة قائد الناحية الأولى الذي كانت إحدى فصائله بقيادة المساعد حمدان بليمين تنتظرنا في عين المكان مع الفرقة الخاصة المكلّفة بإحداث الثغرات في الخط. وقع الاختيار على منطقة "السابعة". جاءنا العقيد ناصر ونحن مجتمعون في نقطة الانتظار. وكلّه سعادة بعد أن وطأ أرض الوطن فسجد وقبلّ التراب. صلىّ ركعتين ثم خاطب فينا : "هذه أرض الجزائر سقتها دماء الشهداء. ضحوّا بأنفسكم من أجل هذه الأرض الغالية علينا جميعا لقد انتصر أجدادكم في مدينة بواتيي، فخذوا العبرة واعلموا أنّ مهمتكم نبيلة، فإذا وجب أن تقضوا نحبكم فلا تتخاذلوا ". كان العقيد ناصر معروفا بخطاباته الشعرية فبذلنا قصار جهدنا حتى لا ننفجر ضحكا.

سلكنا الطريق المؤدي إلى بوعباد، نقطع المسالك المغطاة بأشجار البلوط نهارا لنحتمي من طيران العدو ونتبع المسالك العارية ليلا يحمينا الظلام. سرعان ما لاحظنا التحضير البدني السيئ لجنود كوموندو حيدوش، في حين بدا رجال دعاس المنبثق أغلبهم من الوحدة الشهيرة التي كان يقودها المرحوم سليمان المدعو " لاسو" – أي الهجوم – بلياقة أفضل خاصة وأنهم متعودين على نقل الأسلحة. تطلب تنقلنا ثلاثة أيام عوض ليلة كما تعوّدت الوحدات. قضينا جزءا من الليل ونهارا بأكمله تقريبا قبل أن نصل إلى جبل الوردة لنعود فنسير صوب جبل بوعباد ليلا مرورا بحرّاقة والشافية. استرحنا نصف نهار ثم شددنا الرحال من جديد نحو السفح الشمالي لجبل بوعباد المطلّ على مختلف المراكز العسكرية المنتشرة على طول الطريق الرابط بين عنابة والقالة وبحيرة الطيور وسهل كئيب مليء بالعراقيل. إنه سهل ريغية.

تطلّبت منا المرحلة الأولى بذل جهود جهيدة وكم من مرّة تراجعت إلى وراء الصف حتى أحثّ المتخلّفين على الالتحاق به وتشجيع من أنهكهم السير على تحملّ المشقة. كان الخوف من اكتشاف العدوّ لنا قبل بلوغنا الهدف يزيدنا يقظة وتحسّسا بالخطر بسبب بطء السّير خاصة أنّ الطائرات كانت تحلّق فوقنا طول اللّيل. كان اللّيل أيضا يحمل في وجناته مخاطر عدّة. إذ كان يتعيّن علينا تحاشي الكمائن التي كان ينصّبها لنا الكوموندو الفرنسي في هذه المنطقة.

لم يمنع الإرهاق الذي حلّ بأغلب جنودنا هؤلاء من التسلّح بالحماس من أجل اجتياز المنطقة والالتحاق بولايتهم، لم يفقد رجالنا في أعصب الأوقات الأمل والبسمة تعتلي دائما ثغرهم والمزاح لا يفارقهم. كلّ متن أحد الجنود فقرّبناه أنا والفاضل وحيد وش من مقدّمة الصف حتى يرى بأعينه الجزء الأصعب الذي كان أمامنا والذي كان يشكل نقطة أللارجوع. حاولنا إقناعه وقد أضناه التعب بعدم مواصلة السّير والبقاء مع عناصر الفاضل الذين انتهت مهمّتهم هنالك. لم يقتنع الرّجل الذي ما انفك يتمتم بأنّه يريد المضي قدما رفقتنا.

عندما حلّ اللّيل، حيّينا قائد الناحية الثانية قبل مفارقته. خضنا في المرحلة الأخيرة يقودنا عبد النور الذي كان ينشط في تلك الناحية.كان علينا أن نقطع اثني عشر كيلومترا في منطقة خطيرة يتخلّلها الطريق الرابط بين القالة وعنابة، وكان علينا أن نمرّ خفية على مراكز تابعة للجيش الفرنسي ونقطع قرى ومستنقعات قبل وصولنا إلى مرحلة التحضير لاجتياز خط موريس. وكان لابدّ للصفوف قطع وادي بوناموسة وسيبوس. ونحن نمشي، كنّا نرى السّهل ونلاحظ العقبات الواجب اجتيازها. أقمت لأول مرّة في هذه المنطقة وقد أنيطت بي مهمّة حسّاسة. اشتدّ توتري لثقل المهمّة الواقعة على عاتقي إذ كان يجب عليّ السّهر على سلامة الجنود مع أنني لم أكن أعرف المنطقة معرفة جيّدة لاسيما وأنها كانت محفوفة بالمخاطر. فبحكم مسؤولياتي العسكرية بالمنطقة، كان اللّوم سيقع عليّ في حالة حدوث أيّ خطإ.

لحسن الحظ، لم يحدث لنا أيّ مكروه وما إن اجتزنا الطريق حتى ابتعدنا عن الخطر. باشرنا المرحلة الأخيرة فدخلنا منطقة مسّطحة بها خيس مبعثر وأعشاب تصل إلى الخصر. شعرت ونحن نقترب من الهدف بالحماسة والشجاعة يزيدان عند الجنود. بلغ الماء أوقادنا ففهمنا بأنّنا وصلنا إلى المستنقعات وكانت تلك آخر مرحلة. كانت الساعة تشير إلى الرابعة صباحا. كلّما تقدّمنا كلّما صعد الماء ليصل إلى خصورنا فبات المشي أصعب.كنّا نحمل أسلحتنا رافعين أيدينا حتى لا نبللها. بدأنا ندخل شيئا فشيئا تحت عريش من الخيس والجنبة مقبلين على الهدف.كان العريش يموّهنا عندما طلع النّهار،لكنّ المشي زاد صعوبة، إذ كان علينا أن ننحّي جانبا الغصن تلو الآخر حتى نخرج من المستنقع. تنفّسنا الصّعداء لّما بلغنا النشعة. فنشرت مجموع الوحدات وعيّنت لهم مكان استراحتهم ثم استحرت. وجب علينا الآن، وقد وصلنا إلى المكان الذي كنا سنحضّر فيه للمرحلة الأخيرة، مساعدة كوموندو دعّاس وحيد وش على اجتياز خط موريس. يقع المكان بين جبل سيدي عامر والساحل الرابط بين مدينتي عنابة والقالة قرب النقطة 43. لم نسترح سوى بضع ساعات ومع ذلك شعرنا بالاستعداد للقيام بالعملية، ولقد تبيّن لنا مع مرور الأيّام بأن تلك المنطقة مريحة، ربما لقربها من البحر الذي لا يبعد سوى بمئتي متر وكثرة الينابيع ذات الماء العذب الصافي.

تركنا الوحدات في عين المكان ثمّ قرّرت بمعيّة عبد النور حدّادي وأحمد ترخوش الالتحاق بالفصيلة والفرقة الخاصة المتموقعة على بعد بعض المئات من الأمتار منّا. تمّ الاتصال بهما والشمس قد بلغت أوجّها في تلك الصائفة. تبادلنا التحيّة قبل أن ندرس معا كيفية تنفيذ مهمّتنا. لاحظت علامات الاسترخاء عند عناصر الفصيلة الموجودة قربنا. نزع أغلب الجنود أحذيتهم، بل إن بعضهم بلغت به الجرأة إلى تعليق سلاحه على أغصان الأشجار، وأمّا آخرون فكانوا متمدّدين متوسّدين أحذيتهم. انتابتني الدّهشة أمام موقف كهذا علما بأنّنا كنّا موجودين في فخّ حقيقي لا يسمح لنا بالتراجع نهارا إذا ما أحدق خطر بنا.

أخذت موقعا في النقطة 43 اخترناه كمركز للمراقبة ومعي قيادة الأركان المصغّرة التي نصّبناها في عين المكان. لاحظت منذ الوهلة الأولى بأنّ المنطقة لم تكن تسمح بالقيام بعبور مموّه و كان قد اختار المكان قائد أركان القاعدة الشرقية، بعد أن عيّن مرشدين انتقاهما من وحدات الولاية الثانية على أساس معرفتهما التامة بالجسور القاطعة لواد سيبوس وتحكّمهما في المسلك المؤدي من جبل بوحمرة إلى الإيدوغ.

حلّ جمال الموقع الجلاّب محلّ التوتّر الذي ساورني بسبب خطورة المهمّة التي كانت تنتظرنا، لكنّ مخاوفي سرعان ما اختفت بفضل الهدوء والطمأنينة اللذين شعرت بهما لدى المسؤولين ممن معي، ومع ذلك فمجرد لمحة حول المنطقة كانت تبيّن المصاعب الكثيرة التي كنّا سنجابهها، يحدّنا من الشمال الغربي مطار عنابة ووراءه مدينة عنابة المترامية الأطراف وواد بوناموسة الذي كان يبعدنا بحوالي خمس مئة متر. نحن الآن أمام الموقع القديم للنهر الذي سيسمح لنا بالعبور، يتراءى لنا خط موريس والجسر الذي اختارته عناصرنا للمرور عليه، لكونه غير مكهرب ولا تتخلله سوى أسلاك شائكة وألغام من طراز51 على شكل محبرة وأخرى قافزة وأكثر خطورة. لقد سبق للفرقة الخاصة أن نزعت الألغام وقطعت الأسلاك تاركة إيّاها في المكان عينه حتىّ لاتلفت انتباه دّوريات العدوّ الكثيفة على طول الخطّ.

كنا نرى في البعد الطريق الرابط بين عنابة وسوق أهراس ونلمح ــ بصعوبة ــ وادي سيبوس بينما كان جبلا بوحمرة والإيدوغ يتراءيان لأعيننا شاهقين وراء مدينة عنابة. تلك هي النقطة التي كان على الكوموندو أن يلتحق بها مشيا في غضون ليلة مرورا ببوناموسة وخط موريس والسيبوس وبوحمرة. إذا وصل جنودنا بوحمرة، احتموا من العدوّ لكون الجبل كثيفا وذا دروب وعرة تسمح لهم بالاختباء والصمود يوما في حالة حدوث اشتباك معه.

ومهما يكن من أمر، فجبل الإيدوغ فاتحة لسلسلة جبلية تصل إلى منطقة القبائل مرورا بمرتفعات سكيكدة وجيجيل والقل، كلّما بلغ الجنود أحدهم،

تلقوا المساعدة من السكان والوحدات الرابضة في مختلف القطاعات التي يمرّون بها.

كان موقعنا محاصرا، يحدّه من الشمال البحر، ممّا كان يعرضنا إلى قصف البواخر الفرنسية أو نزول قواتها البحرية، ومن الجنوب الشرقي الطريق الرابط بين عنابة والقالة الذي كانت تتخللّه مراكز عسكرية تدعى المراكز الفرعية التي كان يتسنىّ للعدو أن يتدخل من أي منها بحمل جنوده على متن المروحيات. دعني أذكر أقرب المراكز إلينا : عنابة ومطارها وبن مهيدي وجسرها ومركز بن هومانة الواقع في مشطة نواصرية ومركز بحيرة الطيور ونملية وقريتي بلا ندون سابقا ومرداس على الحدود الشمالية لجبل بوعباد. كان يمكن للعدوّ أن يطوّقنا بمجرّد تحسسه وجودنا بسبب تداخل تلك العوائق الطبيعية والاصطناعية المشكلة من المجاري المائية والمراكز العسكرية. هذا دون أن ننسى البطاريات وفرق المدفعية المنتشرة عبر المنطقة برمتها، إضافة إلى الطيران الذي كان يمكنه التدخل،ناهيك عن طائرات الاستطلاع التي لم تنفكّ تحلق فوق رؤوسنا دون اكتشافنا، إذ كانت الأعشاب العالية غير المحصودة منذ مدّة، والأشجار المنتشرة هنا وهناك، تقينا من أنظار المستطلعتين، بل حتى أنظار طياري نادي عنابة للطيران الذين كانوا يحلقون على علوّ منخفض.

كان موضوع البعوض يشغلنا، ذلك لأنّ تلك الحشرات غزت المنطقة حتى غدا الحديث عنها يضاهي الحديث عن العدوّ. كان جنود فصيلة حمدان مزوّدين بقطعة قماش سميكة مربّعة يحمون بها رؤوسهم وجزءا من أكتافهم من لسعات البعوض المتعطش إلى الدماء خاصة بالليل. اخترت مكانا عاليا، وتقبلّت من جندي قطعة قماش منحها إياي ورحت أتمدد على الأرض حتى أنام. لكن هذا العدوّ الطائر كان يصارع الرياح ويصل إلي فيثقب القماش السميك ويغرز إبرته في جسمي، ومع ذلك فالصوت الذي كان يحدثه وهو يطير كان أكثر إزعاجا من لسعاته. لكنني سرعان ما تعودت عليه.

كنا خلال تنقلاتنا إلى وادي بوناموسة نتوقف فنعيد تنظيم صفوفنا ونقتلع باقات من العشب نبعد بها البعوض، لكن ــ ومن كثرة تنقلنا إلى هذا الوادي الذي كان يبعدنا بأقل من كيلومتر واحد، تكونت خلاخل حمراء دامية على معاصمنا وأوتادنا من فرط اللسعات، لا تنج منها سوى الوجوه بفضل المنشّة التي نصنعها من العشب.

علّقت آمالي كلها بما تيسّر من حظ في نجاح مهمتنا ولم أدع نفسي أبدا تستسلم لليأس الذي ما فتئ يغزو أفكاري بمجرّد التفكير في العقبات العارضة أمامنا. لا مجال للتخاذل. أوليت اهتمامي إلى العمل الواجب علينا القيام به من أجل إنجاح العملية مهما كلّفت من ثمن واسترجعت رويات المساعد حمدان ورجاله الذين قالوا إنّ المنطقة كثيرا ما اختيرت لراحة الجنود لكونها مستنقعا يستحيل للعدوّ أن يقتحمها،وقد باغت جنده المجاهدون بدل المرّة مرّات، ممّا دفع الجيش الفرنسي إلى التنقل لاقتفاء أثرهم. ومهما كان، فالمنطقة غير ملائمة للقيام بالمهمة التي أوكلت إلينا،ولو زرتها قبل ذاك لما تصوّرت الخوض في مغامرة كتلك.

كانت مرتفعات بني صالح الواقعة في المنطقة الثانية التي كان يقودها عبد الرحمن بن سالم أكثر ملاءمة لنقل الأسلحة وتمرير الجنود. قضينا نهارا بأكمله في قطاع حمدان، ولنسمه "قطاع الانتظار"، قبل أن أركن إلى الراحة. بالليل تفقدت الوحدات ولاحظت أنّ الرجال قد استراحوا واطمأنوا لاقترابهم من الهدف الكامن في اجتياز خط موريس.

لم تكن بقية المشوار تقلقهم كثيرا لاسيما أنّ أغلبهم كانوا قد عبروه في الاتجاه المعاكس نحو تونس. وأنا أمشي نحو مكان استراحتي، تبادرت إلى ذهني مخاوف : "وماذا لو باغتنا العدوّ خلال التحضيرات ؟ " لكنّ صور أولئك الجنود الذين تفقدتهم وراحة البال بادية عليهم كانت تملي علي بأن لا أخيب آمالهم فآثرت أن أكتم مخاوفي تلك، ثم رحت أفكر في بعض الإجراءات اللازم

اتخاذها لتفادي أي طارئ. أمرت المسؤولين بالسهر على احترام تعليمات تمويه الرجال والمواقع.

عينت لكلّ وحدة موقعها وشرحت للمسؤولين إمكانية اكتشاف وجودنا من قبل العدوّ في قطاع الانتظار نهارا و أصدرت الأوامر بالاحتماء ــ في مثل هذه الحال ــ في مركز المقاومة والصمود طول النهار إذا استوجب الأمر ذلك، وأمرت كذلك بإيلاء الاهتمام إلى توجيهات مسؤولي المنطقة والرجال العاملين بها لأنهم أدرى بها. كانت أسباب نجاحنا تكمن في تضاريس المنطقة التي كانت في صالحنا. ثم أصدرت تعليمات بتقريب الجنود إلى المستنقعات لتحاشي ضربات العدوّ وقنابلهم التي لا تنفجر عند التطامها بالمستنقع حسب ما قيل لي عن تجربة في المساء، خرج مسؤول على رأس فرقة للاستطلاع نحو الجسر الذي اخترناه كنقطة عبور. كان الهدف من العملية التأكد من عدم تفطن العدوّ لما كنا نحضّر له، ذلك أنّ الحارس المتمركز باستمرار في النقطة 34 كان عاجزا عن المواصلة في مراقبة الجسر ليلا ورؤية نقاط التفصيل في الظلام.

في الصباح، فتحت عينيّ فتفاجأت بفنجان قهوة وحليب ساخن وقطعة خبز أحضرها المجاهدون في الصبح. بدا لي الأمر غريبا في منطقة كتلك قاحلة لا تدب فيها الحياة.

لقد جازف هؤلاء الرجال بحياتهم من أجل إرضائنا مسرورين، لكوننا نقاسمهم الخطر، فجعلني لطفهم ذلك أشاركهم كلّ شيء حلوه ومرّه. كنت أتلمّس عند هؤلاء الجنود كثيرا من الاحترام، إذ كانت العلاقة بين المسؤولين وباقي المجاهدين حميمية يحكمها الانضباط، وربّ محنة أخرجنا منها جندي بسيط أو صفّ ضابط، وإنّ ما حدث لنا في غمد الزانة وخلال معركة جبل البلوط وفي معارك ضارية أخرى ليبرز مدى وجوب احترام الغير مهما كانت درجة مسؤولياتنا.

بعد أن تذوقنا ما أحضره لنا الجنود، شرعنا في التحضير لاجتياز خط موريس. لم يكن يعترض سبيلنا أيّ عارض في حين بات عبور وادي بوناموسة

مهمتنا الأولى. كان يجب علينا تمرير كلا الكوموندوين معا مع اعتماد المباغتة للسماح لهم بالالتحاق بجبل الإيدوغ. قررّنا تمريرهم على الساعة التاسعة ليلا حتى لا يطلع عليهم النهار في منتصف الطريق. كان قاربين مطاطيين المطاطية يتسع كل واحد منهما لرجلين فظننا أنهما كانا يكفيان لعبور مئة وثلاثين رجلا نحو الضفة الغربية.

بدأنا نقترب نهارا محتاطين حذرين بهدف مباشرة الاجتياز على الساعة السادسة مساء. حينما وصلنا إلى موقع النهر القديم وبعد محاولة أولى لاحظنا أنّ التيار به كان جارفا. فكرّنا مليا ثم قررنا التنقل إلى موضع تفرّع المجرى على بعد مئة متر.

اجتازت فرقة مشاة مزوّدة برشاشين تابعين لفصيلة حمدان النهر، وعبّأنا العدّة ثم أخذنا في تمرير عناصر الكوموندو؛ لكننا سرعان ما تفطنا إلى أنّ الوقت كان سيعوزنا فنعجز عن بلوغ خط موريس في الموعد المحدد آنفا. قررّنا أن نمرّر الجنود في الاتجاه المعاكس على الضفة الغربية من النهر. وفكّرنا في حلّ آخر لاحترام الموعد.

كان أمامنا حلاّن : إمّا أن نستعمل مصبّ النهر شريطة أن نتغلّب على التيار القويّ، وليس أمامنا خيار في هذه الحالة سوى أن نربط أحبالا حول الحلقات الملتصقة بطرفي الزورق المطاطي.ظننا أنّه بالجذب على الحبلين في آن واحد من جهتي النهر كناّ سنصارع التيار ونربح الوقت. لمّا التحقت الوحدات بقطاع الانتظار لقضاء الليل هناك، رحت أنا رفقة بضعة جنود يجيدون السباحة ويعرفون المنطقة إلى المصب وكان يبعدنا بمئتي متر.

ونحن نقترب من الرافد، كرامى أمامنا بساط من الرمل الدقيق يمتدّ وراءه الشاطئ والبحر المستنير بضوء القمر الساحر. نظرت إلى ذلك المنظر الخلاّب، لكنني سرعان ما تذكرت العمل الشاق الذي كان ينتظرنا. كان الرجال منهمكين في التحضير للعبور، وخيالهم يلوح وسط الضوء وكأنّهم عصابة لصوص في فيلم خيالي. باءت المحاولات بالفشل، ذلك أنّ ثقل الزورق

والرجال الذين كان يقلّهم مزّق الحلقات فألقى الجنود بأنفسهم في الماء وهم لا يزالون متعلقين بزورقهم فسبحوا حتى واصلوا إلى حافة النهر، وقد صارعوا التيار الذي كان يرمي بهم إلى العرض.

خاب الخيار الأول فقررّنا تقسيم الكوموندو إلى فوجين وتمريرهم على يومين. عدنا إلى الوحدات والأسف يعلونا فأجلنا الاجتياز الأوّل إلى يوم الغد مساء. قضينا ليلتنا الثالثة في قطاع الانتظار، وفكرة اكتشاف العدوّ لنا تساورني بشدّة، فالذهاب والإياب عبر الأعشاب المرتفعة كان يترك وراءنا زبدا من شأنه أن يلفت انتباه الطائرات الاستطلاعية وطائرات نادي الطيران المحلقة فوق رؤوسنا باستمرار. اجتمعنا ثانية يوم غد لنحدّد من من حيدوش أو دعاس كان سيمرّ الأول. ألحّ حيد وش على اجتياز الخط قبل دعاس محتجا بأهمية ما أوكل إليه من نقل لعتاد للاتصالات اللاسلكية ومبالغ مالية هامة تم توزيعها على عدد من جنده. قبلنا اقتراح حيد وش ورأينا أنه صائب وقرّرنا إقحام جنود من كلا الكوموندوين يجيدون السباحة، وسحب عدد من رجاله الذين حلّ بهم التعب حتى لا يعطلوا سيره، يرافقهم مرشدا الولاية الثانية.

كان رجال دعاس متعودين على عبور خط موريس إذ أنهم كثيرا ما نقلوا الأسلحة للولايتين الثانية والثالثة. حضّرنا الكوموندو الأول المشكّل من ستين جنديا تقريبا،وطلبنا منه أن يأخذ قسطا من الراحة قبل الشروع في اجتياز الخط مساء.

قضينا النهار في النقطة 43 قرب الحارس حتى نكون على علم بما يدور على الجسر وحوله. لما اقترب الليل، توجهنا إلى مفترق النهر و طلبنا ممّن يجيدون السباحة أن يحضروا أنفسهم، في حين كان فريق الحماية يقطع النهر لبلوغ الضفة الأخرى. جمعنا لوازم السباحين لنقلها على متن الزورقين المطاطيين ثم أمرنا الجنود بأن يلقوا بأنفسهم في النهر حينما يبدأ الزورقان في نقل الجنود ذهابا وإيابا.

ما إن وصل رجال الحماية إلى الضفة الأخرى حتى استقبلتهم جمام البعوض حتى أننا كنا نسمع صوت اللطمات على أوجههم وباقي أجسامهم وهم

يحاولون إزاحتها عنهم وإبعاد تلك الحشرات اللعينة المتعطشة إلى الدم. لفت انتباهي عبد النور حدّادي قائد المنطقة الأولى للناحية الأولى الذي راح يترع ثيابه كاملة ويلقي بنفسه في النهر ويتبعه بعض الجنود.

انقلب زورق بمن فيه وما عليه ففقدنا رشاشا من نوع مات 39 في حين تمكنا من إنقاذ الجنود واسترجاع باقي العتاد بفضل يقظة حدّادي ورجاله. لما بلغ الكوموندو الضفة الغربية لوادي بوناموسة، رافقه أحمد ترخوش ومعه الفرقة الخاصة إلى غاية خط موريس.

قررت المكوث في عين المكان وأمرت عبد النور بالبقاء معي، علما أنّ الاجتياز ليس هدفا بحدّ ذاته ذلك أنّ الأهم كان البقاء مع أغلبية الجنود بحيث لم نكن نستطيع توقع ردّ فعل العدوّ خلال عملية قطع خط موريس. عاد ترخوش ورجاله في أقلّ من ساعتين. اجتاز الكوموندو الحاجز على الساعة التاسعة ليلا بالضبط يوم 20 جوان 1909. غمرتنا الفرحة على الرغم من المصاعب الكثيرة التي اعترضت سبيلنا.

شدّدنا على الحراس حتى يزيدوا حيطة ،خاصة من حول الجسر الذي مرّ منه حيدوش في انتظار دور دعّاس في اليوم الغد. وفي الليل نمنا قليلا حتى ننتبه لما كان يجري حولنا، كانت الأصوات المختلفة تصلنا على مدى عشرين كيلومترا، كنا نسمع ضجيج محرّكات الطائرات وكأننا في مطار الملاّحة بعنابة، الذي كان يبعدنا بثلاثة كيلومترات فقط.

لاشيء كان من شأنه أن يعرقل كوموندو حيدوش. كونه كان مرفوقا بمرشدين ولديه الوقت الكافي للوصول إلى الإيدوغ بما أنّه اجتاز خط موريس مبكّرا، ومن ذلك فكرنا بأنه كان قد خرج من دائرة الخطر مؤقتا، بما أنّ المسافة التي كان عليه أن يقطعها لبلوغ الولاية الثالثة كانت لا تزال طويلة ومحفوفة بالأخطار. لكن الأمر لم يكن كذلك، فعلى الساعة الرابعة والنصف مساء أبلغنا الحارس بإيماء أنّ شيئا ما قد حدث. صعدنا إلى النقطة 34 فرأينا شاحنات معبأة بالجنود الفرنسيين متوقفة على الجسر. نظرنا مليّا فلاحظنا

جنودا آخرين منهمكين تحت الجسر. ظننا في أول وهلة بأن كلّ ما في الأمر تفقد للموقع تحسبا لأيّ اجتياز من قبلنا، ولو كان الأمر كذلك لما بقي لنا سوى أن نتريث ونختار موقعا آخر لتمرير كوموندو دعّاس. جاءنا الجواب من طائرتين مروحيتين قياديتين حلقتا حولنا مرّتين ورسمتا دائرة فوق موقعنا. علمنا مباشرة بأنّ شيئا ما خطيرا قد جرى وأنّ مرور الطائرتين كان يمهّد لعملية وشيكة، لكن لم يكن باستطاعة العدوّ الشروع فيها قبل الغد لأنّ الشمس كانت على وشك الغروب. قرّرنا مغادرة الموقع في الحين بمجرّد حلول الليل.

ولّينا وجهتنا نحو كودية حلوفة غير بعيد عن مشطة أولاد بوبكر وتركنا وراءنا فصيلة حمدان التي كانت تنشط بتلك المنطقة.

قضينا الليلة في جبل حلوفة غير مطمئنين لما يكون قد حلّ بكوموندو حيدوش. في الصباح، أيقظتنا طلقات المدفعية الآتية من الساحل وكانت تستهدف الموقع الذي تركنا فيه فصيلة حمدان، أي بالضبط في المكان الذي كنا متمركزين فيه.

كانت القذفات كثيفة النيران إلى حد أنها كانت تحدث صوت الدفاف، كان العدوّ يطلق النار من البواخر الحربية بعد أن تمّ تقريبها من الساحل. دامت نيران المدفعية أربع ساعات، ممّا كان يدلّ على أنّ الفرنسيين لم يقوموا بعملية إنزال، غير أنّ ذلك لم يقلّل من مخاوفنا إذ كنا قلقين على مصير فصيلة حمدان، مع أننا كنّا نعرف جيدا حنكتها وخبرتها في الميدان، ولم ينفكّ القلق يساورنا ونحن نفكر فيما يكون قدّ حلّ بكوموندو حيدوش وحمدان ورجاله.

عندما حلّ الليل، اتصلنا بسكان مشطة بولاد بوبكر الذين أطلعونا بخبرين مهمين مفادهما أنّ فصيلة حمدان نجت وأنّ الجيش الفرنسي لم يقم بتمشيط المنطقة مكتفيا باستعمال المدفعية. أخبرنا جندي أرسله حمدان أنّ الكوموندو الذي اجتاز الجسر قبل يومين ربّما وقع في قبضة العدوّ ذلك لأنه سمع دوي الطلقات النارية طوال النهار وصوت الطائرات الآتي في مكان قبل اجتياز سيبوس من سهل عنابة وأسفل هذا الوادي.

استحسن السكان الاشتباك وهم لا يدرون بأننا كنا قد مرّرنا كوموندو، فقالوا إنّهم لم يسمعوا مثل ذلك الثناء منذ بداية الثورة. روى السكان أن الطائرات كانت تطلق القذائف من القرى المجاورة لمدينة عنابة، التي كنا نجهل ماذا حدث للكوموندو، فإنّنا كنا متأكدين أنه لم يستطع اجتياز السيبوس.

لّما بدأت الأفكار تذهب بأذهاننا بعيدا، أخذت بعض المعلومات المحتشمة تصلنا على لسان الجنود إذ قالوا إنّ المرشدين كانا يحضّران للتخلي عن الكوموندو حينما يقطع خط موريس. قال الجنود إنّ الدليلين كانا يشكيان من ثقل الكوموندو وبطئه لكنهم لم يفكروا لحظة أنهما كانا جادين فيما كانا يقولانه، علما بما حدث في مساء الغد إذ التحق بنا جندي استطلاع من الفرقة الخاصة وأدلى ببعض الأجوبة على تساؤلاتنا. عجز الكوموندو عن قطع وادي السيبوس وكان احتمالان قائمان بحكم المعلومات التي بلغتنا : إمّا أنّ المرشدين تخليا عن الكوموندو ذلك لأنّه كان لديهما الوقت الكافي لإرشادهم إلى موضع نقاط العبور، وإلاّ فلماذا اضطر كوموندو حيدوش إلي الاتجاه صوب عنابة ؟ فكانت النتيجة أن ظلوّا الطريق إذ اختاروا المسلك المعاكس فتوجب عليهم الاختفاء في البساتين العديدة في السهل بين وادي بوناموسة وسيدي سالم. في حين تقول روايات أخرى إنّ جنديا من الكوموندو انفصل عن المجموعة إمّا بسبب التعب إمّا لأسباب أخرى، ويقال إنّه تم العثور عليه في يوم الغد صباحا على الطريق المؤدّي إلى سوق أهراس فعلم العدوّ بمكان وجود الكوموندو فراح يراقب السيبوس ويحول دون اجتيازه. لقد كان للجيش الفرنسي في هذه الحال متسع من الوقت لاجتلاب الإمدادات الكافية ودحر الكوموندو فشرع في الهجوم في اليوم بالذات الذي بدأ فيه حيدوش في اجتياز خط موريس في 25 جوان 1959.

وفي كل حال من الأحوال فإنّ تخلّي المرشدين عن كوموندو حيدوش عمل لا يغتفر ولاشيء يمكن تبريره. ولا يسعنا إلاّ أن نصف مثل هذا التصرّف بالجبن والخيانة. وللتاريخ، فإنّ مجرّد الرجوع إلى عملية تحضير الاجتياز يسمح بمعرفة أسماء هؤلاء المرشدين وتسليط الضوء على الحقيقة كل الحقيقة.

دامت المعركة طيلة النهار وكانت المقاومة شرسة إلى حدّ أنّ العدوّ أجبر إلى تعزيز مواقعه بالدبابات من أجل التغلب على حوالي ستين مجاهدا. لقد حارب كوموندو حيدوش باستماتة ولقي غالب الجنود مصرعهم ولم يبق على قيد الحياة غير ثلاثة أو أربعة رجال تم أسرهم وهم مصابون بجروح. علمت أنّ الفرنسيين كانوا قد احضروا يومها صحفيين أجانب إلى المنطقة حتى يطّلعوا عن كثب على مجهود وإحلال السلم الذي كانت فرنسا تتغنى به، فأثبت لهُم ما شاهدوه العكس تماما. وبالموازاة، حاول عدد من الكوموندو التابعين للولاية الثانية تحويل أنظار العدوّ بالهجوم على بعض الأهداف.

وما إن حلّ الاستقلال حتى أقيم مقام يخلّد ذكرى أولئك المجاهدين في المكان الذي سقطوا فيه بالذات قضينا الليلة في جبل حلّوفة ثم اتجهنا في الصباح إلى مركز قيادة المنطقة بعد أن قرّرنا تأجيل تمرير كوموندو دعاس.

كان المسلك المكثف يسمح لنا بالتحرك في وضح النهار لبلوغ مرتفع كاف الدابة قرب قرية الزيتونة وكنا ننتظر حلول الليل لقطع الطريق الرابط بين القالة وسوق اهراس. فجأة، بلغنا صوت محرّكات الطائرات من كلّ حدب وصوب، شعرنا بها تقترب منّا أكثر فأكثر فانتشرنا ظنّا منّا أنّ العدوّ كان يقصدنا فظهرت من فوقنا متجهة صوب جبل أم علي الشاهق أمامنا وراء الطريق المعبّدة. حلّقت عشر طائرات من طراز "ت 6" و "ت 28" وسييت فاير حول الدرب الذي كنا سنسلكه نهار يوم الغد.

ظننا في البداية أنّ الأمر كان يتعلق باشتباك بين سريتنا الثالثة التي كان يقودها عبد القادر قارة، ولوكان الأمر كذلك لجرت الأمور على وجهين اثنين : إمّا أنّ العدوّ اكتشف وحدتنا التي كانت تشرع في عملية ضد مراكزه العديدة على طول الطريق، إما أنّ الجيش الفرنسي تمركز في الأعالي كما هو متعوّد على ذلك للاحتماء من هجمات المجاهدين، فالعدوّ كان يتدرّأ بذلك الشكل لأنّ هجامتنا كانت فتاكة كوننا كنا نملك مورتر عيار 82 مم ورراميات قنابل ذات القوة الخلاقة الكبيرة إلى جانب البنادق الرشاشة. لكننا أخطأنا تماما في تخميناتنا ولم نعلم بما جرى حقا إلاّ في يوم الغد.

عند غروب الشمس، بدأنا نتقدم نحو طريق أم علي غير المعبدة. ونحن نقطعها، تحوّل ما كان يلقى على مسامعنا إلى حقيقة لّما تراءى الخط أمامنا. تخطينا يومها خطين غير مكهربين. كان ترحيل الأهالي الذي شاهدناه اسفل خط موريس جزءا من مخطط واسع النطاق يهدف إلى خلق منطقة تماس بين الخط وما حمل فيما بعد اسم خط شال.

رسميا، لم أكن أعلم بوجود هذا المشروع الفخم مع أنّني كنت نائبا عسكريا للمنطقة و كان من المفروض أن يتم اطلاعنا بما كان تحضّر له قيادات أركان العدوّ وخاصة إذا تعلّق الأمر باستراتيجية بهذه الجسامة.

عندما عبرنا الخط، بدأ التعب ينال منّا جميعا. أمرنا الرجال بالتوقف قليلا علما بأنّ الخطر كان بعيدا واكتفينا بوضع حراسة أمرنا من الرجال من لم يزالوا صامدين بالقيام بها وفي الصباح، شدّينا الرحال ثانية و ولينا وجهتنا إلى مركز قيادة المنطقة الأولى. عندما وصلنا إلى موضع العملية التي قام بها الجيش الفرنسي في الأمس، أخذنا بعض الاحتياطات وأمرنا الجنود بتنظيم أنفسهم بحيث لا يباغتنا العدوّ. توقف الرجال وتقدّمنا الصف. مررنا ببغال ميتة انتزعت منها البرذعة والحمل. تعرّف عبد النور على بعض من بغاله وتبادرت إلى ذاكرته بأنّ نوار زراد كان مكلّفا بشحن التموينات للفصائل التابعة لقطاعه والتي تركت في الخلف.

وصلنا إلى مركز قيادة السرية الأولى ووجدنا النائب السياسي للمنطقة، عبد اللاوي. كان ينتظرنا وعلامات الصرامة تتسم على ثغره. احتار بسبب الوقت الطويل الذي استغرقته عملية الاجتياز وبلّغنا أنّ العقيد ناصر ما أنفكّ يسأل عنّا غير مطمئنّ لما يكون قد حدث لنا. أصرّ عبد اللاوي و أحمد ترخوش أن نلتحق مباشرة بالسيارة التي كانت في انتظارنا دون أن نبلّغ عن وصولنا مركز قيادة المنطقة. لقد خصص لنا العقيد ناصر سيارة على غير العادة من فرط ما كان مستعجلا ينتظرنا لمعرفة مجريات الأمور على أحّر من جمر. تم إدخالنا إلى مكتب العقيد أو ما يشابه ذلك. كان قائد أركان الشرق يمتاز بقوة

بدنية مدهشة. استقبلنا بزي مبتذل وسمات الغيظ على وجهه. تغيرت ملامحه تماما. أمرنا ناصر بالبقاء واقفين تقريبا في وضعية الاستعداد. أخذ يثني مدحا على كوموندو حيدوش وراح يكرّر بأنّ حيدوش ورجاله قد دوّنوا صفحة مجيدة في تاريخ الثورة.

وإذا كان ما صرّح به ناصر حقيقة لاريب فيها، فمع ذلك كانت تكتسي طابع اللوم وكان موجها إلينا مباشرة. حاولنا أن نشرح له كيف حدث ما حدث لكن دون جدوى فهدف قائد أركان القاعدة الشرقية كان واضحا، هو أن يلقي علينا باللائمة ويلمّح بأننا منحازين. حاولنا أن نعيد فنعبّر عن موقفنا لكنّ ناصرلم يرد أن يصغي إلينا. شوّه الغضب وجهه ثم أشار لنا بيده بأنّ المقابلة انتهت.

غادرنا مكتب العقيد وقد أفزعنا ما ألقي على مسامعنا على الرغم من أننا بذلنا كل ما في وسعنا وجازفنا بحياة رجالنا من أجل مساعدة حيدوش على الاجتياز. لم تكن لنتقبّل ذلك اللوم خاصة أنّ العقيد ناصر هو الذي اختار شخصيا المنطقة الأولى للقيام بعملية الاجتياز.

كان كوموندو حيدوش قد حاول المرور من المناطق الجنوبية من قبل ولكنه لم ينجح وكان من الأرجح أن يختار العقيد ناصر مرتفعات بني صالح التي يعرفها جيدا، ذلك أنّها سمحت بتمرير المؤن أكثر من مرّة. أخذنا عتاب ناصر محمل الإجحاف في حقنا خاصة وأنّ حيدوش كان قد أقحم في الكوموندو الذي كان على رأسه رجال من كوموندو دعاس بطلب منه لكونهم يجيدون السباحة. من حسن الحظ أنّ ذلك العقيد ذا المعارف المحدودة الـــتي لا تتماشى و المسؤوليات الملقاة على عاتقه لم يعمّر طويلا عـــلى رأس القاعدة الشرقية إذ خلفه بومدين بعد ذلك بقليل قبل أن يتم تعيينه قائدا لهيئة الأركان العامّة من قبل المجلس الوطني للثورة الجزائرية.

لقد زرع العدوّ على طول الشريط الحدودي وعرضه خمسون كيلومترا عوائق اصطناعية فاعلة بواسطة المدفعية على اختلاف معاييرها والدبابات

وقوى التدخل المحمولة جوّا والطيران كوسيلة للاستطلاع بل واهم قوّة ضاربة. لم يتم إبلاغنا رسميا بقيام ذلك الحاجز الضخم بل إننا لم نكن نملك لا العدوّ ولا العدد الكافيين لمنع إقامته أو خلق مشاكل للعدوّ لعرقلة عمله. أظن أنّ المسؤولين آنذاك كانوا منهمكين في شؤون أهم شغلتهم عن عنصر بتلك الخطورة أمر دعنا نقول إنّهم لم يكونوا وعين بأنّ الحاجز الذي كان الجيش الفرنسي بصدد إقامته كان سيؤول بالثورة إلى الزوال.

لا أنكر أننا تلقينا زيارة كريم بلقاسم مرفوقا بمسؤولين آخرين مباشرة بعد اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية الذي انعقد في طرابلس سنة1959. انعقد الاجتماع في المنطقة الثانية التي كان يرأسها عبد الرحمن بن سالم تمت خلاله مناقشة مسألة تكييف عمليات تمرير مسؤولي الولايات والمجموعات الرابضة في الإقليم التونسي. لكن الوقت كان قد فات.

لّما شرع العدوّ في بناء خط شال، راح مسؤولو المجلس الوطني للثورة الجزائرية يعقدون الاجتماع تلو الآخر في الوقت الذي كانت فيه الأسلحة بأعداد هائلة مخزونة في ليبيا ومصر زد على ذلك أن تعبئة اللاجئين وما أكثرهم على الحدود التونسية تأخرت، بل إنّ المسؤولين لم يفكّروا فيها إطلاقا.

لم يستطع العقيد ناصر اتخاذ القرار لأسباب أجهلها، وإلاّ فكيف نفسّر تحسن الأوضاع فور تنحيته ؟ فالحال أن الوضع تحت قيادته لم تكن تدعو للمدح إلا على مستوى التنظيم أو قيادة العمليات، فالفصائل كانت ترسل دون تكوين لمحاولة اجتياز خط شال وكان أعظم من الجنود يستحضرون من الولاية الثانية ذات التأطير السيئ، فكان عدد كبير منهم يقومون بمجرّد ذهاب وإياب غير متحمّسين للتوغل إلى داخل التراب الجزائري. لقد اكتفى بحشد الفصائل في معسكرات وكأنها كانت ستبقى في الأرض التونسية إلى الأبد.

نقص التكوين وصعوبة الاجتياز بسبب خطي موريس وشال وتحويل منطقة التماس التي تتوسط الخطين إلى منطقة محظورة وحشد الأهالي في المدن والقرى المحروسة من قبل الجيش الفرنسي وكذا العراقيل الاصطناعية والطبيعية كانت

كلها تشكّل صعوبات يجب التغلب عليها على الرغم من امتلاكنا الوسائل التي تسمح لنا بتذليلها. كان المرشدون ينقلون إلينا الفصائل إلى حدّ مراكز القيادة دون أن يفكّروا أبدا في المصاعب التي كانوا سيسببونها لنا إذ كانوا يريدون اجتياز الخطين دون عناء. كان هؤلاء يكتفون بمرافقتهم إلى مركز القيادة ولا يتوغلون إلى الداخل حتى يعوا المصاعب ويحاولوا إدراكها. كان يرافق الوحدات عبد الحميد ابراهيمي الذي أصبح وزيرا أوّلا وكان يساعده عمار حليمي، المحافظ السياسي لوحدات الولاية الثانية في تونس. عيّن ابراهيمي بعد ثلاث سنوات من التكوين قضّاها في سوريا، ملحقا للمقدّم منجلي في غار الدماء. أنيطت إلى عبد الحميد ابراهيمي مهمّة الاتصال فبات يرافق الفصائل على أنّه لم يبرح أبدا مركز قيادة المنطقة ولم يكن يبالي أبدا بالتوجيهات التي كنّا نبلّغه إيّاها و المتعلّقة بعدم التحضير الجيّد والاختيار السيّئ لمسؤولي المجموعات والصعوبات التي كانت تعترض سبيلنا بسبب قطع الخطين انطلاقا من تلك المنطقة، مع أنّنا بلّغنا مسؤوليه مرارا وتكرارا.

إنّ المكوث ثلاث سنوات في مدرسة عسكرية هو على أقل تقدير اختيار بمحض الإرادة ومع ذلك فعبد الحميد براهيمي ارتدى الزي العسكري ليقود عند الاستقلال الفصيلة السابعة الثقيلة لحفظ ماء الوجه، فسار بها إلى مدينة القالة ثم تخلّى عنها ليتقلّد منصب النائب لرئيس أوّل مجلس برلماني علي منجلي. عندما نستمع إلى برا هيمي نشعر وكأنه يكنّ بغضا عميقا لبعض الجنرالات والحقيقة أنّ هؤلاء الجنرالات يعكسون في وجهه صورة المستقبل المهني الذي حضر نفسه له لكنه لم يكن يملك الشجاعة الكافية للاضطلاع به في صفوف جيش التحرير الوطني ولقد اغتنم فرصة مجيء الشاذلي إلى سدة الحكم إذ راح هذا الأخير ينتهج سياسة التوازن جعلته يتقلد منصب وزير أوّل بفضل انتهازيته. حفر براهيمي قير الاقتصاد الوطني بيده بعد أن عمل على إبعاد عدد من أعضاء اللجنة المركزية غداة وفاة هواري بومدين ولم يستثن حتى ذلك الشخص الذي مدّ له يده وأرسله إلى الولايات المتحدة كممثل عن شركة سونطراك و وهبه منحة دراسية عائلية في هذا البلد. ومع ذلك، فإن

عبد الحميد براهيمي لم يزاول الدراسة إلاّ بعد أن تخلّفته السنين وخانه المستوى. لم يحاول مرافقتنا غير أحد مسؤوليه يوم قمنا بعملية تمرير محمد فلاّقو، فراح ينتقي رجالا من الكوموندو في منتصف الطريق لضمان حمايته الشخصية لم يفارقوه حتى عدنا بعد أن أتممنا ما علينا، ولّما عبّرنا له عن استيائنا غادرنا ذلك المسؤول إلى غار الدماء.

تواصلت الأشغال على خط شال. حاولنا القيام بعمليات بهدف عرقلتها على الرغم من الوسائل القليلة التي كانت بحوزتنا لكننا لم ننجح فشدّد العدوّ الحراسة حول خط شال مباشرة بعد العمليات الأولى التي استهدفت تدمير أجزاء منه. أوكلت الأشغال إلى مدنيين تم استدعاءهم لهذا الغرض يشرف عليهم مهندسون وتسهر على حمايتهم وحدات المشاة، الكل تحت رقابة الطيران. بتنا عاجزين عن الاقتراب نهارا من المرتفع المطلّ على الطريق الذي بدأ الحاجز الجديد يقوم على طوله، إذ كان عناصرنا يجدون أمامهم نقاط الارتكاز المتنقلة التي كانت تتقدّم الخط، في حين كانت المدفعية والطائرات تتدّخل لصدّنا نهائيا، فبات الفرنسيون قادرين على إنجاز مشروعهم دونما عائق.

حاول الجيش الفرنسي في غضون بناء خط شال القيام بعملية استهدفت بعض الأماكن على الشريط الحدودي التي لم يتسنّ له بلوغه منذ اندلاع الثورة، وكان حمام سيدي طراد أحد هذه الأهداف. حمام سيدي طراد مكان ملائم للاستراحة. كان رجالنا يسبحون فيه ويغسلون لباسهم. لقد عجز العدوّ عن النيل منه لا جوّا ولا بواسطة المدفعية، فذلك أنّ سيدي طراد يقع في أرض منخفضة لاتطالها قذائف المدافع وتجبر الطائرات على التحليق علة علوّ منخفض ممّا يجعلها عرضة لأسلحتنا المرتكزة على قمة الجبل. صوّب العدو نيرانه نحو الفصيلة الثالثة التي كانت تنشط على طول الحدود كلّها، والتي كانت تشكل الجبهة الخلفية للمنطقة الأولى.

وعلى الرغم من دفاعها المستميت إلاّ أنّ الفصيلة الثالثة أجبرت على التخلي عن بعض النقاط العليا في الحدود بالذات فأصبح للعدوّ من أحدي

تلك النقاط مرصد رائع سمح له تدمير شاحنة تونسية بواسطة مدفع من عيار 75 مم. لم يعد في وسعنا غير مباغتة العدوّ من الخلف.

عينت قائد السرية أحمد سراي رجل بائس وذكي من بين الرجال الذين صنعوا مجد المنطقة الأولى. وكلفته بتنصيب كمين للعدوّ المتموقع بقوّة في المكان المدعو عين النمشة والتربص في طريق العودة.على الساعة الرابعة والنصف بعد الزوال وصلتني أصوات طلقات نارية صادرة من الكمين وقد دام حوالي ربع ساعة. عند عودته، حمل قائد السرية معه أسيرا من اللفيف الأجنبي.

أصابت قذيفة من عيار 45 مم شاحنة من طرازGMC فأحدثت فيه خسائر جمة. وقد اعترف بذلك الأسير بنفسه إذ رمته القذيفة المنفجرة بعيدا قبل أن يقع في قبضة المجاهدين.

ولئن كانت العملية ناجحة إلاّ أنّها تركت لدينا شعورا بالمرارة لأنّ العدوّ تمكن من احتلال بعض المواقع والوصول إلى بعض الأماكن على الحدود، والحقيقة أنّ فقدان مواقع واسترجاع العدوّ لسلاحنا أو احتلاله الحدود كان في تلك الحقبة بمثابة الإهانة بالنسبة إلينا.لم يكن للفصيلة الأولى سوى سرية واحدة إذ أنها لم يكن لديها كل قواها بحكم تواجدنا داخل ناحيتها، وما إن تلّقت إشارة الإنذار حتى راحت تجابه العدو بعد أن توزعت على مجموعات. تمركز قائد السرية حايفي مبروك على سفح كاف الهواري مع مجموعة من المجاهدين و كان ذلك الموقع الممّر الوحيد إلى سيدي طراد.

سخّر العدوّ كلّ ما لديه من إمكانات لاحتلال كاف الهواري والوصول إلى هدفه، غير أنّ شراسة جنودنا ردعت العدوّ ودفعته إلى التقهقر وقد تلّقت ضربات عنيفة أجبرته إلى الانسحاب فورا تارة ورادة نشرات التقارير اليومية التي يقدّر فيها خسائره. نجح حايفي مبروك يوم ذاك في إسقاط طائرة بإطلاقه النار شخصيا بواسطة رشاش م ج 45 ولقد عجز الفرنسيون من الاقتراب من طائرة ت 28 التي سقطت في سفح الجبل من شدّة كثافة نيران مجموعة حايفي مبروك ودقتها.

غمرت الغبطة الفصيلة الأولى إذ استطاعوا على قلّة عددهم من الصمود أمام العدوّ ومنعه من بلوغ الحدود، بل إنّهم أقدموا على إسقاط طائرة حربية.

في صباح الغد، اجتمعنا على مرتفعات سيدي طراد قرب مقبرة الشهداء تمنّى فرانز فانون أن يوارى التراب فيها.

أخذنا نعلّق على الاشتباك الذي جرى في الأمس فانصب الثناء كلّه على الفصيلة الأولى دون الثالثة والتي لم تلق سوى التهكم إلى أن أمر الشاذلي بالكف عن السخرية برجال الفصيلة الثالثة مخافة أن يعتليهم الغضب وتوجه إلى أكثر الرجال نقدا وهو حرز الله عمّار فقال له بعبارة منتشرة في المنطقة فقط : "عمار،وطيّ كان واتك"، أي وجّه مدافعك إلى الأسفل، بمعنى كفّ عن المزاح. فأجاب حرز الله عمّار مبتدها : "يا السي الشاذلي، عندما أنزلنا فوهات بنادقنا أصبنا الجنود، وعندما رفعناها أسقطنا طائرات" فضحك الجميع".

علمت أنّ أحمد غيدوشي، قائد السرية، كان سريع في كلّ ما يتعلّق بالألغام والفخاخ، وعلمت كذلك أنه صنع قنبلة بواسطة مشعل سجائر مصنوع من الحديد أدخل فيه مفجّرا. تنقّل إلى خط شال فخّه في الأسلاك الشائكة وأخفاه ثم قطع الأسلاك المكهربة بهدف إنذار العدوّ. اختفى في مكان ليس بعيدا عن الخط فشاهد فخّه ينفجر لّما حاول جندي لمسه أصيب فنقل إلى المستشفى على عجل.

جدّد احمد غيدوشي تجربته أياما بعدها إذ حاول صنع قنبلة أكثر قوّة. أخذ صندوقا فارغا وملأها بالمتفجرات وأجزاء حديدية وقذائف من عيار 45 و 60 مم. نقل قنبلته إلى الخط وأخفاها وسط الأسلاك ثم مدّ المفجّر وقطع الأسلاك المكهربة فانتظر وصول فريق المختصين في الكهرباء لتصليح العطب ومعهم فرق الحامية. لّما وصل الجنود إلى عين المكان، شغّل المفجّر فأحدث انفجارا مهولا ورأى مصباحا كهربائيا مشتعلا يتطاير في السماء، تلته أصوات منبهات سيارات الإسعاف التي أخذت في الذهاب والإياب دون توقف.

تفقدت السرية فعلمت بما قام به غيدوشي، طلبت منه أن يحضّر قنبلة ويخبرني فور انتهائه من صنعها حتى أراها بعيناي. أياما معدودات بعدها، كانت القنبلة جاهزة. طلب مني أعضاء من الأمانة أن أشارك في عملية زرعها على الخط. رافقـــني حايفي مبروك، قائد السريـــة، وأمين المنطقـــة رابح بن هومانة وأمين الناحية الثالثة بلقاسم. استلزم نقل القنبلة إحضار بغل من شدّة ثقلها وكبر حجمها.

غيرنا الموقع و وقع اختيارنا على مكان يدعى الزوية يتوسط رمل السوق والعيون. لمّا وصلنا إلى الخط، تركت الجنود يعكفون على عملهم، يحمينا فريقان معهما رشاشان من كلا الجهتين بعيدا عن الخط الذي لا يبعدني سوى ببعض الأمتار. كان غيدوشي منهمكا في تحضير قنبلته.

سألني بن هومانة : "هل هذا هو خط شال، سوف أسقيه من بولي". طلبت منه أن يضع ركبته على الأرض وكأنني تنبأت بشيء كان سيحدث لم أكن أدري ماذا بالضبط فذلك أنني لم أطمئن للمكان. مرّت عشر دقائق. لم ينه غيدوشي عمله حتى بدأت طلقات نارية تسمع كانت صادرة من كمين تم تنصيبه وراء الخط. ربّما تفطن العدوّ الذي كان في دورية ليس بعيدا عن موقعنا لوجودنا فصوّب الكمين نحونا. في الوقت الذي كان رشاشانا يبادلان العدوّ النار، كنت أنا معزولا وأربعة رجال من بينهم رابح بن هومانة وقائد السرية حايفي مبروك.

تلت طلقات الأسلحة الأوتوماتيكية، قاذفات القنابل اليدوية، وكلّما أطلقت رصاصة الدفع، ألقينا بأنفسنا أرضا فلقد كانت القنابل اليدوية المطلوقة من البنادق مرعبة إلى حدّ أننا كنا نكاد ندفن أنفسنا في التراب من شدّة الهلع.

أصابت بن هومانة شظيتان إحداها في الصدغ و الأخرى في الكتف. وكان العدو قد حضّر لنا مفاجأة سيئة أخرى إذ راح يطلق علينا النيران بواسطة الأسلحة الأوتوماتيكية و الرشاشات من الجانب الأيمن ولم يتمكن حرّاسنا من رؤيته وإنذارنا قبل هجومه علينا ولم ينجنا سوى استعمال الجيش الفرنسي

للرصاص المضيء الذي كان يسعنا رؤيته بالعين المجردة، كان العدوّ يستعملها حتى يكون التصويب أكثر دقة لكن الدخان الذي كان يخلّفه هذا النوع من الرصاص كان بالعكس يسمح لنا بتجنبه ويسهّل علينا التنقل.

وجب علينا الانتظار طوال ثلاث ساعات في عين المكان إلى أن انسحب العدوّ ثم توجهنا إلى نقطة الالتقاء. غيدوشي لم يكن حاضرا. فأرسلت دورية لملاقاته وأنا أعرف ما عند غيدوشي من جرأة وبأس بل وتهوّر، وهما خصلتان تعرضانه للوقوع في مغبة العدوّ بسهولة وكانت بدانته تجعل نقله أمرا صعبا في حالة إصابته بجروح وكنت أكرّر على مسمعه ذلك مازحا كلما رأيته يجازف بحياته. مرّت بضع دقائق. سمعت صوت غيدوشي وكلّه غضب لأنّ القنبلة التي صنعها لم تنفجر. كان يمسك في يده المفجّر وأسلاكا كهربائية. روى غيدوشي أنه ما إن بدأت الطلقات حتى توجّه مباشرة نحو المفجّر لكنّه سرعان ما لاحظ أنّ قنبلته معطّلة، ولمّا رأى أنّ العطب ليس في المفجّر، راح يتفقّد السلك الكهربائي فوجده ممزّقا في عدة أماكن بسبب الانفجارات المتتالية للقذائف.

أصيب غيدوشي بالخيبة وزادت خيبته لمّا علم أنّ الفرنسيين استولوا على قنبلته.

قرّرنا في أحد الأيام مناوشة قرية عين الكرمة، وكان الأمر بالأرجح يتعلق بعملية دون هجوم بحكم الوسائل الكثيرة التي اعتمدناها. كان العدوّ يقيم مركزا أسفل القرية بهدف ردع هجماتنا التي زادت ضراوة. عبّأنا من الرجال ما يكفي لتطويق المركز وتجنّبه و الوصول كالعادة إلى القرية. قبل الشروع في العملية عند حلول الليل، بقينا في تخم الغابة حتى نعرف ما إذا كان المركز محتلاّ ليلا. بقي الجنود الفرنسيون في عين المكان ففهمنا أنّهم لن يغادروا المركز وقرّرنا تطويقهم قبل الاندفاع نحو القرية. حينما وصلنا إلى مواقعنا، ودون أن ننتبه للأمر، لاح خيالنا بسبب ضوء القمر ولم نتفطّن لذلك إذ كنا منهمكين في اختيار المواقع الملائمة. كان ضوء القمر يسمح لنا برؤية الجدران البيضاء المصطفة في القرية ممّا كان سيسهّل علينا التصويب بدقّة، إلاّ أنّ العدوّ للأسف رآنا دون أن نعلم بسبب خيالنا الذي كان يلوح في السماء. ففي الوقت الذي

كنا نبحث عن مواقع لرشاشاتنا على خط القمة، أخذ العـــدوّ يصوّب سلاحه الثقيل نحونا وأخطر وحدات المدفعية عن موقعنا وحدّد له مواقع مدافعنا غير المرتدة عيار 57 مم ورشاشينا عيار 12/7 المصوّبين باتجاه القرية، فكان سلاحنا بالتالي هدفا سهلا بالنسبة إليه، على أنّ الجيش الفرنسي لم يلاحظ أسلحة المورتر عيار 82 مم التي تركناها في الخلف.

ما فتئ العدوّ يطلق علينا النار حتى تلقينا وابلا من القذائف ولم يستطع أحسن الرجال فينا إطلاق أكثر من ثلاث قذائف ليس إلاّ ولم يتمكن من ذلك سوى غيدوشي، ولم يسعني إلاّ أن أرتمي في ثقب أحدثته قذيفة كان الدخان لا يزال ينبعث منه. شعرت بحرق في الجزء الأيمن من وجهي بفعل النسف الذي أحدثه الانفجار. بعد برهة من الزمن شعرت وكأنها دهر، نقل العدوّ نيرانه إلى الخلف. اغتنم الجيش الفرنسي فرصة حلول الليل لسحب جنوده من الأماكن التي كان يحضرها كمركز متقدم، وغالب الظن أنّ هذه الأخيرة لم تكن جاهزة بعد لإيواء الجنود الفرنسيين وما حدث هو أنّ رجالنا هم الذين تلقّوا وابلا من الطلقات المفجّرة. ركضنا نحوهم ووجدنا الكثير منهم جرحى. أصيب ثمانية عشر رجلا بجروح خطيرة ولم يكن لدينا غير محمل واحد فصنعنا محامل أخرى بما تيسّر لنا من وسائل. كان أغلب الجنود وقد أصيبوا في الظهر يبصقون دما فربّما كانت الرئتان قد مزّقتا. أصيب شلوفي، وهو جندي، في القدم لكنّ جرحه لم يكن يقلقنا فلن نعره اهتماما بالغا ظنا منّا أنّ إصابته كانت بسيطة فذلك أنّه كان علينا أن نهتم بالعناصر الذين أصيبوا بجروح خطيرة. كلّفت قائد السرية، طراد الشابي بالمشي في الخلف ومساعدة شلوفي على مواكبة السير مهما كان الأمر. أجبر الشابي على حث الجريح بشيء من القساوة على بذل جهد جهيد لمواصلة المشوار حتى لا يطلع علينا النهار فنجد أنفسنا في مكان مكشوف. عندما التقيت بالجندي الجريح اشهر بعد ذلك، كانت رجله قد بترت ومازلت أتساءل إلى يومنا هذا إن لم نكن سببا فيما حلّ به.

شعرت بوخز في وجهي لكن هذا لم يقلقني أيضا فالمهم حسبي أن نصل إلى تخم الغابة قبل أن يبزغ الفجر فتكتشفنا طائرات العدوّ. ما إن وصلنا إلى مكان

آمن حتى أمرنا الرجال بالتوقف ليتسنى لنا تضميد جروح المصابين و البحث عن وسيلة لنقلهم إلى مركز القيادة، فأطلعني رفقاء حينها أنّ على وجهي علامات احمرار قاتمة فلقد أصبت بنـــزيف داخلي أحدثه نسف القنبلة. كان جلدي مسفوعا توغلت فيه ذرات من التراب بفعل الانفجار.

أرسل جنديان على عجل إلى معسكر اللاجئين المتواجد وراء الحدود ليحضرا لنا وسائل لنقل الجرحى وألحّيت على أن يحضرا بالخصوص بغالا أكثر الدواب قدرة على نقل الأثقال في المناطق الوعرة. مرّت ساعات وحضرت البغال فأمرت بنقل الجرحى على متنها والاتجاه صوب مركز قيادة المنطقة.

لما وصلنا مركز القيادة تمدّدت لاستريح قليلا لكنني سرعان ما استفقت لصوت قائد المنطقة وكلّه غضب لأننا مرّرنا الجرحى على مرأى من اللاجئين. نهضت بسرعة البرق فأجبته بعد أن كبحت جماح غيظي : " وهل أردتني أن أنقل الجرحى على ظهري؟ ". والحقيقة أنني تساءلت بعدها ماذا كان قائد المنطقة يفعل هنالك في وقت غير ملائـــم كذلك وما العيب في أن يرى اللاجئون الجنود في تلك الحال سيما أنّهم عكفوا على تضميد جرحهم وساعدوهم على تناول قليل من الحليب ؟

أحمد بن شريف موجود في المنطقة الثانية التي يرأسها عبد الرحمان بن سالم وغالب الظن أنّه اختار المنطقة لاجتياز الخط. ومع ذلك، فلقد حضر بن شريف خلال عملية شاملة في آخر لحظة إلى الناحية الثانية التابعة لمنطقتنا التي يقودها الفاضل وقد كان يومها عاكفا على مهمة أخرى أوكلت إليه.

تفاجأ الفاضل لكنه كان يدري بأنّ الأمر يتعلّق بمسؤول فبذل كل ما في وسعه لمساعدة بن شريف على المرور ولم يكن لديه الوقت الكافي لتحضير العملية. عجز بن شريف عن المرور وفقد الفاضل عددا من رجاله وأصيب هو بجروح. عدت من مهمة كنت اضطلع بها في منطقة أخرى فعلمت أن بن شريف حاول المرور مرّة أولى دون سابق إنذار بل ودون تحضير وقيل لي إنّه موجود في مركز قيادة الناحية.

لم استرح وقرّرت الالتحاق بالناحية على بعد حوالي ثمانية كيلومترات. لم يستقبلني بن شريف إذ كان نائما. التقيت بمحمد بن عيسى المدير السابق للجمارك الجزائرية وكان مساعدا في مجموعة العبور. قلت له ليس هكذا يتم اجتياز الخط فأجابني قائلا إنني على حق : "لكنك تعرف بن شريف، لقد أذرف دموعا أمس لّما علم أنّ مساعده فرّاح نجح في اجتياز الخط". طلبت من بن عيسى أن يخبر أحمد بن شريف بأنه إذا شاء أن يمرّ فما عليه إلاّ أن يدعني أفعل. جاءني بن عيسى بعد يومين فقال لي إنّ بن شريف يمنحني الضوء الأخضر.

اخترت مكانا كثيفا وملتويا طوله ثلاثة كيلومترات قرب الزيتونة. لم نعتد على استعمال هذا القطاع وبالتالي أردت أن اعتمد المفاجأة. أمرت أحمد سرّاي المدعو الأصنامي بمرافقتي وكان الجميع يعلم مدى شجاعة هذا الرجل المغوار. كلّفته بالذهاب إلى المكان المعيّن والبقاء فيه مدّة ثلاثة أيام لترصد تحرّكات العدوّ هناك. عند عودته، لم يفاجئني تقريره إذ كان يتماشى وتخميناتي. أكدّ لي الأصنامي أنّ لبن شريف و رجاله بحكم الموقع تسعا وتسعين بالمئة من فرص النجاح في الاجتياز وأنّ الواحد بالمئة الباقي يعني مصرعنا جميعا. عينت نائبين للأصنامي وطلبت منه أن يشكّل كوموندو فاختار أحمد غيدوشي و أحمد عواز أمّا أنا فرافقني سبتي زمولي. انتقيت ثلاثة مرشدين دارين بشعاب المنطقة وأمرتهم لا يفارقوا بن شريف إلاّ بعد أن يجتاز الخط. بقي صالح بوشقوف الذي أراد أن يغتنم فرصة مرور بن شريف للتوغل في المنطقة المتواجدة بين شال و موريس، بقي بين الخطين إلى أن وضعت الحرب أوزارها.

أخبرت بن شريف بأنني وجدت ممرّا فتركني أتصرف بمحض إرادتي. كانت توصياتي أن نلتحق بجبل بوعباد فور مرورنا وذلك أنّ بوعباد هو المرتفع الوحيد الذي يسمح لبن شريف بأن يفلت من قبضة العدوّ حتى في حالة وقوعه في اشتباك فالمهم الصمود إلى أن يحل الليل حيث يساعده الظلام على الانسحاب دون خطر. أمرت كوموندو الأصنامي بأن يسبقني بيومين يرافقه بن

عيسى ثم انطلقت بدوري مع باقي الرجال. قسّمنا المشوار إلى قسمين كي لا يصيب الرجال الإرهاق.

لّما بلغنا المرتفعات المطلّة على الخط، سمعنا دوّيا ورأينا ألسنة النيران تتصاعد، مصدرها الاشتباك الذي كان يخوضه فرّاح وقد اجتاز الخط يومين من قبل.

استشهد فرّاح يوم ذاك أي في الثالث من نوفمبر 1960 أو بعدها بأيام قليلة إذا لم تخنّي ذاكرتي. أخبرني أحمد الأصنامي أيضا بأنّ الجيش الفرنسي كان عندما يمر بالمعاقل يترك بعضها شاغرة ممّا كان سيسهل مهمتنا شيئا ما.

قطع كوموندو بن شريف الخط على الساعة التاسعة ليلا بالضبط، وبقي له متسع من الوقت للوصول إلى بوعباد في الموعد. غير أنّ بن شريف لم يحترم تعليماتنا فبقي على حافّة الخط ظنّا منه أنّ التمشيط لن يخصّ ذلك الشبر فرأى أن يواصل السير فور انتهاء التمشيط دون أن يمسّه شر. وللأسف، فإنّ الجيش الفرنسي بدأ عمليته من الخط بالذات فوقع الكوموندو في الاشتباك بمجرّد أن طلع النهار. قاد صالح بوشقوف بن شريف إلى جبل بني صالح وكان بوشقوف يعرف المنطقة جيدا. استشهد عدد كبير من المجاهدين و أسر آخرون.

ومن بين من لفظوا أنفاسهم يومها الشهيد مدني وعوع مسؤول منطقة في الولاية الأولى والضابط بولوح الذي فرّ من الجيش الفرنسي. مكث بن شريف ثلاثة أشهر في جبل بني صالح في حين عزّز الفرنسيون خط موريس عندما علموا بأنّ بن شريف قطع الحاجز الكامن في خط شال.

رجع مرشدونا الثلاثة بعد ثلاثة أشهر. أصيب بن شريف وتم القبض عليه أشهر بعد ذلك في ضواحي سور الغزلان.

ما أجمل الطبيعة عندما تحضننا، ولكلّ موسم بهاء، النباتات تدثّرنا و تدفّئنا وتدرأنا و الأرض تأوينا وترويننا. غاباتها ثرية بالحيوانات فيها الأيّل و الخنزير وكم من دابة و العسل فيها غزير نجده في خلايا النحل التي يفرقها المزارعون

ويصنعونها بقشرتي الفلين يشدون الواحدة إلى الأخرى فتشكلان لفيفا أسطوانيا. كان الجنود في بعض الأحيان يتنقلون وفي جعبتهم مقلاة وإذا وجب عليهم ذلك، اصطادوا أيّلا واقتاتوا به. لم نكن نحتاج إلى إناء للماء فذلك أن المناهل المعدنية موجودة في المنطقة بكثرة. لم تكن الحرب الدائرة رحاها في القاعدة الشرقية تمنعنا من التمتع بتلك المناظر الخلابة في تلك المنطقة الزاخرة بالبحيرات وغابات ينتشر فيها نوع من أشجار بلوط الزان التي كانت تحجبنا عن أنظار الجيش الفرنسي جوا و أرضا.

لم يتم الاعتراف بالقاعدة الشرقية إلاّ في 1957، فالسلاح قبل ذاك، كان يجب ان يؤخذ من العدوّ لكن سرعان ما تبين أنّ القاعدة كانت من الضرورة بمكان لتمرير الأسلحة إلى الداخل ولقد نشط فيها جنود من كلّ الولايات اللهم إلاّ إذا استثنينا الولاية الخامسة وكثيرهم قاموا بتمريرين أو ثلاثة يساعدهم في ذلك رجال من القاعدة الشرقية و كان كل جندي يحمل بندقيتين وألف رصاصة وقذيفتي مورتر. كان ثقل الحمل يعرّض المجاهدين إلى الوقوع في مخالب العدوّ ولقد استشهد الكثير وهم يقومون بهذه المهمّة. عندما تفتح الأرشيف في المستقبل، سيتأكد أنّ عدد الشهداء الذين قضوا نحبهم خلال تمرير الأسلحة أكبر بكثير من عدد المجاهدين الذين لقوا حتفهم في المعارك التي خاضتها الوحدات في مختلف الولايات.

لقد بذلت المنطقة الثانية تحت قيادة المرحوم عبد الرحمان بن سالم الكثير في هذا المجال، خاصة وأنّ المنطقة المتربعة على جبل بني صالح كانت ملائمة، ولكم من مرّة خاطرنا بحياتنا لّما حاولنا تمرير الأسلحة من سهل عنابة الذي لا يناسب هذا النوع من العمليات فساهمنا في اجتياز حيدوش و احمد بن شريف وعبد القادر الباريكي ومحمد المدعو فلاّقو.

استشهد الباريكي مع ممرّضه في جبل بوعباد في حين واصل نائبه علي غيدوشي السير مع باقي الكوموندو إلى غاية الولاية الثالثة حيث تم القبض عليه و السلاح في يده بعد اشتباكات عديدة ولا يزال غيدوشي على قيد

الحياة. كما حاول كلّ من يزيد من الولاية الثانية وعبد النور حدّادي الذي كان نائبا لقائد الفيلق الثالث عشر و الذي شغل من قبل منصب قائد الناحية الثالثة للمنطقة الأولى، حاولا هما كذلك اجتياز الحدود لكنهما فقدا نصف رجالهما في حقل ملغّم فأرغم الناجون على التراجع برفقة عبد القادر عبد اللاوي قائد الفيلق الثالث عشر. أصيب عبد اللاوي الذي كان عليه أن يلتحق بالمنطقة المتواجدة بين الخطين في الوجه فتراجع مع عدد من رجاله.

كلّفت خلال هذه العملية بالقيام بهجوم مضلّل على منطقة أخرى فقدت فيه سبعة رجال. أقيم في عين العسل نصب تذكاري يخلّد أرواح الذين استشهدوا مع يزيد وعبد النور.

ومازالت أحفظ في ذاكرتي صورة سراي أحمد المدعو الأصنامي. وقد كان ينشط بين خطي شال و موريس. كان الأصنامي يجتاز الحواجز وكأنّه يقطع طريقا عاديا. رجع الأصنامي من قطاعه ليستريح ثم انزوى بي وقال لي : " أنا متعب لكنني أذعنت لأمر المشاركة في عملية الاجتياز هذه ومساعدة السي عبد القادر بين الخطين و أنا أعرف تلك المنطقة جيدا "، ثم أضاف : " أنا في العادة اجتاز الخط وكأني أقطع طريقا عاديا لكنني هذه المرة لست مرتاح البال ". هل تنبّأ الأصنامي بقروب ساعته ؟ طمأنته فقلت له إنّ شعوره ربّما ينمّ عن الإرهاق الذي أصابه بسبب عدم مشاركته في تحضير عملية العبور و تمنيت له النجاح فيها علما أنها لم تكن الأولى بالنسبة إليه. في يوم الغد، بلغني أن الأصنامي استشهد. لقد كان على صواب. و أنا في المدرسة الحربية بباريس، عثرت على كتـــــاب للجنرال إتشيفري قائد معهد الدراسات العسكرية العليا وهو مفكر عسكري فرنسي. الكتاب عنوانه "الأصنامي سيعود". عمل صاحب الكتاب قائدا لقطاع بالقالة فلربّما سمع عن الأصنامي فألّف كتابا يروي فيه مآثره. اعتقد جازما بأنّ إتشيفري يتحدث عن أحمد سراي. الكتاب يدعو إلى جزائر ينعم فيها المواطنون بنفس الحقوق ولئن كانت تستحق المدح إلاّ أنّها لاتمتّ إلى الواقع بصلة.

تقع المطروحة بين الزيتونة وقرية الطارف. المطروحة منطقة كثيفـــــــة و منخفضة تتوسط جبلين وهي بالتالي ملائمة للقيام بشتى أنواع العمليات. لقد حدث وأنّ تدخلنا عدّة مرّات ضد دبابات مكلّفة بالتمشيط على جانبي الطريق وفي الاتجاهين بهدف المراقبة والتدخل و الإنذار عند الضرورة. كما كنا نهجم أيضا على المعاقل المنتشرة على طول الطريق.

كانت إحدى مهامنا في تلك الناحية تكمن في تدمير ما تيسّر من عتاد العدوّ وبخاصة تخريب أكبر قدر ممكن من خط شال. أرسلت إلينا أعداد هائلة من التعزيزات لاسيما من الولاية الثانية التي كانت قد أنشأتها قيادة الأركان مؤخرا.

وزّعت المهام على مختلف الكتائب وعدد من الفصائل كالعادة ووقع اختياري على المطروحة. أخذت عصايا ومسدسي كما جرت العادة واتجهت صوب المكان المختار دون أن أخبر الوحدة المعنية. كنت أتصرف كذلك في بعض الأحيان لأنه لم يكن يبقى لي بعد توزيع المهام سوى أن أنضّم إلى المعركة مباشرة أو أن ألاحظ مجراها من بعيد؛ لكنّ طبعي و المسؤولية الملقاة على عاتقي كانا يحثاني على مشاركة رجالي القتال، ثم إنّ إراديّ في خوض المعارك كانت تنمّ عن تشجيع الجنود الذين يزيدون حماسا عندما يرون المسؤول وهو يطلق النار إلى جانبهم. شرعنا في الهجوم في الساعة المحدّدة على المعقل و المدرّعات واستعملنا كلّ الأسلحة التي كانت في حوزتنا. كان يوجد على يسارنا في اتجاه الزيتونة، فصيلتان وعلى اليمين باتجاه قرية الطارف فصيلتان أخريان. لم يكن لدى الفصيلة التي كنت معها غير بازوكا **UKM** أمريكي الصنع. وبعد قذفات عدّة أصابت إحداها الهدف، لاحظت أنّ القذائف كانت في أغلب الأحيان تصطدم بالأعمدة الكهربائية وتنفجر قبل أن تبلغ الهدف. كثفنا النيران بالأسلحة الأوتوماتيكية خاصة وأنّ الدبابات كانت تريد الانسحاب نحو الطارف بعد أن شعر العدو بالخناق يضيق عليه. في تلك اللحظة بالذات، أشار لي الجنود بأنّ البازوكا قد تعطّل. كان يبدو وأنّ الدبابات تتسارع أمامنا بأعداد هائلة فأضحت هـــدفا سهل المنال على الرغم

من قوّة نيرانها. دمّرت فصيلة اليمين دبابة فأردتها جاثمة على الجسر المؤدّي إلى الطارف، وتبع ذلك وابل من الرصاصات المضيئة من الجانبين طغت عليها نيران الدبابة الملتهبة بعد أن أقبل قائد الفصيلة بوشريط الساسي المدعو سويسي على حرقها شخصيا. توقفت المدرّعات أمامنا وكانت الدبابة المدمّرة على الجسر تعرقل تقهقر المدّرعات إذ كان منفذها الوحيد. لكنّ وقوع الدبابات في قبضتنا كان يعني أنّ من عليها كانوا سيدافعون على أنفسهم بكلّ ما أوتوا من قوة فلا حلّ لديهم غير ذلك. ومع ذلك، وعيت للفرصة السانحة بوجود تلك الدبابات المضطرّة إلى التوقف أمامنا.

لم يكن يمكن للعطب أن يحدث إلاّ في المولّد الكهربائي. أنا اعرف جيدا هذا النوع من الأسلحة إذ درسته من قبل. عمدت إلى إصلاح البازوكا رغم شراسة الاشتباك، متدرّئا في مخبئي. طلبت من بعض الرجال أن يحضروا لي غطـــــاء و مصباحا كهربائيا. لم يستغرق إصلاح العطب أكثر من بضعة دقائق. في تلك الأحيان، نجح الجيش الفرنسي في تنحية الحاجز من على الجسر فاتحا الطريق أمامه للانسحاب نحو الطارف. استطعنا إصابة دبابة راحت تبتعد ببطئ رغم الإصابة البليغة بحكم النيران المتصاعدة منها. بعد حين، خلت الطريق من العدوّ فترلنا وذرعنا الأسفلت تغمرنا السعادة الممزوجة بالإثارة لم نشعر بهما من قبل. أمرنا الجنود بأن يدمّروا أكبر جزء ممكن من الأسلاك.

ونحن نسمع أصوات المقصّات تقطّع الأسلاك، تراءى إلينا شيء غريب الأطوار. اقتربنا منه بحذر فرأينا سيارة"جيب ويليس" منقلبة على حافّة الطريق ووجدنا أمامها جثة هامدة لجندي فرنسي استرجعنا منه رشاشة من نوع مات 49 وصندوقا مملوءا بلوازم الكهربائيّ. لاحظنا بعيدا، وسط الغابة، ضوءا. ربّما تعلّق الأمر بالناجين وهم يضمدون جراح جنودهم المصابين. نزع المجاهدون أجزاء من السيارة قد يحتاجون إليها و حملوها معهم.

بعد ساعات قضيناها على الطريق ندّمر الخط، التحقنا بنقطة الالتقاء مع باقي الفصائل، فبلغنا خبر استشهاد المساعد بوشريط الساسي. دمرّ الشهـــيد

دبابة فوق الجسر ثم اقترب من أخرى ليطلق عليها قذيفة فأطلق عليه العدوّ النيران برشاشاتهم فأردوه قتيلا. لم نستطع نقل جثمانه و لم يتمكن الجندي الذي كان يرافقه من تحديد مكان استشهاد بوشريط بدقة من شدّة التأثرّ فعثر عليه الجيش الفرنسي في يوم الغد فحمله. وللتذكير، فإنّ الساسي بوشريط هو الذي منحني رشاشته في أوّل زيارة لي لجبل بوعباد خلال كمين غمد الزانة.

إنّ المساعد بوشريط الساسي هو ذلك المثل بالذات لأولئك الجنود الذين سقطوا في ميدان الشرف بعد أن قاوموا عدوّا يفوقهم عدّة وعددا فكادوا يتغلّبون عليه. لقد اثبت الشهيد بوشريط أنّ أكثر الأسلحة تطوّرا لا يمكنها أبدا أن تساوي قيمة الرجل.

اقترب الفجر فشدّينا رحال العودة. فقدت الفصيلة التي كانت معي جندّيا دفناه قرب منبع مائي معدني بين العمود وقمة أم علي. اتّجه عناصر من الوحدات التي أرسلت إلينا لتدعيمنا نحو قرية مسكونة بعد أن ضلّوا طريقهم مع أنّهم يدرون بأنّه كان يجب علينا إعفاء مواطنينا من انتقام العدوّ. عثرت الطائرات الحربية من طراز بيبر كلوب على الجنود الضالّين في الصباح، فأرسل العدوّ طائرات نفاثة من نوع مسترال بعدها بقليل نحو القرية فأغارت عليها. ذهبت في الظهر مع قائد المنطقة إلى الدوار لأعزّي سكانه وأتفقّد الوضع هناك مرتبكا لما حدث لهم بسببنا. استقبلنا عدد من المواطنين فكان جوابهم أن وجهّوا أصابعهم نحو خزانات الطائرات وقد ألقي بها بعد نفوذ ما فيها من وقود، قائلين لنا : " المهّم أنهم فقدوا بقايا طائراتهم ". امتنعت عن إخبارهم بالحقيقة وتركتهم يتمتعون بفرحة الانتصار لأنهم ظنوّا بأنّ خزانات الوقود تلك طائرات حربية أسقطها المجاهدون.

في مساء من أيام ربيع 1959، قرّرت مع قائد الناحية الثالثة للمنطقة قارة عبد القادر المشاركة في عملية مناوشة قرية رمل السوق وكانت تلك عملية روتينية، فالمناوشة شأنها شأن الكمين أهم وسيلتين في حرب العصابات وهما تخضعان لتكتيك يدافع به الضعيف على نفسه أمام من أقوى منه عددا وعدّة

على أن يدوم الكفاح و ينخر قوى العدوّ للوصول إلى الهدف السياسي المتوخّى. تهدف المناوشة بالخصوص إلى دفع العدوّ إلى استنفاذ أكبر كمية ممكنة من ذخيرته واستنزافه وإضعافه ثم الهجوم عليه لإلحاق الخسائر بصفوفه عند الضرورة. شكلّنا مجموعة حول فصيلتي مشاة وسلاحي مورتر عيار 82 مم تحت قيادة حسين غناس من بلدة الطارف ومدفعي 57 مم. أنيطت إلى الفصيلتين مهمة الاقتراب من القرية و شدّ الخناق عليها بالنيران المتقاطعة للرشاشات لمنع الخروج على الجنود الفرنسيين. كنت برفقة قارة عبد القادر ركبتانا على الأرض قرب مدفع 57 مم. حين انطلقت أوّل قذيفة، غمرنا غبار كثيف متناثر أحدثه جزء من الغازات المنفلتة من مخلّفة المدفع غير المرتد. لست أدري من منّا اقترح أن نبتعد عن المدفع لأنّه كان يعيق بصرنا فشاء الحظ أن نتجه نحو المكان الذي كانت ستسقط فيه القذيفة الموالية.

أصابتني شظيتان في الساعد الأيسر و كأنّها ضربة هراوة. قطّعت الشظية الأولى بساعدي من الطرف إلى الطرف الآخر لكنّها لم تحدث جروحا بليغة وانغرزت أخرى صغيرة بين البرعم و السبابة لم تستقر في موضعها إلاّ بعد سنوات كان الألم طوالها يوخزني في أيام البرد القارص. كان يمكن في حالة نزعها إحداث جروح أخرى في هذا الجزء من الجسم حيث الأنسجة عديدة.

أصيب قارة فـــزف كثيرا فحملناه على عجل إلى بيت مواطـــــن. جهـــد الممرضون طوال جزء كبير من الليل في إيقاف النزيف قبل نقل الجريح إلى مستشفى في تونس. على عكس الإصابة بالرصاص، فإن الشظايا ذات الأشكال الهجينة الحادّة تتسبّب في جروح خطيرة، وذلك ما حدث لعبد قادر قارة إذ دخلت الشظية من جنبه وتغلغلت في الرقبة لتمكث هناك.

نائـــب عسكـــري في الفيلـــق الثالـــث عشـــر

اعتلى بومدين منصب قائد هيئة أركان القاعدة الشرقية دون هرج، أمّا نحن فكنّا منهمكين في عملنا لا نعير ما يقال وما يفعل اهتمامنا. كنا نعلم أنّ اجتماعا انعقد في طرابلس وأنّ مسائل جدّ هامة وضعت على طاولة المحادثات بهدف إيجاد حلول لها.

كان الوضع في الحدود يدعو للقلق. انشقت وحداتان في حين ضيّق خط شال الخناق علينا فبات تمرير الأسلحة و الرجال أمرا صعبا. حشدت الوحدات التي حضرت من الولايات الداخلية بخاصة منها الولاية الثانية في معسكرات دون تدريب و كأنّي بها كانت ستمكث هنالك إلى الأبد. لم يكن قائد الأركان، محمدي السعيد، يتحكّم في الوحدات إذ كانت تحت المسؤولية المباشرة لقادتها فبات هؤلاء مطمئنين لهذا الوضع القائم و كأنّ تلك الوحدات كانت ستقوم بمهام غير تلك التي شكلت من أجلها.

تم استدعائي إلى قيادة الأركان وأنا في غار الدماء أسعى وراء إيجاد بعض التجهيزات لوحدتنا. استقبلني بومدين وأطلعني بأنني أصبحت انتمي إلى المنطقة الأولى. طرح علي عددا من الأسئلة المتصلة بعملنا اليومي. علمت يومها أنّه اصبح لدينا قائدا جديدا عينه المجلس الوطني للثورة الجزائرية ذاع صيته من الحدود الغربية إلى الحدود الشرقية. ما إن سمعت بومدين يسألني عن موقعنا والمهام التي نقوم بها و تنظيم مواقعنا قرب الحدود من الناحية الهندسية وما إذا كانت محمية من المدفعية و الطيران، حتى علمت أننا بصدد قائد ذي حنكة ودراية ولم يمر علينا وقت طويل حتى تسنّى لنا التأكّد من هذا الكلام بفضل التنظيم الجديد الذي ادخله فور تسلّمه مهامّه. قسم بومدين الحدود إلى

قسمين: منطقة في الشمال وأخرى في الجنوب. عيّن على رأس المنطقة الشمالية عبد الرحمان بن سالم يساعده كلّ من شابو مولاي عبد القادر و الشاذلي بن جديد و أحمد بن أحمد عبد الغني وكلّهم في درجة نقيب.

وأوكلت المنطقة الجنوبية للمقدّم صالح السوفي بمساعدة الضابطين سعيد عبيد ومحمد علاق.

شكّل بومدين كذلك فريقا تقنيا يضمّ ضباط فارّين من الجيش الفرنسي وآخرين من جيش التحرير ومن بين هؤلاء النقيبان المرحوم الحاج محمد زرقيني ومحمد بوتلة والملازمان الأوّلان سليمان هوفمان وشابو مولاي عبد القادر وآخرون. كلّف النقيب بن عبد المومن بتكوين الرجال وتشكيل الوحدات وكان يقود مركز التكوين والتدريب في ملاّق بين قرية ساقية سيدي يوسف وبلدة الكاف.

كفّت الانشقاقات فور مجيء بومدين إذ عيّن إلى جانبه فريقا يضمّ كلّ من علي منجلي واحمد قايد وعز الدين زراري و كلّهم في صف رائد، ثم شرع في عملية تسوية أنشأ بمحكمها فيالق وفق جدول يخص التعيينات و عدد الرجال المشكّلين لكل فيلق.

أصبح الفيلق يضمّ ست مئة رجل موزّعين على ثلاث كتائب مشاة و كتيبة ثقيلة للدّعم وأخرى للقيادة و الخدمات.

أجرت قيادة الأركان هذا التعديل على أساس المناطق الخمسة الموجودة أصلا. ومختلف المجموعات الموزّعة عبر المعسكرات التابعة للولايات الرابضة داخل التراب الجزائري. عيّن بومدين قطاعا عمليا محدّدا ينشط فيه كلّ فيلق في حين تم استدعاء العناصر الموجودين في تونس دون عمل. من منّا لا يتذكر تلك السيارة الزرقاء الساعية في تونس بحثا عن الجزائريين الذين كانوا يجوبون الشوارع تائهين لاهدف لهم، فتم بالتالي وضع مخطط حقيقي لتجنيد اللاجئين في صفوف جيش التحرير وقد تم إرسالهم على دفعات إلى مركز ملاق لتلقي

التكوين بينما أوكلت مهمة التدريب إلى عناصر تمّ انتقاؤهم من الوحدات الموجودة منذ البداية.

شملت الحدود بعد نهاية الحرب ما يربو عن خمس و عشرين فيلقا و سبعة أخرى تدعى الفيالق الثقيلة للمنطقة إلى جانب قواعد للتموين تدعّم كلّ واحدة منها ثلاثة فيالق وكذا بطاريات مدفعية و مورتر عيار120 مم ومدافع 85 مم. أنجز بومدين هذا العمل الجبار في أقلّ من سنتين. كان يمكن لجيش التحرير أن يزيد صعودا وينتهي إلى القيام بعمليات من نوع آخر من شأنها ان تعطي نفسا جديدا للثورة. رأى مخطط عمليات هيئة الأركان الجديدة النور بسرعة إذ قام جيش التحرير بمناوشة العدوّ دون هوادة ممّا اجبر الفرنسيين على إحضار تعزيزات جديدة.

فكّ مخطط بومدين الخناق عن الولايات الداخلية التي نالت منها العمليات المتتالية الواسعة النطاق التي شنتها قيادة الأركان الفرنسية المقيمة في العاصمة الجزائر.

عندما انتهى الفرنسيون من بناء خط شال، شرعنا نحن في مهاجمته عبر عمليات تحمّل وتهديم و ترويض.

كانت العمليات تدرس من قبل قيادة الأركان العامة الفتية وكانت تقوم بها مختلف الوحدات الرابضة على الحدود وتدوم بين ثلاثة وسبعة أيام بل كانت تصل إلى أسبوعين في بعض الأحيان. كان الهدف من هذا النوع من العمليات إلهاء العدوّ و البرهنة على وحدة الصف في قيادة جيش التحرير وكانت كلّها تندلع في نفس الوقت بالضبط. شرعنا في تعويد المجاهدين على الخط كمرحلة أولى إذ كانوا يدمرون الأعمدة الكهربائية بعد أن يتم قطع الأسلاك المكهربة ونزع الألغام المزروعة في المنطقة، وتلك عملية صعبة منذ البداية ثمّ تصبح العمليات أكثر خطرا ينصّب خلالها المجاهدون الكمائن للدبابات المكلّفة بالمراقبة عن طريق التمشيط على طول الخط. في المرّة الأولى، يتم الهجوم من جهة واحدة من الخط ثمّ ينتقل إلى الجانب الآخر من الطريق بعد أن يتم اجتياز

الخط بهدف مباغتة العدوّ بشكل افضل. وكان لهذه العمليات الفضل في تدريب المجاهدين على القتال. ماعدا العمليات التي خططت لها هيئة الأركان العامة، فإن مختلف الهجمات التي تم شنّها على معاقل العدوّ ومراكزه وكذا المناوشات قد تركت للوحدات تخطط لها كيفما شاءت. كانت الهجمات المخططة تجبرنا في بعض الأحيان على الانتظار مدّة زمنية طويلة قبل الشروع في العملية مما كان يثير التوتر لدى غالبية المجاهدين.

وكان جميعنا يكبح جماح هذا التوتر قدر المستطاع فكنت أنا أدخن السجارة تلوى السجارة وكنت حتى لا يكتشفني العدوّ القريـــب منّا، أضع غطاء على رأسي واختفي وراء حاجز أو في حفرة. وما إن تندلع المعركة حتى يختفي القلق لتصبح ردّة فعلنا عادية كردّة فعل كلّ مقاوم أمام مهمته.

تحولت شبه هيئة الأركان مع مجيء بومدين و فريقه إلى مصدر قرارات حقيقي أعطى روحا لجيش التحرير الوطني. كانت الاجتماعات تنعقد كلّ ثلاثة أشهر وكانت تسمح للمجاهدين الذين كانوا يتقاسمون نفس الأفكار بالالتقاء. كانت تلي الاجتماعات لقاءات على إنفراد مع الإطارات وكانت المحادثات تسير على ما يرام و الأفكار متبادلة مما كان يعزّز الروابط بين الإطارات و يخلق نوعا من المنافسة الشريفة بعد أن يتعارف أولئك الناشطين في مختلف المناطق بعضهم بعضا ويتبادلون التقدير. لاريب في أنّ هذه المبادرة كانت تنمّ عن استراتيجية محكمة لبلوغ أهداف محدّدة على المدى الطويل، فذلك أنّ بومدين كان يصبوا إلى رصّ الصفوف بتعريف المجاهدين بعضهم بعضا. لقد كان لجيش التحرير الوطني و لأول مرّة في تاريخه قيادة كانت تدري تماما الأهداف التي كانت تعمل من أجل بلوغها وذلك ما لم نتعود عليه مع هيئة الأركان السابقة.

أنشئت محافظة سياسية تحت قيادة محمد بوديسة وبات المحافظون السياسيون يقتنون من مختلف الوحدات فيتم تحسين مستواهم الثقافي وتعميق معارفهم وكان هؤلاء يدرسون على وجه الخصوص تاريخ بلدنا دون أيّ مركّب نقص

وكانوا يرجعون من تكوينهم وكلّهم فخر وإعزاز بوطنهم. أصبح المحافظون المتربصون يروون بشغف تاريخ يوغرطة وحني بعل و ماسينيسا والكاهنة ومن إليهم من الأوجه البارزة في تاريخنا التليد. لست أدري كيف انقلبت الأمور بعد الاستقلال مباشرة إذ راح البعض يلقي بأجيال برمتها في غياهب النسيان و التعتيم. لقد سيّس محرّرو الميثاق الوطني التاريخ وزوّروه فأكدّوا افتراء وبهتانا بأنّ "الأمّة الجزائرية لم تر النور إلاّ بعد القرن السابع".

وصلت إلى مركز قيادة المنطقة الأولى عائدا من عملية تمرير العقيد أحمد بن شريف. وجدت عناصر المنطقة مجتمعين في مجموعتين متباينتين بحضور بومدين وبعض من مساعديه و المكتب التقني. لاحظت من أول وهلة أنّ أفضل العناصر و قد حصل لي شرف رؤيتهم في ميدان الوغى قد جمعوا في نفس الوحدة وسمّيت في ما بعد بالفيلق الثالث عشر تحت قيادة عبد القادر عبد اللاوي النائب السياسي للمنطقة. بقيت الوحدة الثانية التي حملت رقم الفيلق الحادي عشر دون قائد. اقترح علي الشاذلي بأن آخذ بزمامها فرفضت قطعا وفضلت أن أكون ضمن قيادة الفيلق الثالث عشر. الحقيقة أنني لم أوافق على ذلك التقسيم غير العادل في نظري وبقيت رافضا لذلك الاقتراح على الرغم من إلحاح قائد المنطقة الذي عدل إلى إحداث توازن بين الوحدتين فيما بعد. ومع ذلك فإنّ التقسيم غير العادل ذلك لم يكن من باب سوء النية فالشاذلي الذي فكّر في إنشاء وحدة واحدة في بداية الأمر بمساعدة قادة الكتائب، جمع أحسن الرجال في فيلق واحد لكنّه لاحظ بعد ذلك أنّه كان يستطيع تشكيل وحدة ثانية فزجّ بمن بقوا في صفوفها بموافقة بومدين.

وقع الاختيار على أحمد ترخوش نائب الاستعلامات و الاتصالات بالمنطقة الذي لم يقبل بتلك المهمة إلاّ بعد إصرار الشاذلي بن جديد. مكثت إذن في الفيلق الثالث عشر كنائب عسكري.

أنا أعترف لأحمد ترخوش جهاده و مثابرته إذ جعل من الفيلق الحادي عشر من أفضل الوحدات الناشطة على الحدود. استشهد ترخوش رجلا بارّا على

رأس وحدته رفقة قائد كتيبته محند الشريف شلبي. لقد قام الفيلق الحادي عشر بمآثر عدّة بفضل جهود ترخوش و رجاله.

التحقت بجل الفدّان حيث قطاع نشاطنا. كان الفدّان يعتبر من أصعب الجبال تحكّما ومراقبة فهو ينحدر إلى غاية خط شال على عمق حوالي خمس وعشرين كيلومترا.

ينقسم الفدّان إلى قطعتين، أوّلهما كثيفة بالأشجار غير الملتهبة رغم المبيدات التي كانت تلقي بها الطائرات الفرنسية وثاني القطعتين عارية جرداء تتربع على سهل مكسانة وقد أقيم فيها اليوم سدّ، هذا إلى جانب جزء من واد بوقوس. يشرف الجبل على قرية العسل، يوسف سابقا. أقيم مركز قيادة المنطقة مؤقتا. أخذت الكتيبة الثقيلة موقعها على التخوم الشمالية في حين انتشرت كتائب المشاة الثلاث في التخوم الجنوبية للغابة على الخط، يحدّها على اليسار مزرعة شلوفي وعلى اليمين جبل الحمراء. تموقع على يسارنا الفيلق الرابع والعشرون تحت قيادة علي بوحجة المدعو فلفلي وعلى يميننا الفيلق الحادي عشر يقوده أحمد ترخوش.

اجتمعنا في المساء بمركز قيادة الفيلق مع قادة الكتائب لتحديد مواقع كلّ واحدة منها وإملاء المهام عليها داخل نظام الفيلق. كانت التعليمات تترك مجالا واسعا للكتيبة حتى تقوم بالمناوشات أو تنصب الكائن حسب مشيئتها في حين بقيت الهجمات على المراكز قيد أوامر مركزية تصدر عن الفيلق لأنها تستدعي تجنيد وسائل تتم تعبئتها من عدّة كتائب في نفس الوقت. و بالتالي، فالكتيبة الثقيلة المكلّفة بتدعيم باقي الكتائب المشكلة للفيلق كانت تخضع لقيادة مركزية ومرتبطة عضويا بالفيلق. وجهنا تعليمات عامّة بأن يبذلوا كلّ ما في وسعهم حتى لا يتلقى جيراننا على يميننا ويسارنا هجمات انطلاقا من قطاعنا و ربّما اعتبرنا اليوم طريقنا في التفكير آنذاك كنوع من الحدس.

بما أنّ الاجتماع انتهى في ساعة متأخرة، عزمنا مسؤولي الكتائب على قضاء الليلة في مركز القيادة. أيقظنا عون اتصال عند بزوغ الفجر و أفضى إلى علمنا

أنّ العدوّ قد لوحظ في ضواحي سهل مكسانة وكانت كتائبنا قريبة منه. أمرنا المسؤولين بالالتحاق برجالهم على الفور وأمليت على أحمد زمولي بأن يتجه صوب الكتيبة الرابعة وجمع الوسائل اللازمة وانتظاري في نقطة حدّدتها له على أن ألتحق به بعد أن أقوم ببعض الإجراءات بحكم الضرورة. عندما وصلت إلى عين المكان، لم أجد لا زمولي ولا عتاد الكتيبة الثقيلة. علمت بعدها بأنّ سبتي زمولي قرّر مجابهة العدوّ مباشرة وأنّه حمل معه الأسلحة الثقيلة للالتحاق بكتيبة المشاة. قرّرت الذهاب نحوه والقلق ينـــتابني لأنّ مسؤولية استعمال الأسلحة الثقيلة كانت ملقاة على كاهلي. وأنا أتجه صوب زمولي، وفي الوقت الذي كانت الطائرات الحربية و المروحيات تحلّق فوقنا، مررت برشاشات 12,7 مم و 7,62 مم التي وضعت طوال المسلك على عـــجل. وصلني من بعيد صوت مدافعـــنا و رشاشاتنا إلى أن تكثّفت الطلقات فتحوّلت إلى اشتباك. لم تكن الرشاشات المصطفة لردع الطيران تجد نفعا. أخذت موقعا على سفح الجبل لأرى بوضوح مجريات المعركة وفجأة سمع صوت مدوّ ومستمرّ في البعيد كان يقترب منّا أكثر فأكثر. لم أفهم ماذا كان يجري ثمّ رأيت خلف مرتفع أم علي على القمة المسمّاة "العمود"، تشكيلة من تسع مروحيات من طراز "بانان" تحميها مروحيتان من نوع "سيكورسكي" للاستطلاع والهجوم. كانت المروحيات تتجه مباشرة نحو مكان الاشتباك. تيقّنت على الفور من خطورة الوضع ولاحظت أنّ رجالنا هاجموا الجانب الأيسر من عملية شنّها العدوّ ضد جارنا الفيلق الرابع والعشرين. ربّما حاول العدوّ اغتنام فرصة إعادة تنظيم أنفسنا لمباغتة وحدات خارجة عن القطاع و الواقع أنّ قائد الفيلق الرابع والعشرين و عددا من الإطارات كانوا يومها يقومون باستطلاع في تلك النواحي.

تمكّنت المروحيات من النزول في عدد من المناطق ومخادعة بعض وحداتنا. كانت المعركة ضارية إذ كانت الطائرات و مروحيات الهجوم تتدخل دون انقطاع. ربّما دفعت الخسائر الكبيرة التي تكبّدها الجيش الفرنسي بفعل الضربات المفاجئة التي لقنتها إياه ثلاث كتائب في نفس الوقت، ربّما دفعته إلى

جلب المضلّين وفرق اللفيف الأجنبي. وقعت إحدى فصائلنا في تطويق واسترجع الجنود الفرنسيون رشاشا من نوع م ج 45 بعد أن قتلوا مستعمله وجرحوا الرقيب الأول فأسروه. التقيت مع زمولي قبل حلول الليل وكان قلقا على مصير مدفع 57 مم الذي تركه مخفياً في وسط الدغل. كانت علامات الحرج تبدو على ثغره لأنّه لم يحترم تعليماتي. اكتفيت بطرح بعض الأسئلة عليه حول المدفع فأجابني بأنّه فعل كلّ ما بإمكانه حتى لا يعثر العدوّ عليه ولمّا رأيته قلقا امتنعت عن توبيخه ورحت بالعكس أطمئنه بقولي إنّه كان يسعه استرجاع المدفع في الغد بما أنّه أخفاه بإحكام حسب ما قال لي.

تبيّن، بعد أن أقمنا اتصالات مع بقية الكتائب، أنّ جلّ وحدات التدخل كانت من اللفيف الأجنبي و أنّها كانت تحضر لاحتلال الموقع لقضاء الليل به، فتيقنت أنّ العدوّ لن يتوقف عند هذا الحدّ وأنّه قد يحاول القيام بعملية اقتراب ليلا أو يستأنف التمشيط مع طلوع الفجر.

أمرت كلّ الوحدات بنصب كمائن على كل المسالك المؤدية إلى قمّة جبل الفدّان، وما إن حلّ منتصف الليل، حتى ردّت الكمائن على تقدم العدوّ فأجبرته على التقهقر ماعدا بعض الوحدات المشكلة من اللفيف الأجنبي و التي واصلت تقدّمها.

في الصباح المبكّر، تلا الضربات الجوية و المدفعية تداخل الوحدات الموالية والمعادية إلى حدّ أننا لم نعد نفرز الرفيق من العدوّ. تمكّن قائد الكتيبة فيزاري عبد الله المدعو "بلا ندون" من التراجع بعد أن اختلطت وحداته مع وحدات العدوّ وطالته تسع رصاصات لكنّ لا واحدة منها أصابت عضوا حيويا لحسن الحظ. لقد سبق لفيزاري أن جرح من قبل في 1957 برصاصة في الرأس ومن سوء الصدف أن تلك الرصاصة هي التي أودت بحياته بعد أربع سنوات بسبب نزيف في المخّ ولم يكن يزل على رأس وحداته.

جرى الاشتباك الأخير في مركز قيادة الكتيبة الأولى و تقهقر اللفيف الأجنبي إلى غير عودة بعد أن رأى تعزيزاتنا وهي تصل. حقّق العدوّ في تلك

المعركة نجاحا محدودا بعد يومين من الاشتباك مع المجاهدين عازتنا الذخيرة خلالهما كثيرا. بعدها بيومين، عاد زمولي منتصرا و مدفع 57 مم بين يديه. أصيب أخ كريم بلقاسم بجروح بليغة بالنابالم الذي كانت تلقيه علينا الطائرات الفرنسية فاصبح في تعداد الجنود الجزائريين الذين أصيبوا بأسلحة محظورة والذين قدّمتهم جبهة التحرير للصليب الأحمر الدولي. كان شقيق كريم بلقاسم ضمن مجموعة بصدد اجتياز خط شال باتجاه الولاية الثالثة.

قائـــد الكتيبـــة الثقيلـــة للمنطقـــة

استدعتني هيئة الأركان العامّة فيما بعد لتولي قيادة الفصيلة الثقيلة للمنطقة المزوّدة بالأسلحة الثقيلة. انفصلت تماما عن الفيلق الثالث عشر بشيء من المرارة إذ تركت ورائي رفقاء وذكريات لا تنسى في المنطقة الأولى.

كانت الفصيلة الثقيلة للمنطقة الأولى من نوعها فتوجب عليّ في البداية التدخل في الجبهة الشمالية كلّها ثم كلّفت بعد تشكيل كتائب أخرى بدعم فيالق ثلاثة للمشاة في نفس الوقت. تواصل إنشاء تلك الفصائل الفتية إلى أن بلغ عددها سبعا يوم التوقيع على اتفاق وقف إطلاق النار في 19 مارس 1962

وعيت بالعمل الهائل الذي بذله مركز التدريب في ملاّق تحت قيادة النقيب بن عبد المؤمن. كان الضباط والإطارات و المدربون يعملون دون هوادة يعلّمون كلّ المواد ويشاركون في تشكيل الوحدات. فلقد ساهم هؤلاء في تعزيز جيش التحرير وتقويته ونحن مدينون لهم بالاحترام والتقدير.

مكثت في المركز بضعة أيام حتى أتعرف بوحدتي الجديدة والمشاركة في إطلاق النار بكل الأسلحة التي كانت بحوزتها. كانت الأسلحة الثقيلة تنقل على متن شاحنة قرب مكان تعييني. سرت على مرحلتين، قادتني أولاهما على مسافة 80 كيلومترا إلى واد مليز و الثانية إلى موقعي الجديد بين جبل عديسة وجبل الفدّان وكان الموقع يتوسّط الفيلقين الثالث عشر والخامس والعشرين الذين كان يقودهما على التوالي عبد القادر عبد اللاوي ويوسف بوبير. أوكلت إلي في البداية مهمة تحضير المعسكر للوحدة وتنظيمه. سهلت الغابات الكثيفة الواقعة على طول الحدود والزاخرة بنوع من أشجار البلوط بناء الأكواخ. كنا نستعمل جذوع الأشجار لبناء ما كان يمثل حائطا في حين كنا نصنع السقف

من القش. كانت الأكواخ منتشرة في الطبيعة مدفون نصفها في التراب حتى تأوي الرجال و تسترهم. وغالبا ما كان اللاجئون يساعدوننا في بناء تلك الأكواخ المصنوعة من الحطب.

كلّفت وحديّ بدعم الفيالق في تأدية نشاطها. وكنت أكتفي في أغلب الأحيان بتوفير الأسلحة الثقيلة بطلب منها أعمد في كلّ عملية إلى المشاركة فيها بصفة مباشرة برفقة واحـــد من عناصري وكنـــت بهذه الطريقة أشرك الوحدة كلّها في العمليات ما يسمح لي بتقييم كفاءة الرجال وقدراتهم القتّالية، وكنت أعمل دوما على أن يساهم جنودي قدر المستطاع مع الفيالق التي كانوا يدعّمونها، فالأوامر كانت صارمة لا تقبل أيّ تخاذل، كنت أفرض على الرجال أن يكون سلوكهم مثاليا بخاصة أثناء المعارك وكان يجب تفادي وقوع أي سوء تفاهم. وضعت معيارا لاستهلاك الذخيرة لكل عملية وزعتها على شقين، يستعمل الجنود الذخيرة الأولى خلال المعركة ويحتفظون بالثانية للحماية عند عودتهم من العملية وأصدرت الأوامر بأن تفرّغ الذخيرة المخصصة للمعركة في حالة عدم استنفاذها على المراكز العسكرية الفرنسية وكانت تلك طريقتي في معاقبة الجنود ولفت انتباههم إلى وجوب احترام التعليمات التي كانت تملي عليهم بأن يكونوا آخر من ينسحبون وأحسن الرجال في تدعيم الوحدات الأخرى. كلّف قائد فصائل الرشاشات بوتلة المانع بضمان حمايتهم عندما يهاجم هؤلاء مراكز العدوّ بما بقي لديهم من ذخيرة. وكانت نتيجة ذلك العمل أن أصبحت الكتيبة الثقيلة للمنطقة مثلا يقتدي به ويطلب منها العون كلّما قام فيلق بعملية.

وقع الاختيار على عبد النور بحكم تجربته ومعرفته للميدان لتحضير اجتياز عبد القادر عبد اللاوي برفقة يزيد من الولاية الثانية وحدّادي عبد النور وقد رقّي عبد النور إلى رتبة نائب عسكري للفيلق الثالث عشر بعد انتقالي إلى الكتيبة الثقيلة. كان على عبد النور أن يرافق عبد اللاوي الذي كان مكلّفا

بمهمة بين الخطين في حين اغتنم يزيد فرصة محاولة الاجتياز تلك للالتحاق بالولاية الثانية بعد أن فشل عدّة مرّات.

كانت احتمالات عديدة قائمة لإيجاد أفضل نقطة للاجتياز وانتهى بهم الأمر إلى اختيار مكان قريب من قرية عين العسل. كان المكان ملائما لسببين حسب عبد النور: أوّلهما أنّه يسمح بمباغتة العدوّ لأننا كنا نستعمله لأوّل مرّة لعملية كتلك وثانيهما أنّ المنطقة كثيفة وقريبة من الخـــط ممّا كان سيسمح لرجالنا بالاختفاء فور عبورهم. أنيطت إلى الفيلق الثالث عشر ورجالي مهمة ردع العدوّ من جانبي الخط ومنع عليه أيّة محاولة تدخّل. جرى الاجتياز بقوة إذ استعمل المجاهدون عبوات ناسفة ممتدّة اسمها "بنقالور" سرّبوها بعناية من تحت الأسلاك. كانت العبوات قادرة على تدمير شبكات الأسلاك الشائكة بحيث تفتح ثغرة عرضها نصف متر تقريبا تسمح بمرور رتل واحد دون خطر في حين كان قطع الأسلاك المشحونة بقوّة كهربائية قدرها خمسة آلاف فولت يعود إلى الفرق المتخصصة في ذلك إذ كان عناصر مجاهزون بشتى الأدوات الكهربائية يقبضون الأسلاك التي كانت تترخّف ما إن يتم قصّها فتتلوّى يمينا وشمالا كذاك الحيوان الزاحف الذي ينفث النار من فمه بفعل الشحنة الكهربائية العالية. كان يعتلي طرفي السلك عند قصّه وهج يميل إلى الزرقة. يتم قطع السلك في آخر وهلة حتى لا يتكهرب رجالنا. ولأنّ شبكة الأسلاك التي أقيمت وراء الخط كانت عميقة، كان رجالنا يحملون حول أحزمتهم متفجّرات متمدّدة طرية تسمح لهم باستعمالها كلّما زادوا توغّلا في الخط واعترضت سبيلهم نفس العراقيل.

ولئن تمت عملية الاجتياز بصفة عادية فإنّ عناصرنا الذين دخلوا في عمق النظام الدفاعي للعدوّ وقعوا في نيران الرشاشات التي كانت تطلق وابلا من الرصاص من معاقل موجودة في الخلف لم يكتشفها رجالنا خلال خرجاتهم الاستطلاعية. رأى حدّادي عبد النور أن يحتمي أمام هذه الحالة المباغتة ذات العواقب الوخيمة فأمر رجاله اللجوء بسرعة إلى المكان المغطىّ الموجود على

مقربة من الخط. لم يكن أمام عبد النور خيار آخر فجازف مع أنّه كان يدري أنّه قد يتخطىّ ورجاله الألغام. اختلطت الأمور ولم تكن لأسلحة الإمداد التي تركت في عين المكان أية فعالية.

انتهز العدوّ المفاجأة ففجّر حقلا زرع فيه ألغاما في الوقت الذي كانت فيه المجموعة الأولى المشكلة من حوالي أربعين مجاهدا تقطعه جريا. فشلت محاولة الاجتياز ولقي ثلاثة عشر رجلا حتفهم وجرح العديد وأسروا. أصيب عبد اللاوي الذي كان يتوسط الرتل فأجبر على التراجع مع جزء من مجموعته. استشهد سبع من رجالي ذلك المساء في عملية ضد قرية رمل السوق واستشهد مسؤولو الكوموندو يزيد وعبد النور وأحمد الأصنامي كلّهم وقد أقيم نصب تذكاري في المكان الذي سجل فيه هؤلاء البررة أسماءهم في تاريخ الجزائر إلى الأبد.

لم أكن أعرف يزيد جيدا لكنني أستطيع القول جازما بأنّنا فقدنا في شخصي عبد النور و الأصنامي رجلين فذين شجاعين إلى حدّ المجازفة.

شارك هؤلاء في كل المعارك الضارية التي عاد فيها المجاهدون غانمين وأثّروا على كلّ من نشط إلى جانبهم تأثيرا.

صدق أحمد سرّاي إذن وتحقق ما تنبأ به. كنت أشعر كغيري بالخطر يحدق بي فأتحاشاه ربّما لأنني كنت دائما على يقظة وربّما انغرست لدي ملكة الحدس أو لأسباب أخرى أجهلها... كنّا عندما نسير إلى المعركة نلمح على وجوه بعض رجالنا طيف الموت يلوح حولهم فكنّا نتبادل النظرات وكأننا برائحة الموت قد ترامت إلى أحاسيسنا جميعا وكنا عند نهاية المعركة نلاحظ أنّ تنبّآتنا كانت صائبة في بعض الأحيان.

مازلت على رأس الكتيبة الثقيلة للمنطقة عندما حضرنا بمشاركة الفيلق الثالث عشر هجوما على مركز صابونة العسكري الواقع على الجسر. كان الجيش الفرنسي يعتبره نقطة حساسة. لفت المركز انتباهنا من قبل عندما كنت نائبا عسكريا للفيلق إذ كان جزءا من نظام دفاعي مهمته الذود على قرية الطارف.

كان المركز يتوسط الطريق المؤدية إلى رمل السوق و واد البن ويشكّل نقطة ارتكاز قوية لفصيلة معزّزة بنيران أسلحة رمل السوق والمركز المنصّب على مرتفع كودية العوانة.

شكّلنا ثلاث مجموعات. كلّفنا الأولى بشنّ الهجوم على نقطة ارتكاز الصابونة تحت قيادة أحمد غيدوشي وأنطنا بالمجموعتين الأخريتين مهمّة صدّ الطريق على العدوّ من جهتي الجسر، الأولى على اليمين في رمل السوق تحت قيادة عبد الله سناني من الكتيبة الثقيلة للمنطقة والثانية على اليسار يقودهـــا عبد الله فيزاري من الفيلق الثالث عشر. وقع الاختيار على هذين القائدين لما لديهما من روح المسؤولية العالية. للتذكير، فإنّ فيزاري تلقى تسع رصاصات خلال الاشتباك الذي دارت رحاه في جبل الفدّان. تتبّعنا مجريات المعركة أنا وقائد الفيلق عبد اللاوي ونائبه العسكري قدور ثامر المدعو بوحرارة و أولينا اهتماما خاصّا بالمجموعة الناشطة في جسر الصابونة بحكم أهميتها وجسامة الوسائل التي سخرت لها.

تموقعت من جانب جبل تسايد في النقطة رقم 157 ومعي جهاز راديو ذو الذبذبات العالية VHF وهو واحد من حوالي عشرة أجهزة كنا تلقيناها مؤخّرا من هيئة الأركان لتجريبها. يتراوح وزن الأجهزة تلك بين خمسة وستة كيلو غرامات وتحمل على الصدر. كانت سهلة الاستعمال وتسمح بتلقي إرسال أجهزة العدوّ على أكثر من خمسة كيلومترات.

قبل اندلاع المعركة، أخذت أبحث بتمعن عن موجة الجيش الفرنسي وتيسر لي ذلك كون الموجات كانت مضبوطة مسبقا. تمكنت إذن من العثور على ذبذبة يبدو أنّها كانت تصدر من الجنود الفرنسيين المتواجدين أمامنا غير بعدين عنّا. انتظرنا. كلّما اقتربت لحظة الهجوم، كلّما زاد التوتّر ذلك لأنّ الرهان كان كبيرا والمخاطر أكبر فمركز الصابونة كان محصونا بنيران المراكز المحيطة به.

لم يزل عنّا القلق إلاّ مع شروعنا في خوض المعركة يراودنا السؤال نفسه في كلّ مرّة : "هل سينجح رجالنا في الاستيلاء على المركز ؟"، "هل سيتكبدون خسائر كبيرة ؟". بعد حوالي ثلاثين دقيقة كفّت النيران في رمل السوق و

الصابونة ماعدا المدفعية التي واصلت قصفها بينما كان الصمت على يسارنا تاما. كانت تجربتنا تسمح لنا بفهم ما كان يدور في المعركة وتتبع رد فعل رجالنا خطوة خطوة. نقصت وتيرة القصف بالمدفعية وبتنا نفكر في عملية انسحاب جنودنا قلقين لما يكون قد حلّ بهم من خسائر وبقينا ننتظر بنفاذ صبر حتى نعرف النتائج التي حصلوا عليها.

فجأة، سمع صوت في جهاز الراديو؛ إنّه صوت جندي فرنسي فر من مركز الصابونة فدخل في اتصال مع مركز جبل تسايد لكنّـــنا لم نفهم ذلك إلاّ بعد أن أرسل هذه الأخير الإمدادات إلى الصابونة. كان الجندي المرتبك يطلب من زملائه أن يخبروه عن الثغرة التي يدخل من خلالها إلى المركز ولمّا طال عنه الجواب، انهمر بكاء. غمرتنا السعادة عندما فهمنا أخيرا أنّ غيدوشي نجح في احتلال المركز. في الوقت ذاته، لاحظنا تحرّكات في تسايد. كان العدوّ يحضر العربات والآلات ففكّرنا مباشرة في مجموعة صدّ الطريق على العدوّ باتجاه الصابونة التي كان يقودها عبد الله فيزاري واستنتجنا أنّه في طريق العودة بما أنّ العملية الأساسية التي أرسل من أجلها قد تمت.

كنا نشاهد أضواء العربات عندما ترامى إلينا صوت المسؤول يأمر قائد الرتل بالاتجاه صوب الصابونة لتفقّد ما حدث هناك.

يبدو أنّ الجندي الذي التحق بهم لم يرو لهم حقيقة ما جرى ربّما بسبب الارتباك الذي حلّ به. كان آخر أمر أصدره القائد مفاده التحلي بالحذر:" اتجه صوب الصابونة وراقب جيدا المنطقة". استعمل القائد كلمة "شوف" التي دخلت القاموس الفرنسي منذ حرب الجزائر ومعناها "افتح عينيك جيدا" أو"مركز الترصد" إذا اقترنت الكلمة بأداة التعريف.

تتبّعنا بالنظر أضواء أربع سيارات كانت تتنقل على الطريق غير المعبدة الممتدة إلى شعبة الكرامسة والمتقاطعة مع طريق رمل السوق. لم نكن لنفكّر أنّ عبد الله فيزاري كان لا يزال في عين المكان، لم نكن نتوقّع أيّ ردّ فعل من لدنه

ظنا منّا أنّه في طريق العودة. ما فتئت السيارات الأربعة تصل إلى الطريق حتى فاجأتنا انفجارات متزامنة تقريبا استهدفتها.

لم يدم أمد الكمين أكثر من بضعة دقائق من فرط ماكان فوريا. اندلعت النيران في السيارات الأربعة في نفس الوقت. لقد تحلّى فيزاري بالبصيرة والفعالية إذ تريث ولم يتسرّع. كان يدري بحكم قربه من الهجوم الأساسي بأنّ هذا الأخير كلّل بالنجاح وأنّه لم يبق أمام العدوّ سوى أن يرسل التعزيزات. فهم قائد كتيبة الفيلق الثالث عشر إذ رأى التحضيرات جارية في مرتفع تساند أنّ التدخل كان يستهدفه فأمر رجاله بإعادة احتلال المواقع على عكس التعليمات التي أصدرها من قبل و المتضمنة الانسحاب على التوّ. ما إن اقتربت العربات حتى كان ردّ الفعل سريعا. تقدّمت عربات استطلاعية ثلاث مدرعة ذات عجلات وعربة مزنجرة "هالف تراك". أصيبت الأولى بلغمين مضادين للدبابات رمي بهما على الأسفلت بينما طالت عربتين أخريين قنابل. أطلقت بواسطة البازوكا وتلقت العربة المزنجرة قذيفة أطلقها مدفع 57 مم. كانت العربات المدرعة الثلاثة تقلّ خمسة رجال تم تدميرها كلّها فاحترق من فيها لمّا عجزوا عن الخروج منها ووقع الرجال الثماني على متن " الهالف تراك " في نيران أسلحة المجاهدين الفردية ولم ينج سوى جندي واحد تمّ آسره. أصيب الجندي الفرنسي بالهلع ولم يستطع الإجابة على أسئلتي فراح يردّد مفزوعا : "لقد احترقوا جميعهم لقد احترقوا جميعهم".

احتفظ في ذاكرتي بمعركة من بين معارك التحضير و الاستنـــزاف والتعوّد على قساوة القتال بحكم النتائج الحسنة التي حصدناها وكذلك بسبب الإمكانات الجبارة التي استخدمناها يومها. جنّدنا من أجل معركة جبل الحمراء فيلقي مشاة، الفيلق الثالث عشر تحت قيادة محمّد سلمون الذي حلّ محلّ عبد اللاوي المصاب بجروح وعبد الكريم حدّادي المدعو عبد النور الذي استشهد خلال محاولة اجتياز خط شال، والفيلق الخامس والعشرين برئاسة يوسف

بوبير. كلّفت الكتيبة الثقيلة الأولى بكلّ ما أوتيت من وسائل بدعم الفيلقين. كانت بحوزة الكتيبة مدافع ستة عيار 75 مم وست مدافع أخرى عيار 57 مم وستة أسلحة مورتر عيار 82 مم وستة رشاشات 12/7 مم واثني عشر رشاشا عيار 7,62 واثنتي عشرة قاذفة قنابل مضادّة للدبابات.

بعد أن تمّ تشكيل المجموعة، تلقيت الأمر بتوليّ قيادته وتنسيقه. كانت منطقة العملية محدودة تقع بين رمل السوق ومشطة الحمراء لا يتعدى طولها ثمانية كيلومترات.

حدّدنا مواقع للاسلحة، فأمرنا بنشر رشاشات الكتيبة الثقيلة للمنطقـــــة و الرشاشات الثقيلة التابعة للفيلقين في منطقة بلاد الشعلة نهارا والبقاء هناك دوام المعركة على أن يستريح المجاهدون ليلا حيث يكف الطيران الفرنسي عن التحليق. أنيطت إلى الرشاشات مهمة تغطية العمليات التي تشنها وحدات المشاة في وضح النهار وعرقلة تدخل طيران العدوّ. قسّم الفيلقان إلى ثلاث قوى يمتدّ نشاط كل واحدة منها ليلة، وتوزعت القوى الثلاثة على مفرزات عدّة يضاهي عددها عدد المراكز المستهدفة معًا.

أمليت المهام بالتشاور مع قادة الفيالق ثم التحقت بالمجموعات التكتيكية بمواقعها عند هبوط الليل فباتت مقابلة لهدفها. اهتميت شخصيا بالرشاشات المضادة للطيران وفضّلت وضعها في النصف الثاني من الليل وسط القصف. التقيت بمجاهدين عائدين من عملية يحملون بعض الجرحى ومن بينهم"قوميي" تلقّى رصاصة في البطن. ظنّ الأسير أنه كان بين أيدي الفرنسيينْ فراح يتعجّـــب :" أرأيتم ما فعل فينا هؤلاء الفلاقة القذرون مساء أمس".

لّما انتهيت من وضع الرشاشتين في الصباح، أمرت بعملية استطلاع متقدّمة لترصّد الطريق الآتي من رمل السوق والمؤدّي إلى الحمراء. كانت المنطقة توحي بميدان معركة حقيقي إذ رأينا دبابة هامدة وسط الأسلاك والسيارات المحروقة الرمادية اللون المائلة إلى السواد متناثرة هنا وهناك. تمكن الجنود الفرنسيون من

تنحية الهياكل الجاثمة. تجرأ قائد الكتيبة بوحرارة قدور فوقف وسط الطريق وأشار لدبابة بالتوقف. أخذ بوحرارة احتياطه إذ وضع قرب خندق قاذفتي قنابل.لم يكن سائق الدبابة يدري من كان أمامه فتظاهر بتوقيفها لكنّ بوحرارة دمّرها قبل أن يتفطّن الجندي الفرنسي للأمر. أطلق أحمد غيدوشي الذي كان موجودا على مقربة من المكان بواسطة مدفع عيار 57 مم على عربة مزنجرة فقد سائقها التحكم فيها فكادت تصدم غيدوشي عندما إنهوت في الخندق. فتحاشاها بأن أسرع إلى داخل معقل ظنّه خاليا. لكن، ولسوء الحظ، وجد غيدوشي نفسه وجها لوجه أمام ثلاثة جنود فرنسيين كانوا شادّين أنفسهم إلى بعضهم بعضا. فهم غيدوشي الوضع لكن الجنود الفرنسيين لم يعوه، فاختار الوقت المناسب لينحدر من المعقل ويطلق وابلا من النيران على الجنود الثلاث.

أخذت مكاني وسط النظام الدفاعي المضاد للطيران. بدأ صوت المحرّكات يترامى إلى مسامعنا فظهرت موجة أولى من طائرات ت 28. حلّقت طائرتان فوق الطريق ربّما لمعاينة الخسائر التي تكبدها الجيش الفرنسي في الليل. وجهت الطائرات الأربعة الأخرى نيرانها صوب رشاشاتنا التي بدأت في إطلاق النار. التحقت الطائرتان بالطائرات الأربعة فكوّنت سربا. وأخذت تنقضّ علينا الواحدة تلوى الأخرى بأمر من قائدها. دامت التشكيلة هكـــذا مدّة عشر دقائق وإذا بإحدى الطائرات تنفصل عن البقية لتتجه صوب فرجة في الغابة قريبة من رمل السوق. ظهر تويجان من المضلّيين في السماء. لقد أصيبت الطائرة فهبطت مدوّمة وسقطت فانفجرت فتعالت منها النيران. وبما أنّ تخم الغابة لم يكن يبعدنا بكثير، ركضنا باتجاهه أملا في إلقاء القبض على طيّاريها لكنّهما انقذا في آخر وهلة فحملا على متن مروحيتين جاءتا لإغاثتهما. تعالت الطائرات الأخرى في السماء واستمرت في الدوران حول مواقعنا. وصلت طائرات أربعة أخرى من طراز ب 26 و والت عمل سابقاتها في الوقت الذي كانت هذه الأخيرة لا تزال تحلّق فوقنا وتطلق علينا النار من لحظة إلى أخرى.

جازفت طائرات ب 26 فحلّقت على علّو منخفض فوق الأشجار وأطلقت النار من مقدّمتها وهي تنقضّ علينا ثم تطلق نيرانها من الخلف وهي تعلو في أقصى قوّة. تكثّفت نيراننا وزادت دقّة أمل في إسقاط طائرة على الأقلّ.

ولسوء الحظ، فإنّ طائرات ب 26 كانت مدّرعة ومزوّدة بصواريخ الروكات ومدججة بأربع رشاشات عيار 12,7 في الأمام وأربع أخريات في الخلف ممّا صعّب علينا المهمة. تلت الطائرات أربعة أخريات من طراز سبيت فاير إنجليزية الصنع أرغمتها قوّة نيراننا على التحليق على علوّ مرتفع حتى لا تصيبها رشاشاتنا. انتهزت فرصة ابتعاد الطائرات لأتفقّد أسلحتنا بمعية عون اتصال، فانقضّت حينها طائرتان يبدو أنّهما كشفتا تحرّكنا بعد أن أطفئ محرّكهما. قصفت الطائرتان فاندفعت بقوة نحو السماء، ولم ننج إلاّ بفضل صوت المحرّكات لّما أعيد إشعالها فسارعنا وارتمينا في الدغل المحادي للطريق و المزروع بالوزّان لتفادي شظايا القنابل التي كانت موجّهة إلينا. كنت أعرف مدى جمال الوزّان ولكنني اكتشفت يومها الأشواك المختبئة تحت تلك الزهرة التي تزيد الطبيعة خلابة. نهضت بسرعة البرق والأشواك قد لذعتني فاتجهت صوب رجالي عاري الرأس. فقدت قبعتي وقليلا من عزتي قلّت الضربات واستطعنا إسقاط طائرة انفجرت في السماء.

في الليل، رافقت قائد مجموعة مدافع 57 مم للمشاركة في عملية ضدّ دبابات كانت ترابض وراء الخط. لاحظنا أنّ الدبابات كانت تتفادى حراسة الخط عن طريق التمشيط، ربّما كان السبب في ذلك يعود إلى الخسائر التي لحقت بها و بالمدرّعات فاضطرّت القيادة الفرنسية إلى اعتماد تكتيك آخر. باتت الدبابات ثابتة لا تتحرك أو مخفية في خنادق لا يظهر منها سوى المدفع.

في نهار الغد، قلّت ضراوة الطائرات الحربية الفرنسية إذ أثبت المجاهدون عشية ذلك اليوم مهارتهم وقدرتهم على قهر أسلحة العدوّ التي كانت تعيقنا أكثر من غيرها وتسبّب لنا المصاعب. انخفض عدد الطائرات مع مرور الأيام

بشكل ملحوظ في حين لم تكن الطائرات المتبقية تحلّق على أقلّ من ألفي متر لا تنزل أبدا إلى أقل من ذلك العلوّ، ففقدت فعاليتها تماما.

قرّرت أن استريح حتى أتمكن من مواجهة آخر يوم من العملية. أمرت قائد فريق مدفعية 57 مم بمرافقتي و أمليت عليه بأن يلتحق بالموقع الذي استعملناه في الأمس، ذلك أنني لاحظت بأنه كان يوفرّ حوافر أكبر لمجابهة الدبابات ومهاجمة المعاقل. أمرت قائد فصيلة المشاة التابعة للفيلق الثالث عشر بضمان حماية مباشرة للفريق إذ كان إطارا محنّكا و يعرف المنطقة جيدا. عندما وصل الجميع إلى عين المكان، اقترح المكلّف بالحماية على قائد فريق المدفعية أن يختار موقعا آخر يبعد الموقع الأوّل بحوالي مئة متر لدرء المدافع عن نيران العدوّ لاسيما وأنّ نقلها إلى الموقع الجديد لم يكن ليقلّل من نجاعتها ولن يمنعها عن تأدية مهمتها على أحسن وجه. أجاب قائد الفريق بالسلب قائلا : " لقد تلقيت الأمر من مسؤولي باستعمال هذا الموقع ولن أخالف أوامره ". استقدم الجيش الفرنسي في المساء الثالث وحدات و أسلحة أخرى وضرب بقوة.

أصيب مدفع كان الرقيب الأول بقربه فسقط وسقط الكثير ممن معه وجرح آخرون في حين دمّر المدفع تماما. كنت مسترخيا تحت جذع شجرة شأني شأن قدور بوحرارة لمّا أتى إلينا قائد فصيلة الفيلق الثالث عشر حاملا في يده كيسا من الخيش به دم. فتحه وأظهر أشلاء من جسم الشهيد. لم نعثر على ما تبقى من جثة المرحوم الممزّقة إلاّ بعد مرور أيّام من استشهاده ولقد دفن في قبرين اثنين في منطقة الحمراء.

استشهد خلال هذه المعركة مساعد ممرض الفيلق الثالث عشر في المساء بنفس الشكل تقريبا ولقد كان ضحية الانضباط والوفاء. كان اسمه فرحات بوخاتم الملقب ببابا ديدي و أصله من عنابة. طلب قائد الفيلق بالنيابة مـــن بابا ديدي مرافقته لأنّه كان في حاجة إلى ممرّضي فصائل حتى يمدّ يد العون. قبل بابا ديدي وجعلني شاهدا على ذلك فقال مازحا : "هذه آخر مرّة أقبل فيها طلبا

من هذا النوع، ولن أبرح الفيلق من الآن فصاعدا". ثم أردف ضاحكا في لهجة المنطقة : "سأذهب هذا المساء، لكنني عنـــد العـــــودة نرخف بر لنكي". بمعنى سأركن إلى الراحة. لم نسترجع شيئا من جثـــــة بابا ديدي. وضع الجنود ذخيرة الأسلحة الثقيلة قربه تحسّبا لاستعمالها فانفجرت بانفجار القنبلة التي وقعت عليه فأردته قتيلا.

لئن استرجعت هذه الذكريات بهذه الدقة في الصف، فذلك حتى أقدّم التحية و التجلّة لهؤلاء الرجال وأولئك الذين قاسوا الأمرّين واستماتوا ليل نهار. لقد كانوا على علم بأنّ كلّ المواقع التي سيحتلّونها كانت محظّ أنظار العدوّ وأنّ النيران كانت مصوبة باتجاههم ومستعدّة لاقتناصهم ومع ذلك فكانوا يذهبون لتأدية ما عليهم متحدّين الموت. اعتقد أنّه لا يوجد في العالم من الجنود الكثيرون الذين يخوضون حربا في ظروف كتلك بهذا القدر من الإيثار و البسالة و الرزانة على السواء.

في الليل، ذهبت إلى المركز الطبي التابع للمجموعة لزيارة الجرحى وكان عددهم مرتفعا في اليومين الأخيرين. قيل لي إنهم مئة تقريبا. وأنا في المركز وفي الوقت الذي بدأت فيه عملية الليلة الأخيرة، شاهدت وصول المجموعة الأولى من الجرحى وكان عددهم أكبر، ذلك لأنّ العدوّ استعاد قواه وجنّد فرقا إضافية واستعان بكلّ ما أوتي من وسائل فأحدث في أوساطنا خسائر جمّة بواسطة المدفعية والدبابات. توهّج الليل بفعل الحباحب التي كانت الطائرات تلقيها دون انقطاع على ميدان المعركة. كانت تلك الحباحب في العادة تساعدنا على الاهتداء إلى سبيلنا لكنها في هذه المرّة لم تكن في صالحنا. بقيت أشاهد الممرضين وهم منعكفين على تضميد جراح المصابين وتمعّنت النظر في جريح كانت حالته خطرة لا أمل له في الشفاء : كان وركه ممزّقا وكأنّه قطّع بشفرة حادّة ولم يعد معلّقا إلى باقي الجسم إلاّ ببعض الأشلاء. أفرغ جسم الجريح من دمه وكانت نخارب يميل لونها إلى البياض تحيط بالجرح تعجبت لما في جسمنا من أوردة لا تعدّ و لا تحصى. كان اللون الأبيض يعني أنّ

التريف كان بالغا لفظ الجريح أنفاسه الأخيرة بعد دقائق معدودات. رحم الله الشهيد.

استدعيت يوما إلى قيادة المنطقة الشمالية فأمرت بمغادرة المكان و التموقع جنوبا حيث يرابض الفيلق التاسع والثلاثون تحت قيادة الشريف براكتية. المكان يدعى واد الزان، يجاورني على اليسار الفيلق الرابع عشر تحت قيادة حما لولو ثم عبد القادر قارة وعلى اليمين الفيلق التاسع عشر تحت أوامر سليم سعدي الذي شغل منصب وزير في حكومات متعاقبة.

في واد الزان، شرعت في استطلاعات قبل إقامة وحدتي. اخترت مكانا كثيفا شيئا ما ذلك أني كنت على مقربة من المركز العسكري الفرنسي بالحمري. ساعدني اللاجئون في عمليات التنقيب وبناء المخابئ للمجاهدين. كان نائبي يدعى العياشي بن جديد لكنه لم يكن يمتّ إلى الشاذلي بن جديد بقرابة. وكان العياشي ينشط في المنطقة الثانية سابقا قبل تعيينه نائبا لي. كان العياشي متحليا بالضمير المهني لا يتوانى أبدا عن القيام بما عليه تراه يجهد في تهيئة مواقعنا بتفان. لم يحصل لي أبدا أن رأيت العياشي طول المدّة الزمنية التي عملت فيها جنبا إلى جنب ينـــزع كنانته التي لم تكن تفارقه ولو لحظة.

كانت الأشغال جارية وعمليات الاستطلاع قائمة لّما استدعيت يوما إلى قيادة المنطقة الشمالية للمشاركة مع مجموعة استطلاع في مهمة تمتد إلى جبهة المنطقة كلّها. و بما أنّ قواعد التموين كانت أقيمت، كانت بقربي مباشرة قاعدة خلفية يقودها النقيب رشيد عيسات، و هو الآن، مستشار في الرئاسة. كان عيسات يدعّم الفيلقين الرابع عشر والتاسع عشر إلى جانب الكتيبة الثقيلة للمنطقة الأولى. وعيت إذ ذاك أنّ القيادة كانت تخطّط لعملية واسعة النطاق.

كان فريق الاستطلاع الذي كان يقوده عبد الرحمن بن سالم شخصيا يضم عبد القادر شابو وضباط هيئة الأركان خليفة رحيم ورجالا مكلّفين بالمرافقة في حين أنيطت مهمة الحماية إلى الوحدات التي كانت عمليات الاستطلاع تجري في مواقع نشاطها، بالإضافة إلى فرقة أرسلتها وزارة التسليح والاتصالات

العامة و بحوزتها منظار مسافيّ يديره عز الدين أيت مصباح الذي حصل لي شرف الالتقاء به لأول مرّة. كلّفت بنسخ مخططات عن المراكز التي يتم ملاحظتها بواسطة النظارات المكبّرة. شرعنا في الاستطلاع ابتداء من شمالي خط شال وامتدّ إلى غاية الجنوب عند مركزالقوارد. في حين كانت الاستطلاعات متقدمة أكثر حول مركز الحمري وبورنان وعين الزانة الذي سبق وأن تعرّض لهجوم قامت به المنطقة الثانية تحت قيادة عبد القادر شابو والفيلق الأوّل المستقل بقيادة سليمان هوفمان. لحقت بالمركز المحصّن أضرار جمّة خلال المعركة وقد تمكّن عنصر الهجوم من التغلغل إلى داخله و الاستيلاء على أسلحة بعد أن قتل عددا من جنود العدوّ وعلى رأسهم نقيب مسؤول على العمل السيكولوجي. أصيب عبد النور بقة بجروح على رأس كوموندو هجومي آخر وكانت تلك أوّل أكبر عملية يتم شنّها قبل مجيء هيئة الأركان العامّة. استعملت خلال الهجوم أسلحة ذات قدرة هدّامة عالية كنا قد تلقينا عددا منها قبل أن نحصل عليها بوفرة. تواصل التحضير ودام حوالي خمسة عشر يوما.

لاحظت خلال تنقلاتنا كم كان لعبد الرحمن بن سالم قدرة فائقة على استرجاع القوى على الرغم من سنه المتقدم. كان بن سالم في أوقات الراحة يكتفي بقليل من الخبز وجرعات قليلة من الماء ولم يكن يحتاج إلى أكثر من خمس عشرة دقيقة لمعاودة السير بينما كنا نحن على شبابنا أقلّ تحملاً للمشقّة والتعب.

لم يعرض سوى حادث واحد يوما واعتقد أنّ ذلك ما سمح للفرنسيين بمواجهة هجوماتنا على الرغم من الوسائل الهامة التي كرّسناها.

رحنا نستطلع مركز بورنان تاركين القوارد خلفنا. رافقنا بعض العناصر من الفيلق الرابع عشر وفريق المصوّرين الشاغلين تحت قيادة عز الدين آيت مصباح. لم تعد نظاراتي المكبّرة تفارقني. حينما باشرنا الاستطلاع ارتكبنا خطأ تخليد تلك اللحظات في صور أخذناها كلّنا معا.

لّما بلغنا المرتفع المكتّف المطّل على بورنان أخذنا نترصد المركز قبل الشروع في العملية. في تلك اللحظة بالذات، رأيت نفثات ملتفّة من الدخان تتصاعد من الغابة مصدرها سجارة مشتعلة. جذبت عبد الرحمان بن سالم من كمّه و أريته ما رأيت. أصغينا في تمعّن واستمعنا إلى أصوات خافتة. اهتم بن سالم بالأمر هادئا غير مرتبك. كانت تحرّكاته الفطنة و العازمة توحـــي و كأنّه شاب في الثامنة عشرة. كان بن سالم ذا خبرة واسعة إذ قاتل في الهند الصينية وعرف غياهب السجون في ديان بيان فو وحمل السلاح في صفوف جيش التحرير الوطني منذ خمس سنوات كان له خلالها ضلوع في العديد من العمليات الشهيرة.

اضطرينا إلى تأجيل عملية الاستطلاع فالمهم أن ننسحب دون أن يتفطّن العدو لوجدونا. كان يمكن لمركز القوارد الذي تخلّفناه أن يعترض سبيلنا في أية لحظة، ولن يكون أمامنا في حالة وقوعنا في اشتباك إلاّ أن نقاتل حتى النهاية. في المساء قرّر بن سالم استئناف الاستطلاع وكلّف الفيلق الرابع عشر بإتمام مهمته صوب مركز بورنان.

في الغد، غادرنا الجميع وتركنا وراءنا فريق التصوير وعلمنا يومين أو ثلاثة أيام بعدها أنّ العناصر الذين بقوا في عين المكان وقعوا في كمين أسر آيت مصباح إثره ولم يطلق سراح قائد كتيبة اسمه بشير ظنّ الجميع أنّه ميت إلاّ بعد الاستقلال. ربّما كشف الحادث ما كنا نحضّر له بسبب المعلومات المختلفة التي حصل عليها العدوّ بعد تعذيب السجناء.

ثبتت تخميناتي إذ تلقيت الأمر بالقيام بعملية سبقه اجتماع في المنطقة الشمالية. كلّفت بإمداد أربع فرق هجومية أنيطت إليهم مهمة الهجوم على مركزي الحمري والقوارد على أن يتم الهجوم على مركز بورنان المدعّم للمركزين سالفي الذكر بواسطة المدفعية باستعمال مورترات ثمانية عيـــار 82

مم. كانت وحديّ منقسمة إلى قاعدتين ناريتين إحداهما تحت قيادتي والثانية يرأسها نائبي العياشي.

كان يوجد في وحديّ ضابطان سابقان ممن تكّونوا في الشرق الأوسط هما العربي سي لحسن رحمه الله عينته نائبا والشايب محمد عباس الذي رافق نائبي العياشي. كان الضابطان يقضيان فترة تأقلم. قاد فريقي الهجوم على التوالي عبد الرزاق بوحارة وقائد الفيلق شريف براكتية وسليمان المدعو حايفة والصالح بوشقوف، أما سليم سعدي فتلقى الأمر بالهجوم على مركز خميسات الواقع خلف مركز الحمري.

تمّ تدعيم القوى المجنّدة للقيام بالهجمات بوحدات أحضرت من فيالق مختلفة : الفيلق الثالث عشر والخامس والعشرين و السابع والعشرين والحادي عشر والثاني عشر وحدات أخرى.

بعد تنظيم القوى، حدّدنا موعد الهجوم على الساعة الواحدة ليلا. كان القمر مكتملا والنجوم تسطع في سماء صافية يزيدها الصمت المخيم سحرا. لكن للأسف، كان الخطر يحدق بنا وكنا نتجه نحوه دون أن نعلم ما كان ينتظرنا. كلمّا اقتربنا من الهدف، كلّما بدت كتلة قاتمة واضحة أمامنا ثم بدأنا نرى الجدران بجلاء. سهّل عليّ ضوء القمر تركيب القطع المدفعيـــة و توجيهها نحو الهدف. انتظرت لحظة إطلاق النار وفجأة لفت انتباهي إلى أنّ تشكيلة هامة آتية وراءنا جاءت من الفجّ الذي كنا قد مرّينا من خلاله والمؤدي إلى مركز الحمري. لم نحدّد هوية أولئك الجنود فاتخذت الاحتياطات الأمنية الضرورية وصوّبت عددا من الأسلحة في اتجاههم ثم اقتربت بحذر يرافقني فريق من المشاة مستغربا لأنّ لا أحد غير الفرق الهجومية ورجالي كان سيتبع طريق الفجّ. رأيت خيالا ينفصل عن باقي الجنود ويسير نحونا. لاشك أنّ الأمر يتعلّق برجالنا. تعرفت على نائبي العياشي والقلق يراوده كونه تخلّف عن الموعد. نظرت إلى ساعتي. لم يبق سوى خمس عشرة دقيقة على بداية فتح

النيران. اخبرني العياشي بأنه لم يكن لوحده وأنّ العناصر التي كان يتعيّن أن يدلّه على موقعه ضلتّ السبيل ففضّلوا أن يقتصروا المسافة بالمرور من الفجّ بعد أن ضيّعوا وقتا طويلا بحثا عن طريقهم. قرّرت أن امتنع عن فتح النار كما كان مفروضا وتركت له المبادرة حينما يلتحق بموقعه. ما فتئت أرجع إلى مكاني حتى ارتمى إلى مسامعي صوت جرس. لقد حدث شيء في المركز ولابدّ أنّ ذلك الصوت إنذار.

دوّت مدافع 75 مم التي كان يقودها العياشي، ثم عقبتها رشاشتنا الثقيلة. بدأت مدفعية العدوّ تصّوب هدفها معتمدة على مصدر نيران العياشي. شرعت في إطلاق قذائفها على الهدف وشرعت رشاشات ومدافعي في إطلاق النار في نفس الوقت.كنا نسمع بين الفينة و الأخرى صفير القذائف وهي تقع من حولنا. لّما توقف إطلاق النار، رجعت إلى الوراء حيث وصلني صوت صراخ فوجدت الممرضين منهمكين في تضميد جراح خمسة أو ستة مجاهدين أصيبوا بشظايا قنبلة. تبادلت فرقنا الهجومية والعدوّ النيران بكثافة. اجتمعت بالرجال وأمرت المرحوم العربي لحسن بمرافقتهم إلى قاعدة الانطلاق. اتفقت مسبقا حوالي اثني عشر عنصرا على أن نلتحق بالفرق الهجومية فور انتهائنا من مهمتنا الأساسية للمشاركة في الهجوم. أمرت الرجال بوضع إشارات مميّزة فاتحة اللون على ذراعهم كان فريق الهجوم يحمل مثلها لتفادي الخطأ. الإشارة عبارة عن قطعة قماش مستطيلة ذات أربع ألوان مثلثة.

جاءني رجل في منتصف الطريق من القاعدة النارية للعياشي ففهمت أنّ مجموعته قد تكبدّت خسائر كبيرة لأنّها كانت قريبة من المركز. أخبرني الرجل أنّ العياشي بن جديد أصيب بجروح خطيرة وأنّ نائبه سناني عبد الله قائد مدافع 75 مم تمكّن من التراجع مع الجرحى والعتاد. دمّر مدفع 75 مم تماما. كان ضابط الصف مرتبكا، قال لي مرتجف الأوصال : " العياشي لا يزال في عين المكان". أمرت قائد مدافع 57 مم عبد الله بشاني بمرافقتي لكنني أخطأت لّما

أمليت على باقي الرجال بمواصلة السير من دوني ظنّا مني أنّ العياشي كان لوحده. لمّا وصلت إلى عين المكان، كان العياشي قد انتقل إلى رحمة ربّه ومعه الضابط شايب محمد عباس ونائب قائد مدافع 75 مم. كان عباس يبدو تحت ضوء القمر.

وكأنّه ينام قرير العين ملقى على ظهره. كان الشهيدان الآخران ملتويين على نفسيهما ربّما من شدّة الألم قبل أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة. اقتربت من العياشي وحاولت حمله فتوغّلت يدي في جرحه. كان العياشي ممزّقا بفعل شظية قذيفة. ألقيت الجثة الهامدة حيثما كانت ببطئ ونزعت يدي وهي تسيل بدم الشهيد، ثم رحت أنظر المكان من حولي فرأيت حفر القنابل منتشرة. تساءلت في قرارة نفسي كيف تمكن الآخرون من النجاة من نيران مركّزة ومكثفة إلى تلك الدرجة. حاولت مع بشاني نقل الجثث الهامدة لكنني سرعان ما لاحظت أنّ ذلك لم يكن بوسعنا. تركت بشاني في عين المكان واتجهت نحو الطريق غير المعبّدة المؤدية إلى الفج وفكّرت أنّ فرق الهجوم التي باشرت تراجعها ستساعدني على نقل قتلانا، غير أنّها كانت هي الأخرى منهمكة في نقل الجرحى. عدت على أعقابي وحاولت مع بشاني نقل الشهداء الثلاثة ثانية. عندما لاح الفجر في الأفق، كنا قد تقدّمنا بمئة متر فقط تحت ضوء الحباحب التي ما انفكت الطائرات تلقيها فوقنا. عند طلوع النهار أخفينا الجثث في تلعة ثم أسرعنا إلى الفج إذ بدأ وابل من قذائف عيار 60 مم يصبّ حولنا. لمّا اجتزنا الفج الذي كان يحمينا من أنظار العدوّ، كانت الشمس قد أشرقت.

ولّيت وجهتي نحو الكتيبة الثالثة التابعة للفيلق التاسع والثلاثين تحت قيادة الصالح المدعو نهرو. كان بن سالم في انتظاري يساوره القلق. أخبرته باستشهاد العياشي. نظر إلى يداي الملطختين بالدم فحنى رأسه ثم طلب مني أن أركن إلى الراحة. كان العياشي ينشط إلى جانب بن سالم قبل الالتحاق بوحدتي. أخفى بن سالم حزنه العميق لفقدان رفيقه بصعوبة إذ كان يعزّ هذا الإطار كثيرا

ويعتبره كابنه. كانت صورة العياشي تلوح بين عيناي كلّما حلّ الليل فينتابني الأرق. يعزّ علينا دائما فراق رفيق ومع ذلك فموت العياشي لم تتحوّل إلى كابوس ربّما لأنني تلطخت بدمه الطاهر لّما حملته على مدى ساعات حتى أنقله إلى مثواه الأخير ولعلّ ما زادني حرنا أنني شعرت بالذنب إذ لم أستطع نقل جثمانه فتركته للعدوّ هناك حيث سقط شهيدا.

لم تكن النـــتائج في مركز القوارد تدعو للمدح ذلك أنّ هدفنا كان يكمن في احتلاله تماما فمنينا بالفشل. صحيح أنّ ذلك المركز كان مهـــــيّأ و منظّما للصّمود أمام أكثر الهجمات ضراوة. ظننا أنّنا وضعنا كلّ فرص النجاح من جهتنا لكنّنا أخطأنا. صمّم مركز القوارد و زوّد بعدّة معاقل مبنية بالأسمنت بحيث يصمد أمام كل أنواع الأسلحة. كانت المعاقل تلك تحيط بالمركز وأقيمت في أماكن عالية على مسافة متساوية من المركز الرّئيسي، بني أبعدها عل مسافة ثلاثين مترا تقريبا.

تربط المعاقل بالمركز الرّئيسي مصائرمغطاة ومعزّزة بالإسمنت. تسمح هذه الخنادق للجنود الفرنسيين بالتقهقر في حالة ضغط قصوى، وذلك ما حدث في تلك الليلة إذ وصل المجاهدون إلى غاية الجدران بعد أن استولوا على أغلبية الملاجئ لكنّهم لم يتمكّنوا من احتلالها. السّلاح الوحيد الناجع في هذه الحالة، سلاح تقليديّ كان يتمّ صنعه في الحدود الغربية وهو ذو عيار كبير قادر على دفع قذيفة متفجرّة تزن عشرة كيلوغرامات على مدى كيلومتر تقريبا.

وهذا السلاح هو الوحيد الذي نجح في إحداث ثغرات إذ تلقّى الجنود الفرنسيون المحتمون في المركز عددا كبيرا من القذائف تسبّبت في إضرام نيران كان يمكن مشاهدتها من بعيد. لاشك أن العدوّ كان يتوقع هجوما من هذا النوع وإلاّ فكيف نفسّر كون بطاريات مدفعية بورنان وضعت في مكان آخر بهدف مباغتتنا ؟.

لم ينجح في المهمّة سوى الفيلق التاسع عشر الذي احتّل مركز خميسات. آثر سليم سعدي ألاّ يعتمد على المدفعية قصد الاقتراب من الخط بصمت حتى يباغت العدوّ. كانت مناورة سعدي الأفضل إذ نجح في قطع الأسلاك قبل إطلاق النار بكثير وما إن انطلقت أوّل عيارات 75 مم حتى راح يهاجم مفاجئا الجنود النائمين فيما كانوا يتخذونه متاعا لنوم أسّر فريق الهجوم عددا من الجنود واستولى على أسلحة من بينها رشاش هوتشكيس.

تدخّل جنود كانوا في الاحتياط فتحول العراك إلى مقابلة جسد لجسد رميت خلاه قنابل يدوية عديدة. لمّا لحق بفريق الهجوم خسائر كبيرة، تراجع ونقل معه الجرحى والأسرى والعتاد الذي تم الاستيلاء عليه. راهن سليم سعدي على فريق مشكّل من الإطارات في غالبيته الشيء الذي يفسّر جزئيا نجاح الهجوم لولا العدد المرتفع من الجرحى في صفوفه. ولقد أصيب سعدي ونائبه سعيد المدعو أند وشين يومها بجروح على غرار الكثير من رجاله، في حين لقي أحمد وارد المدعو الوهراني أحد أكفإ قادة الكتيبة مصرعه بعد أن مزّقت شظية قنبلة يدوية بطنه، توفي يومين بعدها في المستشفى. فقد الفيلق التاسع عشر في شخص الشهيد الوهراني ضابطا شجاعا وباسلا.

سبق لي أن عملت مع الفيلق التاسع عشر قبل الهجوم على مركزي القوارد والحمري وكان لا يزال تحت قيادة سليم سعدي. جهدنا في تنصيب الكمائن للطائرات أملا في إسقاط بعضها لكننا لم ننجح مع أنّنا بيّننا للعدوّ عدم نجاعة سلاحه الجويّ.

كنا ننشر رشاشاتنا في مخابئ في شكل ثقب القارورة أو في أماكن مهيئة، فننـــتظر بهدوء وصول الطائرات التي كنا نجلبها نحونا بواسطة فخاخ غالبا ماكان الطيارون يتدربون عليها. كانوا يستعملون حيوانات داجنة أحيانا ما إن ترى الطائرات "الطّعم" حتى تقترب فتقع في نيران رشاشاتنا فتعود بسرعة فتحلق على علّو مرتفع لترصّدنا أو انتظار تدخل طائرات ب 26 القادرة على الصمود في وجهنا بفضل صفائحها المدّرعة ونجاعة أسلحتها.

استهدفت هجوماتنا كذلك مركز عين الزانة الذي كنا نناوشه باستمرار دون صعوبة بواسطة مورتر 82 مم. كان كف الجرداء بالنسبة إلينا موقعا ملائما للقيام بما سميّ عسكريا "إطلاق النار من فوق الحاجز" بحيث يشكل هذا الأخير زاوية ميتة للعدوّ الشيء الذي كان يدرأنا من أي تدخّل بواسطة الأسلحة ذات التصويب المقوّس. تشرف الشعفة الحجرية التي يبلغ علوّها عشرة أمتار تقريبا على منحدر يهبط إلى غاية واد المجّردة المحاذي لخط السكة الحديدية المؤدي إلى مدينة سوق أهراس ويتجاوزها إلى الأراضي التونسية. كنا نحمل معنا أكبر عدد ممكن من القذائف نحضّرها مسبقا ونضعها قرب المورتر بإحكام. كنا نتصرف كذلك لأنّنا كنا ندري بأنّ الصخر العالي يضمن لنا الحماية المطلقة. كنا نستعمل بطارية من ست أواثنتي عشرة قطعة أحيانا وكانت قطعتان موضوعتان بالتوازي تكفيان لربح الوقت عند ضبطها بهدف تصويب باقي القطع نحو الهدف بأكثر دقة.

اتجهت فصائل المشاة نحو المركز للمناوشة والترصد والحيلولة دون خروج العدوّ منه. عندما شرعت مدفعية العدوّ في إطلاق النار من عين الزانة ومركز تارات الموجود في الخلف، عجزت عن إصابتنا تماما إذ كانت القنابل تلتطم بالمنحدر الصخري أو أسفله فتنفجر بعيدا عن مواقعنا. وكأننا كنا في تدريب إذ كنا نأخذ متسعا من الوقت لتصحيح تصويبنا.

كنا نفضّل تكرير مثل هذه العمليات بسبب نجاعتها وانعدام الخطر تماما بالنسبة إلينا. كنا ننتظر في عين المكان ونأخذ من أجل ذلك ما يلزمنا من وقت فنترك العدوّ يستنفذ ذخيرته حتى لا نصاب عند شروعنا في التراجع.

عند العودة، وصلنا أوّلا إلى واد المجردة وسرنا بمحاذاته على خط السكة الحديدية إلى أن اقتربنا من موقع انطلاقنا. كان السير على السكة منهكا جدّا إذ كان يجب ضبط الخطوات بين الأجفة المتقاربة جدّا. كنّا نبدو و كأنّنا ريّاضيون يتنافسون في مسابقة المشي.

مازلت في واد الزان عندما لحق سوء بالفيلق التاسع عشر في مكان كنت أعرفه جيدا وهو نفق يتخلّل السكة الحديدية كان يسمح للجنود الفرنسيين في حالة عدم احتلاله من قبل المجاهدين بالوصول إلى معظم وحدات فيلق سليم سعدي.

كان يجب على رجاله أن يحتلوا النفق باستمرار للحيلولة دون مهاجمة العدوّ لفيلقه. أوكلت مهمة مراقبة الممر يومها إلى إحدى فصائله وكان من العادة أن يتموقع جندي على التل المشرف على النفق ليراقب ماحو له تفاديا لهجوم مباغت للعدوّ. لكن الحارس لم يكن في المكان المناسب ولم يستطع ملاحظة تحرّكات الجنود الفرنسيين إلاّ بعد أن اقتربوا من النفق فأعطى إشارة الإنذار بعد فوات الأوان.لم يكن بين يدي الفصيلة متسع من الوقت لاحتلال موقع ملائم ولم يكن يسعها إلاّ أن تقطع الواد على بعد عشرة أمتار من النفق. لجأ قائد الفصيلة ورجاله إلى جبل وعر لكنهم لم يستطيعوا تسلّقه فاحتموا وراء الأعشاب اليانعة قرب الواد.

لم تتمكن الفصيلة من تفادي الوقوع في اشتباك مع العدوّ الذي حضر بأعداد هائلة. لم ينج من بين الستة والثلاثين مجاهدا من مجاهدي الفصيلة سوى واحد أصيب بجروح استطاع مع ذلك أن يطلق إشارة الإنذار لكن الأوان كان قد فات. الفصيلة التي لم يكشف العدوّ وجودها في النفق بعد، أوّل من بدأت في إطلاق النار في الوقت الذي كان فيه جنود العدوّ منتشرين في مجموعات صغيرة. يبدو أنّ قائد الفصيلة كان يريد إلحاق خسائر كبيرة بالعدوّ إذ علم بأنه محاصر فأصابت الطلقات العديد من الجنود. انتقلت إلى عين المكان فيما بعد رفقة سليم سعدي فلاحظت شجرة تدرّأها ملازم وجنود ثلاثة مقطوعة تماما بفعل قذيفة بازوكا حسب ما أطلعنا به الناجي المجروح.

كانت الأرض مسقية بدماء الشهداء والجنود الفرنسيين ممّا كان يدّل على شراسة المعركة. لقد ضحّى مجاهدو الفصيلة بأغلى ما يملكون بصمودهم

المستميت في وجه العدوّ حتى أنّ الضابط الفرنسي عبّر عن إعجابه ببسالتهم بأن صفّ جثثهم دون التنكيل بها ودون أن ينزع عنها الزي العسكري.

وضع الفرنسيون جثة قائد الفصيلة بعيدا عن الجثث الأخرى لعلّهم عرفوا صفّه من بندقيته. تم العثور على هؤلاء الرجال الذين سقطوا في ميدان الشرف من قبل الإسعافات ولكنّها وصلت بعد فوات الأوان.

لاحظا جميعنا خلال مختلف العمليات التي خضناها أنّ من بين الأضواء الكاشفة التي أقامها العدوّ قرب الخط، كان ضوء خنقة عون أكثر الأضواء فعالية إذ كان يشكل صعوبات جمة لرجالنا الناشطين في تلك النواحي. فكلّما اقتربت عملية إلاّ ورأيت الجنود والمسؤولين يتحدثون عنه لكن ليس تخاذلا، بل فقط بحثا عن طريقة مواتية للاقتراب من الخط دون أن يكشفنا العدوّ. كنت عالما بوجود ذلك الضوء الكاشف وداريا بمدى صعوبة الاقتراب منه. حاولت يوما مهاجمته بالمدافع غير المرتدّة عيار 75 مم. قرّرت بمعية مسؤولي الفيلق الثالث عشر أن أنظّم عملية في الأماكن المجاورة التي كانت تضم معظم المراكز المحيطة بخنقة عون.

صمّمت العملية بحيث يتم تضليل العدوّ على نطاق واسع. انتقيت من بين الرجال أفضلهم دراية بمدفع 75 مم، لا يحضرني اسمه لكنني أتذكر أنّه مهاجر أرسلته فيدرالية فرنسا. إذا أطال الله عمره فأعتقد أنّه سيتعرّف على نفسه من خلال هذه الرواية. لّما كان الإقتراب من الهدف عسيرا، تركت مبادرة إطلاق النار لنفسي بمجرّد أن تسنح الفرصة. للوصول إلى الضوء الكاشف، كان يجب قطع مرحلتين من المشوار أولاها سهلة نسبيّا. كان الضوء موضوعا على مرقب شيّد على أكبر مرتفع في غابة خنقة عون في النقطة 203 .

قطعنا وادين دون صعوبة سمحا لنا بإخفائنا عن أنظار العدوّ فبلغنا قطعة أرض مسطحة كنا نرى منها تخم الغابة في البعيد. كنا معرّضين مباشرة إلى الضوء الكاشف.

كانت الخطة بسيطة إذ كان يجب علينا أن ننبطح كلّما وجّه الضوء صوبنا فاقتربنا شيئا فشيئا مع العلم أنّه كان يجب ألاّ نتدخّل قبل أن تبلغ المسافة بيننا وبين الهدف حوالي ستة مئة متر حتى يتسنّى لنا إصابته. كانت المدافع مزوّدة بنظام يسمح بالروية ليلا بفضل مصباح صغير موضوع داخل النظارة الموجّهة، بينما يكون التسديد سهلا عندما يكون الهدف مضيئا. اقتربنا من الهدف وسارعنا في تصويب المدفع وأطلقنا النار. لم يعد التمويه يجدي نفعا فبدأت طلقات التضليل تدوّي وانتهزنا الفرصة لضبط التسديد فأصيب المرقب من الوهلة الثانية وتلاه الضوء الكاشف فانطفأ على التو ولم يمنعنا الظلام من إطلاق قذيفة رابعة في نفس الاتجاه. عند نهاية المهمة، وزّعت قطع المدفع على الرجال ورجعنا إلى قواعدنا سعداء بما أنجزناه. في الغد شاهدنا العدوّ وهو يضع ضوءا كاشفا بواسطة مروحية أحضر على عجل لتعويض الضوء الذي هدّمناه.

على رأس الفيلـــق الخامـــس والعشريـــن

تلقّيت الأمر من قيادة الأركان العامة بالتخلّي عن قيادة الكتيبة الثقيلة للمنطقة لمسؤول آخر و قيادة الفيلق الخامس و العشرين للمنطقة الشمالية. نشطت هذه الوحدة المنبثقة من التشكيلات الجديدة المكوّنة في مدرسة ملاّق قرابة سنة في قطاع جبل الفدّان الموقع القديم للفيلق الثالث عشر لّما كنت نائبا عسكريا في صفوفه. صعّب من مهمّة الفيلق بعد خط شال وتضاريس المنطقة التي كانت كثافتها تسمح للجيش الفرنسي بالتوغل فيها فبات من الضروري في أعين القيادة إجراء تغييرات على رأس هذه الوحدة. عيّن إلى جانبي طراد صالح المدعو الورجيني و أحمد جنوحات، الأول كان نائبا عسكـــريا و الثاني نائبا للاستعلامات و الاتصالات. إنّ جنوحات اليوم جنرال متقاعد.

أرى أنّ قلّة الفعالية التي أبدتها الوحدة إنّما هي متصلة بعدم التحكم في الميدان ونقص الخبرة لدى عناصرها المشكلين في أغلبيتهم الساحقة من المجنّدين الجدد. غير أنّ يوسف بوبير قائدها كان له باع طويل في شؤون القتال إذ نشط في المنطقة الأولى قبل وصولي. مرّ زمن قصير واقترحت على القيادة أن تعيّنني في قطاع أقرب إلى الخط حيث أنّ وجودنا بجوار العدوّ يسمح لوحدة من هذا القبيل بتشديد الضغط عن طريق عمليات مخطّطة ذلك أنّ الهجمات المباغتة التي واجهها من سبقني لم يكن يمكن التحكم فيها سوى بالاعتماد على رجال ذوي حنكة. بعد أن شرحت كلّ هذه الأسباب، جاءني الردّ بالموافقة فعينت مع وحدتي الجديدة في منطقة تدعى "منقار البطّ". أخذت موقع الفيلق الثاني عشر عينه تحت قيادة علي بوخضير و نائبه العسكري لكحل عياط مجدوب وهو اليوم جنرال متقاعد.

كان موقعي الجديد يتوسّط الفيلق السابع عشر تحت قيادة ذيب مخلـــوف و الفيلق السادس و الخمسين بقيادة عمّار شكاي وكانت الجبهة تمتد بين مراكز برجيلات التابعة لي شمالا باتجاه عين الكرمة ومركز تارات باتجاه

سوق أهراس جنوبا، يحدّها في الخلف الشريط الحدودي التونسي الواقع بين التخوم الجنوبية لجبل الوسط يمينا و القمم الجبلية الثلاث التي كان الجنود الفرنسيون يسمونها "العذراوات الثلاث" يسارا. كان العدوّ يطلق هذا الاسم على تلك القمم لأنّه لم ينجح أبدا في الوصول إليها مكتفيا بإطلاق النار من بعيد.

وتعود آخر محاولة لبلوغ هذا الهدف المنيع إلى ما قبل وصولي حيث وجد العدوّ في وجهه الفيلق الثاني عشر الذي صدّه ففشلت المحاولة كسابقاتها على الرغم من تجنيد اللفيف الأجنبي الذي كان يعدّ من أحسن ما يملك الجيش الفرنسي. ألحق عناصر علي بوخضير خسائر جمّة بالفرنسيين فاضطرّوا إلى الانسحاب تاركين موتاهم وراءهم.

عندما اخترت هذا المكان، كان قصدي بيّنا ذلك أنّني فكّرت في إقامة الوحدة في قطاع لا يمكن للعدوّ أن يصل إليه وإخضاع رجالي إلى نيرانه الكثيفة بشنّ عملية استفزازية في وضح النهار بهدف الاعتياد.

كانت الخطة تكمن في تحضير مواقع حصينة تسمح بمواجهة نيران العدوّ كلّها وتدبير عملية وتنفيذها بحيث يدفع الجيش الفرنسي إلى الردّ فيتعوّد جنودنا بالتالي على ضربات العدوّ. اخترت أهدافا ثلاثة صوّبنا نحوها كلّ الوسائل النارية التي بحوزة الفيلق في حين أوكلت مهمة التغطية الجوية إلى الكتيبة الخامسة المزوّدة بالرشاشات الثقيلة يقودها مختار كركب. الأهداف الثلاثة هي مركز خبوشة على النقطة 484 قرب مشطة ريحانة انطلاقا من قرون عائشة وبوحجار و برجيلات انطلاقا من واد سليانة. أخذ الجنود غير المشاركين في العملية مواقعهم في خنادق على شكل "ثقب القارورة" وأنيطت إليهم مهمة التصدي للطائرات بأسلحتهم الفردية.

وقع اختياري على المرتفع العسكري المطلّ على مجمل النظام الدفاعي للعدوّ على طول خط شال، فالمرتفع في حسبي كان المكان الوحيد الذي يسمح ببلوغ مركز خبوشة وهوعبارة عن مرقب طويل من الإسمنت المسلّح تحيطه معاقل عدّة. كان الجنود الفرنسيين يركنون إلى الراحة بداخله في أماكن منيعة مخصّصة لذلك.

ساعدني في الاختيار نائبي المرحوم صالح طراد المدعو الورجيني وسنائي عبد الله، أحد العناصر القديمة في وحدتي الثقيلة السابقة وقد جاء لتعـــزيز صفوفنا ومعه مدفعان 75 مم يبلغ مداهما نصف المقوّس 000 7 متر. كلّف المسؤولان باستعمالهما في حين عكفت أنا على ضبط تصويب المورتر عيـــار 82 مم ليس بعيدا. عندما ضبطت سلاحي على أقصى مدى لاحظت أنه كان ينقصني حوالي مئة متر لإصابة الهدف. توقفت لحظة ورحت أشاهد تصويب مدفعي 75 مم فترامى إلى مسامعي دوّي انفجار قذائف المورتر عيار 120 مم في برجيلات وبوحجار. كانت بطارية المورتر الثقيلة تحت قيادة الضابط فراحي رمضان. لم يكن تغيير موضع المورتر سيجدي نفعا فحاولت اعتماد خطة قديمة نقلها النقيب زرقيني عن الفرنسيين في حربهم ضد الهند الصينية. كانت الحيلة تكمن في تقليص حجم مركن الإطلاق بكبّ قليل من الماء ما يزيد في قوّة القذيفة بخرطوشة الدفع. هذه الطريقة المحظورة وغير المقرّرة في التدريب، تعرّض مستعملها إلى انفجار مطلق المورتر عندما تخفّض كمية الماء المستعملة حجم المركن بشكل كبير فتكون العاقبة انفجار الأنبوب وتحطيم سادن القطعة. قرّرت اللجوء إلى هذه الطريقة إذ لم يكن لديّ خيار آخر فطلبت إحضار دلو مملوء بالماء. أبعدت عددا من سوادن القطعتين وكبّبت بحذر قطرات من الماء في الأنبوب ثم أمرت الرّامي الذي يمسك القذيفة فوق المدفع بأن يسرّبها إلى الداخل فانطلقت القذيفة و تنفست الصعداء لّما رأيت أنّ الأنبوب لم يتحطّم. سررت لرؤية القذيفة تقع على الطريق وراء الهدف فرحت أضبط على التو الارتفاع المناسب لإصابته فكانت النتيجة أن وقعت القذيفة في قلب المركز.

اعتمدت نفس الطريقة بالمورتر الثاني وأمرت بالمرور إل الرمي الفعّال. بات الهدف محجوبا بدخان قاتم كان يتميز عن الدخان الفاتح الصادر عن القذائف ذات الشحنة الجوفاء لمدافع عيار 75 مم.

بدأت الطائرات تقترب حلّقت في البداية فوق الأهداف المستهدفة من دون الشك لتحديد مواقع قطعنا التي ترصدها المستطلعون. سمح لنا ذلك بمواصلة إطلاق القذائف مع تمرير الماسح داخل الأنابيب لتنظيف الفسالة التي

يتركها بارود الشحن المستعملة تفاديا لتقليص مدى المورتر. عندما شرعت رشاشاتنا في إطلاق النار، كنا قد انتهينا من إطلاق القذائف فركضنا لنحتمي و أسلحتنا.

تم اختيار ساعة بداية العملية بحيث تتواصل المعركة إلى أن يحل الليل على أن تدوم ساعتين على الأقل. تدخلت المدفعية وتلاها الطيران فتصدّى لها المجاهدون بالبنادق الرشاشة و الأسلحة الفردية مبتهجين وهم متكؤون خلف مخابئ مهيئة جيدا تدرأهم من نيران العدوّ. كفّت المعركة في وقت متأخرّ من الليل. كانت السماء تتوهّج بالحباحب التي كانت توجّه نيران العدوّ على اختلاف أسلحته.

كانت الأضواء الممتزجة بوهج رصاصاتنا المنيرة ووهج القنابل المحرقة و النابالم اللذين استعملهما العدوّ توحي بالأسهم النارية الجميلة والمؤذية في نفس الوقت.

تفقدت الوحدات بعد استتباب الهدوء فقرأت على ثغر الرجال علامات الفرحة و الفخر لما أبلوه ليس فقط بتصديهم لضربات الجيش الفرنسي بل بإفشالهم أسلحة العدوّ العديدة اختلافها. شعرت مذ ذاك اليوم بالثقة تعتلي نفوس المجاهدين وبدا لي ذلك جليا من خلال التحدث إليهم مباشرة أو إلى مسؤوليهم. باتت المناوشات غير منقطعة ولم تكن ردّات فعل العدوّ بمثل تلك الشراسة مع أنّه اتخذ إجراءات احتياطية إضافية وأقام أنظمة جديدة أكثر فعالية باعتماد الرادارات الموجهة للمدفعية "رازورا". لاحظنا طوال تواجدنا في المنطقة علم الفرنسيين يرفع فوق خبوشة فساورتنا الحيرة علما أنّ الجيش الفرنسي لا يستطيع القيام بذلك كونه هدفا سهلا لنيران أسلحتنا. تمعّننا الملاحظة ففهمنا الخدعة إذ كان الجنود الفرنسيون يرفعون العلم وهم بداخل المعاقل لايبرحونها. لقد وجد العدوّ وسيلة للتهكّم لكن بطريقة لا تشرّفه قطّ.

منذ تلك المعركة، غير الفيلق الخامس والعشرون موقعه تماما ذلك لأنّ التجربة التي عاشها عناصره معا علّمتهم الثقة بإمكاناتهم وكفاءات إطاراتهم

وأصبح الفيلق مذ ذاك يتصرّف على غرار الفيالق الأخرى. يقي الفيلق الخامس والعشرون تحت قيادتي إلى غاية إحرازنا للاستقلال في نفس القطاع المشهور بكونه أقل القطاعات أمنا. كان سلوك الرجال خلال المناوشات مثاليا. كانت المحادثات على أشدّها، أظنّ أنّنا كنا في المرحلة الأخيرة منها لكن هذا لم يمنعنا عن مواصلة القتال بل و تكثيفه.

تلقينا أمرا من المنطقة عشية الاستقلال يقضي بشن عمليات تمتد من السادس إلى الثالث عشر مارس 1962. ولقد تواصلت المعارك بعد اتفاق وقف إطلاق النار لأنه كان يجب علينا احتلال مواقع استراتيجية إزاء الفرنسيين. جربنا خلال تلك الفترة ثلاثة أنواع جديدة من الأسلحة : مدافع عيار 122 مم و 85 مم مداها 12 و14 كلم على التوالي وقاذفات اللهب التي استعملتها وحدتي لأوّل مرّة ضد المعاقل الفرنسية و لم تستعملها بعدها. تفاجأ العدوّ بهذا السلاح الفتاك ففرّ بمجرّد إطلاقنا الشرارات الأولى من اللهب وهو خليط من البترين والهلام، تاركا مواقعه شاغرة مهجورة. انكبت بطارية مشكّلة من أربعة مدافع 122 مم على تدمير مركز عين الزانة في حين وزّعت مدافع 85 مم على عدّة وحدات.

تعزّزت شخصيا بمدفعين من هذا النوع تحت قيادة ضابط الرمي زين العابدين حشيشي وهو اليوم جنرال متقاعد.كان المدفعان ذا فعالية عالية. باشرت رفقة حشيشي بضعة أيام قبل تلقّينا الأسلحة الجديدة عملية استطلاعية لتحديد موقعا للقطعتين اللتين توجّب رفعهما بواسطة حبال إلى قمة جبل تمّ اختيارها لهذا الغرض. أتذكر أنني انتقيت مركزين هما تارات وحمام بني صالح. حاولنا موقعتهما على خريطة لتحديد معطيات التصويب فتمّ تدمير مركزي المدفعية في ليلة السادس مارس. حطّم مدفع في مركز تارات وقتل أربعة جنود فرنسيين ناهيك عن الجرحى. تلقينا هذا الخبر بفضل مصالحنا المتخصصة في التنصّت. أمّا الخسائر التي لحقت بـــمركز بني صالح فرأيتها بعيني في المساء، لأنّ المركز يومها لم يردّ على هجماتنا من موقعه الأصلي. ذهبت إلى عين المكان بعد الاستقلال فلاحظت حسب مواقع المدافع الفرنسية أنّ العدوّ بوغت

باستعمالنا لمدافع ذات المدى الطويل لأوّل مرّة. وكانت الثقوب التي خلّفتها قذائف مدافع 85 مم تبيّن بوضوح أنّ الجيش الفرنسي تكبدّ يومها خسائر جمّة.

تلقيت من أجل تدعيم العمليات، تعزيزات مكوّنة من جزء كبير من وسائل الكتيبة الثقيلة الخامسة للمنطقة علاوة على مدافع 85 مم، فلقد كان بحوزة الكتيبة الثقيلة مدافع مضادّة للطيران ألمانية الصنع عيار 20 مم يقودها مختار كركب وهو حاليا عقيد متقاعد. حصلت كذلك على بطارية مورتر ثقيلة عيار 120 مم تحت أوامر الضابط فراحي رمضان، نقيب في الجيش الوطني الشعبي أحيل على التقاعد مبكرًا لأسباب صحية بحتة. أخذ الضابط وقد عزّزته بمدفعين عيار 85 مم موقعا في قرية بوحجار مكث بها إلى غاية 13 مارس 1962. كان فراحي مسؤولا على مركز برجيلات وقرية بوحجار وقد لاحظ في اليوم الأوّل أنّ المسافة لا تبعده عن مركزي برجيلات الأوّل والثاني سوى بموصل من البارود يتم إيصاله بالقذيفة لرفع مداه. في الأيام الأخيرة، كان فراحي يحضّر قذائفه على نصفين أحدهما لا يتوفر على موصل البارود وكان يجد متعة في مزجهما إذ كانتا تصيبان المركزين بالتناوب.

في الوقت الذي كنت ألاحظ فيه الطيران يتدخل ضد وحدة مجاورة تابعة للفيلق السادس والخمسين تحت قيادة عمار شكاي، رأيت طائرة من طراز ت 28 تتقصّف تحت نيران رشاشات 12,7 مم عندما كانت تنقضّ.

كان الرشاش تابعا للكتيبة الثقيلة للمنطقة التي يقودها عبد المالك قنايزية الذي شغل منصب قائد أركان الجيش الوطني الشعبي وهو سفير حاليا. في أحد الأمسية، أصابت قذائف 120 و 75 مم ثكنة في بوحجار فلتهمتها النيران تماما. في الغد، تلقيت غرضا عن مصالح التنصّت مفاده أنّ سبعا وثلاثين جنديا فرنسيا لقوا حتفهم. عندما تنقلت إلى القرية غداة الاستقلال، كانت جدران الثكنة التي اعتلتها النيران فتركت دخانا قاتما لا تزال تحمل وصمة الهزيمة الفرنسية.

قاد أكثر المعارك شراسة نائبي العسكري الورجيني برفقة الكتيبة الثانية تحت قيادة المرحوم محمد سهيلي المدعمة بمدافع 57 مم وقاذفات اللهب والبازوكا. تمّ خلال المعركة الطاحنة تدمير المراكز المستهدفة التي هجرها الجنود

الفرنسيون بمجرّد أن لاحظوا استعمال المجاهدين لقاذفات اللهب. سمح ذلك لنائبي بالالتحاق بطريق غير معبدّة خلف الخط المكهرب فزرع فيهاالألغام. في الغد شاهدنا سيارة من سيارات العدوّ وهي تنفجر فوق لغم من الألغام التي تمّ زرعها في الأمس.

عرف طراد صالح الذي عمل إلى جانبي لمدّة طويلة بشجاعته وإيثاره ومن سوء الصدف أنّه سقّط برصاصة أحد إخوانه في الكفاح الذين انشقوا مع جبهة القوى الاشتراكية. كان طراد يجري وراءه لإقناعه بالكف عن إطلاق النار على رفقاء الدرب فاختفى المنشق وراء شجرة وصوّب سلاحه باتجاه طراد فأرداه قتيلا.

نجح سير العملية التي كنت أتابعها من موقع ليس بعيد بمعية حشيشي وبعض الجنود في مرحلته الأولى أي الهجوم. كان التراجع بالنسبة إلي كابوسا حقيقيا. لم تستطع أرتال وحداتنا النجاة أمام نيران العدوّ ذات الدقة الفتاكة إذ وقعت في مغبة المدفعية الموجهة بواسطة الرادارات المغناطيسية، ولّما تعذّر علينا تحديد مصدر النيران عجزنا عن الردّ على ضربات العدوّ. كنا نتتبع ماكان يجري من بعيد ونتصوّر ما حدث لرجالنا : ما إن استأنفت القافلة مشيها أو غيرت اتجاهها إلاّ واكتشفها الجيش الفرنسي فراح يقصفها بكلّ ما أوتي من مدافع. فقدت يومذاك قائد الكتيبة محمد سهيلي وعددا من المجاهدين الآخرين وجرح الكثيرون. أحصيت إلى حدّ الثالث عشر من شهر مارس ما لا يقلّ عن ستين رجلا بين قتيل وجريح وفقدت أيضا عنصرا من العناصر الذين فجرّوا الثورة في الفاتح من نوفمبر 1954 سقط تحت القنابل التي كانت تلقيها طائرات ب 29 على علوّ مرتفع.

كان هذا الشهيد من الرعين الأوّل ينتمي إلى رتل مكلّف بتموين سلاح المورتر عيار 120 مم.

حزّ إلى نفسي استرجاع جثث رجالنا المفقودين مع قائد كتيبتهم محمد سهيلي فأرسلت دوريتين متتاليتين لم تعد إحداهما بينما أخبرتني الثانية إذ بقيت

في الخلف أنّ الرجال ما فتئوا يعرّجون على رأس قرون عائشة حتى وقعوا في نيران المدفعية الموجّهة بالرادارات. لم تنقل رفاة هؤلاء الشهداء حتى يوم 19 مارس تاريخ وقف إطلاق النار.

الخسائر التي تكبدناها رغم الضربات الموجعة التي وجهناها إلى العدوّ بالإضافة إلى الخصام القائم بين الحكومة المؤقتة وهيئة الأركان العامة أسباب جعلت من يوم 19 مارس يوم حداد أكثر منه يوم نصر، فخلال المرحلة الانتقالية وبينما كنّا نغيّر معسكرنا، شاهدت جنودا يذرفون دموعا وهم مختبئين وراء الأشجار. لم يكن هؤلاء يفهمون البتة لماذا تم إقصاؤهم من فرحة الانتصار الذي هو ملك لكلّ الجزائريين وبخاصة أولئك الذين قدّموا أنفسهم قربانا للثورة.

كانت تصل إل مسامعنا بمرارة قاسية الأصوات المنادية إلى الشقاق التي كان ينادي بها مسؤولون في الحكومة المؤقتة وهم يتوجهون إلى وحدات الحدود. كان هؤلاء المسؤولون يرسلون نداءاتهم عبر أمواج أجهزة الاتصال المعتمدة في الفيالق، يدعون الرجال إلى العصيان و التمرّد على أوامر قادتهم والالتحاق بأقرب الولايات إليهم. وفي الوقت ذاته سارع أعضاء في الحكومة المؤقتة إلى العاصمة متهافتين وراء السلطة فتشكّلت مجموعات سياسية في تيزي وزو وتلمسان ومناطق أخرى من البلد. التاريخ يعيد نفسه باستمرار وذلك بأنّ الانشقاقات التي مزقت الأحزاب السياسية قبل 1954 لتلد جبهة التحرير الوطني عادت تظهر إلى الوجود في فجر الاستقلال مباشرة.

معركـــة جبـــل بوعبـــاد

تكـــلّمت بإســـهاب في هذه الروايات على جبل بوعباد الذي كنا نعتبره قطاعـــا أساســـيا للناحية الثانية والمنطقة الأولى. أرى أنّ الدور الذي أدّاه هذا الجـــبل لم يقتصر على تلك الجهة فحسب بل تعدّاه إلى جهات أخرى ذلك أنّ بوعـــباد يمـــتد إلى غاية مرتفعات بني صالح وهو يشكلّ بالتالي سلسلة جبلية حقيقية اعتمدها العدوّ دوما لشن العمليات ضدّنا. وضع بوعباد تحت مسؤولية الـــناحية الـــثانية التي كان يقودها الفاضل وكثيرا ما كانت النواحي الأخرى ووحـــدات تمريـــر الأسلحة إلى الولايات الداخلية تلجأ إليه، وكان في بعض الحالات مكانا يجتمع فيه المجاهدون لمواجهة العساكر الفرنسيين خلال عمليات التمشيط. جعل اتساع الجبل ووعورته وصخوره العديدة التي يصعب الوصول إليهـــا وامـــتداده إلى مرتفعات بني صالح من بوعباد منطقة تسمح ليس فقط بخـــوض معركة على نهار بأكمله بل مناورة الرجال بسهولة والانسحاب نهارا في حالة نفاذ الذخيرة أو محاولة تطويقنا من قبل العدوّ ويبقى أنّ هذا كلّه نتيجة أكيـــدة للـــتحكم التام في الميدان وقدرة الإطارات على الانتشار ثم استجماع القـــوى من جديد بسرعة وإنّ بسالة الجنود وشجاعتهم و تفانيهم والأخلاق العالية لديهم كلّها صفات من الأهمية بمكان في هذا النوع من العمليات.

وإنني إذ ذكرت مرارا وتكرارا هذا الجبل لا يمكنني أن أكتم عددا من الاشتباكات التي جرت فيه. سأروي هاهنا معركة من المعارك التاريخية معتمدا على شهادة قائدي قطاع آنذاك هما حايفي مبروك المدعو بولحية والطاهر بوركبة اللذان أفنيا حياتهما العسكرية في الجيش الوطني الشعبي برتبتي عقيد ومقدّم. وتلك المعركة الوحيدة التي لم أشارك فيها على أنني رأيت من المهم

سردها كونها تبين جيدا مدى أهمية التحلّي ببعض الصفات لتسييرها بإحكام؛ صفات ليست ثمرة التكوين في المدرسة وإنّما نتاج الممارسة الميدانية لرجال حوّلهم إيمانهم بعدالة قضيتهم إلى مقاتلين مغوارين. ثم إنّني أسرد هذه المعركة لتخليد تاريخ هذه المنطقة وتقديم تحية إجلال لأولئك الذين خاضوها وأثنّي بالخصوص على من سقطوا يومها في ميدان الشرف وعلى رأسهم النائب العسكري لبوطرفة الفاضل، الشهيد حسين بن صغير.

أخذ قائد الفصيلة الأولى للناحية الأولى التابعة للمنطقة الأولى، حايفي مبروك المدعو بولحية موقعا مؤقتا مع حامد المدعو موستاش في المكان المسمى دريدرة الواقع في جبل رقوبة. بعدما لاحظ الرجلان طائرات هجومية واستطلاعية تحلّق في الناحية وشاهدا تحرّكات غير عادية للعدوّ، أرسلا دوريات عادت بمعلومات مفادها أنّ الجيش الفرنسي يقترب من المكان من جهات مختلفة وأنّ جزءا منه قادم من بلا ندون في شكل رتل على طول الطريق تصل مقدّمته إلى غاية كف حلّوفة متجها صوب رقوبة في حين كان رتل آخر قادما من الزيتونة في نفس الاتجاه. وكان رتل ثالث آتيا من بولطّان وقرية بحيرات الطيور وسدّ الشافية موليا وجهته نحو واد الكبير. كانت الأرتال الثلاثة تدنو من منطقة الشافية شرقا وغربا بينما كان الرتل الآتي من الشمال سالكا طريق بن مهيدي، موريس سابقا، يتجه صوب عين مقفل في صميم بوعباد. تلقى مبروك هذه المعلومة من عناصر الكتيبة الثانية الذين كانوا وحدهم من يستطعون مراقبة التحركات من الشمال.

تبادر إلى ذهن حايفي مبروك بعد تلقيه المعلومات عدد من الافتراضات قرّر إثرها الالتحاق بجبل بوعباد قبل حلول الليل. جازف مبروك إذ قطع مع فصيلته سهل الشافية في وضح النهار ظنّا منه أنّ التمشيط كان يستهدف جبل رقوبة وسهل الشافية و برقوقة وكف النسور. كان مبروك يدري أنّه سيلتحق بالفصيلة الثانية ما إن يبلغ ورجاله بوعباد حيث كان عناصرها أدرى بشعاب الجبل. التقى بولحية في منتصف الطريق بدورية تابعة للفصيلة الثانية أرسلها النائب العسكري حسين بن صغير لملاقاتهم.

أطلعت الدورية فصيلة مبروك أنّ قوافل بأعداد هائلة كانت قادمة من الشمال، ربّما من عنابة. طلب بن صغير من مبروك أن يلتحق به مع فصيلته في المكان المدعو الرجم قرب كف بني فرج.

لّما بلغ الموقع ليلا وبعد أن تناول العشاء عند مواطنين، عقد حسين بن صغير اجتماعا مع قادة الفصائل وعددها ثلاثة بالإضافة إلى فصيلة مبروك.

قدّم النائب العسكري للناحية عرضا عن الوضع السائد واعتبر أنّ العدوّ كان سيبعث بقوّاته كلّها باتجاه بوعباد نظرا للعدد المرتفع للقوافل الآتية من الشمال و الأرتال المتجهة نحو سهل الشافية. أردف بن صغير قائلا إنّه مهما كان الحال، فجبل بوعباد سيسمح بالاشتباك مع العدوّ وكذلك تحاشيه عند الضرورة ثم أضاف : " يوجد أمامنا خياران : إمّا أن نغتنم فرصة حلول الليل فنعدل عن مواجهة العدوّ وتتفرق الفصائل في الظلام، إمّا أن نواجه العدوّ على الرغم من التعزيزات الجبارة التي استقدمها". شعر بن صغير على رأس فصائله الأربع بأنّه قادر على التصدي للترسانة الفرنسية فمال إلى الخيار الثاني وأطلع قادة الفصائل على قراره فوافقوه جميعا. أمر بن صغير باحتلال المواقع في الليلة ذاتها لمهاجمة العدوّ مع طلوع الفجر و الحيلولة دون إعادة تنظيم قوّاته وإعاقة مناورتها. أخذت الفصيلة الأولى تحت قيادة عابد ولد زايدة موقعها في الحدبة بين كف سيدي فرج وعين المقفل و تموقعت الفصيلة الثانية بقيادة بوركبة الطاهر قرب عين المقفل وقد احتلّه العدوّ واحتلت الفصيلة الثالثة التي يقودها بوشريط الساسي المدعو سويسي بمساعدة بوجمعة المار وكي، كف سدي فرج.

قال بن صغير: " سأكون أنا مع هذه الفصيلة". وبما أنّ الفصيلة الأولى التابعة للكتيبة الأولى لم تكن لها دراية جيدة بالميدان، اختير لها موقع في النقطة 479 بمحاذاة الجانب الصخري لنشعة الكبار. سار مبروك في أعقاب فصيلة بوركبة المكلّفة بقيادته إلى غاية موقعه إذ كانت فصيلة مبروك تغلق الحلقة بين كف سيدي فرج والحدبة وعين المقفل.

اتضح تحليل بن صغير في الليل، ذلك بأنّ العدوّ كان فعلا عازما على تمشيط جزء من جبل بوعباد لاسيما أنّ اشتباكات جرت هنا وهناك مع

دوريات أرسلت للاستطلاع. أمر بن صغير بأن تلحق الفصائل بالجيش الفرنسي في الغد ما أمكن من الخسائر والصمود في وجهه أكبر وقت ممكن ثم الانسحاب في الوقت المناسب في الاتجاهات التالية : زرزورة بالنسبة إلى الفصائل الأولى و الثالثة للكتيبة الثانية وغمد الزانة بالنسبة إلى الفصيلة الثانية على أن تترك الحرية التامة للفصيلة الأولى التابعة للكتيبة الأولى في الالتحاق بمنطقتها عند الضرورة.

بدأ الاشتباك في الفجر وتواصل إلى أن حلّ الليل بالنسبة إلى فصائل الكتيبة الثانية وذادت فصيلتا عابد و بوركبة اللتان كانتا تطلّقان النار من النقاط العالية عن مواقعهما إلى النهاية في حين كانت فصيلة بوشريط أكثر الفصائل عرضة لنيران العدوّ إذ كانت في محوره الرئيسي.

تلا الاشتباك عراك طاحن جسد لجسد مع جنود اللفيف الأجنبي تكبّدت الفصيلة خلاله خسائر جمة انهزمت إثره واستشهد نائب قائد الكتيبة حسين بن صغير وقد أكّدت العناصر المكّلفة بنقل جثمان الشهداء وفاة النائب العسكري بشظايا القنابل اليدوية ما يدّل على ضراوة المعركة.

اضطرّ حايفي مبروك و فصيلته إلى وقف المعركة بسبب استنفاذ الذخيرة بخاصة ذخيرة البنادق الرشاشة من نوع بران إنجليزية الصنع و رشاش 29/2. وزع حايفي مبروك فصيلته على أربع مجموعات تنسحب كلّ واحدة منها في اتجاه معيّن للالتحاق بأحد نقاط الالتقاء الثلاث التي حدّدها لهم مسبقا على أن تجتمع الفصيلة كلّها في آخر المطاف بحمام سيدي طراد. بعد إعادة تموين العناصر وأخذهم قسطا من الراحة، التحق مبروك و فصيلته بالقطاع الواقع قرب دريدرة. كانت خسائرنا تعتبر ضئيلة بالنظر إلى شراسة المعركة وطول أمدها وضخامة حجم القوات التي عبأها العدوّ.

استشهد أربعة عشر مجاهدا من بينهم بن صغير وجرح اثنى عشر آخرون ينتمي معظمهم إلى نفس الفصيلة. تلقى العدوّ هزيمة نكراء في عملية التطويق و التمشيط بحيث أوقفت الكتيبة بكاملها المعركة دون الوقوع في مخالب العدوّ

كما خطّط له الجيش الفرنسي. عدّت خسائر الفرنسيين يومها بالعشرات ولم تكف المروحيات التابعة للصحة العسكرية عن نقل الموتى والجرحى طوال النهار. بلغنا فيما بعد أنّ ضابطا برتبة عقيد لقي مصرعه في معركة جبل بوعباد.

شهادات حول معركة سوق أهراس

مقدمة لشهادة محمد معارفية

التحق محمد معارفية بالثورة فور اندلاعها، تحديدا فى شهر فبراير عام 1955 لقد دخل ميدان الحرب و هو مازال فى ريعان شبابه، وكان ضمن المجموعات الأولى التي كانت تشكل وقتها " ناحية سوق أهراس " في سنوات 1955-1956. فبموجب تقسيم جديد، أصبحت هذه الناحية فيما بعد ما تسمّى بالقاعدة الشرقية على غرار باقي ولايات الوطن. ظل محمد معارفية ينشط في هذه الناحية إلى غاية 1960، ثم ذهب لإجراء تربص في تشيكوسلوفاكيا ثمّ إلتحق بالولاية الأولى إلى يوم إعلان الاستقلال. و لقد برز اسمه بوجه خاص ضمن كومندو سليمان المدعو "لاسو" وكذلك ضمن وحدة النخبة التي كان يقودها سبتي بومعراف كضابط إلى غاية الاستقلال و قد أصيب بجروح مرتين.

لقد سمح انتسابه إلى هذه الناحية، بالإضافة إلى مشاركته في العديد من المعارك، ومعرفته الجيدة للأماكن و الأشخاص الذين عاشوا معهم، بأن يعطي لنا صورة كاملة و وافية عن تاريخ نشأة القاعدة الشرقية وكذا عن العمليات التي كانت تشن بالتوازي مع تركيب الفيلق الرابع و التي تشكّل معركة سوق أهراس. و لاشك أن هاته العمليات شكلت أحد العوامل الرئيسية التي هيأت لشن الهجوم على قرية سيدي يوسف التونسية.

قبل هذا التاريخ، عرفت منطقة المواجن معارك عديدة، و لا شك أن تلك التي خاضها الفيلق الرابع بعد صدور أمر بالالتحاق بناحيتها الجديدة (غامبيطا) كانت أكبرها جميعا. و كان دخول هذه الوحدة التابعة لجيش التحرير قد جند معه أعدادا تجاوزت بكثير السعة العادية للفيلق. و كان سيواجه عدوا يفوقه

عددا عشر مرات، وأكثر من ذلك، تحميه حواجز طبيعية وأخرى اصطناعية متمثلة من جهة في وادي سيبوس ومن جهة أخرى فيما كان يسمى " خط موريس ". ولقد عرف جيدا كيف يضع هذه المعركة في سياقيها السياسي و العسكري ويدرج في حساباته الرهانات الاستراتيجية التي تنطوي عليها.

فناحية سوق أهراس التي تضم المناطق الحدودية الشرقية، لم تحمل تسمية " القاعدة الشرقية " إلا بعد اجتماع الصومام وبعد ما تمت دراسة وتحديد الجانب الاستراتيجي لهذه الناحية بالصورة التي تخدم الثورة التحريرية.

تتوفر ناحية سوق هراس بحكم موقعها على الحدود التونسية، على فضاء بري شاسع تمتد آفاقه إلى تونس و ليبيا و مصر

و كلها بلدان معروفة بوقوفها إلى جانب الجزائر و بتعاطفها مع الكفاح التحرري الذي كانت تخوضه. فهذا العمق سمح ليس فقط بالامدادات من كل نوع، خاصة بالسلاح و الذخيرة، لكن أيضا ببلورة أهداف استراتيجية على المديين القصير و الطويل، سواء كان من خلال تدويل القضية أو بإقناع كامل البلدان المغاربية بالتجنّد إلى جانب الجزائر.

لم تر قيادة أركان الجيش الفرنسي بدّا من تنفيذ حق المتابعة، لأنها كانت تدرك أن شساعة الفضاء سيكون حتما الحاجز القاتل في مثل هذا النوع من الحروب.

كتب محمد معارفية :

تمتد المنطقة التي أصبحت في أواخر عام 1956 " القاعدة الشرقية "، من القالة شمالا إلى حدود الونزة جنوبا. يحدها وادي سيبوس و الطرق الرابطة بين مدن المشروحة، لافردور سابقا، تيفاش، مداوروش، لكبيرات، عنابة ــ القالة، عنابة ــ سوق أهراس و الشريط الساحلي المحاذي للبحر من عنابة إلى القالة. و توجد بهذه الأقاليم التي يبلغ عمقها من 50 إلى حوالي 100 كيلومتر، كثير من الجبال ذات التضاريس الوعرة و الغابية (منطقة القالة، جبال أولاد بالشيخ و بني صالح، تلال (بوسسو) الجرداء وبوعمود ولوقرين والدف الجرداء

وكذلك سهول لا يحدها بصر خطرها كبير بسبب امتدادها المسطح، الفلتة شرق الونزة). في العمق، و على حدود القاعدة الشرقية، توجد جبال بوحمرة ومرتفعات ايدوغ. تعتبر هذه المناطق كلّها نقاط عبور اجبارية لوحدات التموين بالسلاح للولايات الداخلية.

هذه الناحية التي كانت تابعة في البداية للولاية الثانية، أصبحت فيما بعد " مستقلة " تحت تسمية " ناحية سوق أهراس " غداة أول نوفمبر1954.

تعاقب على قيادتها كل من باجي مختار، جبار أعمر، الوردي قتال و أخيرا عمارة العسكري (المدعو بوقلاز). مذ تحولت إلى

" القاعدة الشرقية "، صارت تكتسي أهمية استراتيجية بالغة

و أصبحت موقع المواجهة الأكثر احتداما بين جيش التحرير و الجيش الفرنسي.

كانت الوحدات المقاتلة التي احتلت فيما مضى هذه الناحية إلى غاية أكتوبر 1956 منظمة في شكل مجموعات مسلحة تسليحا ضعيفا و تعدادها كان يتراوح بين 60 إلى 200 جندي مقاتل.

و رغم كل شيء، كافحت هذه الوحدات بإقدام و شجاعة نادرين، فلنذكر أسماء أشهر القادة في تلك الفترة : علاوة بشايرية، الطيب جبار، عبد الله سلامي، محمد لصنام، سليمان قنون المدعو

" سليمان لاسو" و العملاق سبتي بومعراف. طبعا، القائمة غير كاملة. فمن غير الممكن تعداد أسماء كل هؤلاء المسؤولين الذين كافحوا ببطولة و قضوا نحبهم دون أن يسمع عنهم أحد.

من بين توصيات أشغال مؤتمر الصومام (20 أوت 1956) إقرار إعادة هيكلة جيش التحرير الوطني، وكذا إنشاء وحدات قتال عصرية ابتداء من المجموعة و صولا إلى الفيلق، و إنشاء الرتب العسكرية، و أيضا إعادة تنظيم الانتشار البري : قطاع، منطقة، ناحية و ولاية.

تكفل التقني السابق في البحرية العسكرية الفرنسية، عمارة بوقلاز، بإعادة تنظيم جيش التحرير في الشمال الشرقي و فق التخطيط العسكري الذي حدد في مؤتمر الصومام؛ كان رجلا طويل القامة، أسمر البشرة، سريع الإقناع في كلامه. هذا القائد السابق لقطاع القالة، وبمجرد أن أصبح قائدا لناحية سوق أهراس، وضع البرامج و الوسائل التي كانت ستسمح للجنة التنسيق والتنفيذ بالدخول إلى تونس سعيا وراء إعادة تنشيط العمل المسلح الذي بات يتباطأ، بل و توقف تماما في بعض المناطق بسبب الصعوبات التي برزت خلال صائفة 1956.

منذ أكتوبر1956، ظهرت إلى الوجود ثلاثة فيالق : في الشمال، الفيلق الأول تحت قيادة شويشي العيساني قائد الناحية الأولى، في الوسط، الفيلق الثاني الموكل لعبد الرحمان بن سالم قائد الناحية الثانية، الرجل الذي دمّر رفقة محمد عواشرية ثكنة (البطيحة) الفرنسية و إلتحق بجيش التحرير و معه 156 جندي مناوش. في الجنوب، يوجد الفيلق الثالث الذي كان سيقوده الطاهر رفيق زبيري، قائد الناحية الثالثة، الذي تولّى فيما بعد قيادة ولاية الأوراس.

طيلة عام 1957، لم ينقطع تدفق السلاح، ممّا أتاح لهاته الوحدات الثلاثة الهامة كسب قوة حربية معتبرة، فالمناوشات المحتشمة، و الكمائن المترددة تحولت إلى عمليات بتنسيق و فعالية كبيرين : هجومات على الحصون الصغيرة، محاصرة عدد من الفرق في الميدان و القبض على أسري، قنبلة ثكنات بالهاون، معارك طاحنة غالبا ما تدور لصالح جيش التحرير، طيران بدأت فعاليته تضعف بفعل ظهور رشاشات مضادة للطيران أكثر فعالية.

في أقصى الشمال، كان يوجد الفيلق الأول و يضم في صفوفه ضباطا بارزين منهم : علاوة بشايرية، شويشي العيساني، الطاهر سعد سعود، يوسف بوبير، محمد معزوز، عبد القادر عبد اللاوي، سبتي زمولي، بوطرفة الفاضل، الشاذلي بن جديد، إلخ... (بدأ بروز الشاذلي بن جديد حين رقى محمد العيساني إلى قائد فيلق، إذ تولّى من سيصبح يوما رئيسا للدولة الجزائرية منصب قائد

منطقة.) الخصال التي كان يتسم بها من رزانة وحكمة في زمن انتشر فيه الإفراط و التسرع في كل شيء، لفتت انتباه القيادة التي قررت، في بدايات تأسيس هيئة الأركان العامة، توليه رفقة عبد الرحمان بن سالم الناحية الشمالية، ما يعادل تقريبا نصف تعداد عناصر جيش التحرير الذين كانوا ينشطون على الحدود الشرقية للبلاد.

في الوسط، و لمواجهة العدو المتخندق في عين زانة و الثكنات الكثيرة المحيطة بسوق أهراس، كانت توجد الناحية الثانية التي كان يقودها عبد الرحمان بن سالم و قد ظل محاطا برفقائه ممن فروا معه، و كذا ذيب مخلوف و لخضر وارتسي و محمد الصالح بشيشي و غيرهم... ربما كان اللجوء إلى عبد الرحمان بن سالم أكثر من غيره للسهر على توفير ممرات مؤمنة عبر الزعرورية و المشروحة و عين سنور.

في الجنوب، نجد الناحية الثالثة تحت قيادة الطاهر زبيري التي ما إن مضت أيام حتى أدهشت بأعمالها، كانت وحدتها النخبوية تضم في صفوفها سبتي بومعرافي، جيلاني بن ضحوة، شريف براكتيه، زين نوبل، شريف ملاح و موسى حواسنيه.

ولعبت هذه النواحي الثلاثة دورا هاما في التسريع بدينامية المواجهة بين جيش التحرير و الجيش الفرنسي. كان ضعف رد العدو على حيوية ونشاط القاعدة راجع إلى التصور الذي قامت عليه استراتيجية الفرنسيين ذاته : كان يحدث مثلا أن تتوصل مجموعة الحاميات التي كانت تطوق الشمال الشرقي إلى تثبيت كتيبة في موقعها، لكنها لم تكن أبدا قادرة على متابعتها بصفة مستمرة، أو استدراجها و القضاء عليها. الأنواع الكثيرة من الأسلحة التي كانت تفرغ داخل البلاد بفضل وحدات الإمداد التي أنشأها العقيد بوقلاز، كانت تجلب الخطر لعدد هام من مراكز المراقبة الصغيرة، وتعطل الاتصالات وتزرع الخوف إلى حد توقع كارثـــة عسكرية لا تحمد عقباها. طرق هامة تـــم غلقها. القل و سكيكدة كانتا تموّنان عبر البحر. و أمّا قالمة، سوق أهراس، غونو، ميلة، وغيرها، فبواسطة قوافل تحرسها في الطريق قوات مدرعة.

فكرت هيئة أركان الجيش الفرنسي في تطبيق استراتيجية

" ماوتسي تونغ "، فراحت تحشد الأهالي الريفية داخل محتشدات عسكرية، لغرض تعتيم مصادر الأخبار و المؤن الغذائية الآتية إلى جيش التحرير، لكن دون جدوى، فالمدن أصبحت معاقلا لفرق كمومندوس جريئة. و كان للعمليات الفدائية المتكررة أثر مرعب على معنويات الأهالي الأوروبيين.

بات هناك أمران عاجلان لا مناص منهما : منع كميات الأسلحة من الوصول مهما كلف ذلك، وتحطيم قوى جيش التحرير حيثما كان اللحاق بها ممكنا. كيف ذلك ؟

1- بتشييد حاجز منيع على الحدود، هذا الخط المدعو " خط موريس " باسم مهندسه، يمتد من القالة شمالا إلى نقرين جنوبا. فهو إذن يعبر قلب أقصى الشمال الشرقي. تحية تقدير قوية لصمود رجال القاعدة الشرقية.

2- بتشكيل وحدات تدخّل مكّونة من فرق النخبة ومن كومندوس رؤوس الاستكشاف " بهدف تنقية " النواحي المتعفنة " نهائيا.

المعركة الكبرى الأولى المعروفة باسم "معركة سوق أهراس" و التي خاضتها من الجانب الفرنسي خمس فرق مظليات و وحدات تابعة للقطاعات و العديد من المرتزقة (من اللفيف الأجنبي والحركة) شنت سلسلة العمليات الكبيرة التي استمرت طيلة الحرب، و بلغت ذروتها عندما تولّى الجنرال شال القيادة العليا في الجزائر. هذا الجو من العصبية السائد حول سوق أهراس راجع إلى الإعتقاد الراسخ وقتئذ بأن كل الشر كان يأتي من هناك. كان لقيادة الأركان الفرنسية كل صباح دليل بأن جيش التحرير يحاول، كل ليلة و بكل الوسائل، اختراق الحاجز. ويتعلق الأمر بوسائل بسيطة و لكن فعالة : مقص خاصّ لقطع الخيوط المشحونة بالكهرباء، حبال عازلة بملاقط لتحويل التيار. حفر ثغرات واسعة في شبكة الحواجز المشكلة من الأسلاك الشائكة من نوع "كونسرتينا" وشبكة "بران" وكذا ألغام مضادة للأشخاص نموذج " 1951 ". كان جيش التحرير يتوفر على أنابيب معدنية طولها عدة أمتار، مملوءة بمتفجرات من نوع "بنغالور".

و ظل العسكر الفرنسيون يفَعلون باستمرار نظام الدفاع لمواجهة عبقرية المهاجمين : ألغام قافزة، أضواء كاشفة، أجهزة رادار خاصة لتحديد التحركات البشرية، التضليل، حفر كازمات، دبابات مدفونة، مدفعية مصوبة تلقائيا بمجرد أن تشير الأجهزة الإلكترونية (أجهزة رادار إلكترومغناطيسية) إلى وجود محاولة عبور، فرقة مدرعة، مراقبة جوية، إلخ.

القوات الجزائرية التي كانت تحارب هذه القوة الهائلة، كانت تتشكل في البداية من الفيالق الثلاثة التابعة للنواحي الثلاثة التي تتكون منها القاعدة الشرقية و التي سبق أن أحصيناها، و كذا من الوحدات التابعة للناحيتين الخامسة و السادسة التابعتين للولاية الأولى تحت قيادة عبد الله بلهوشات، صوفي صالح، محمود قنز، لخضر بلحاج، إلخ.

العقيد عمارة بوقلاز، وتحت ضغط من لجنة التنسيق و التنفيذ التي كانت تقدر جيدا الخطر الذي قد ينجر عن إقامة " خط ماجينو" جديد، راح يضاعف من زياراته في الداخل و أمر بتدعيم وسائل الوحدات العملية، كما شرع في رسم تخطيطات بدت طموحة تستهدف تحطيم أجزاء طويلة من الحاجز المتين. لم تكن معركة سوق أهراس معركة معزولة أو محدودة في المكان و الزمان، حيث أنها استمرت على مدار أربعة أشهر كاملة بلغت أوجها في المواجن مثلما سيأتي الحديث عنه بالسرد المفصّل. ولقد تزامنت هذه المعركة مع توافد الكتائب القادمة من الولايتين الثانية و الثالثة في طريقها إلى تونس بحثا عن التموين وإمداد الداخل بالسلاح و الذخيرة. فالقاعدة الشرقية، التي تحملت وحدها طيلة عام 1957 عبء الإمداد، ونظرا لمعرفتها للميدان، أصبحت مهمتها منذ ذاك مقتصرة على تسهيل عملية المرور لوحدات التموين بالسلاح.

إن السبب المباشر في اندلاع معركة سوق أهراس التي كان الفرنسيون يحضرون لها منذ أكتوبر 1957، كان يتمثل في الهجوم الذي شن على الثكنة المسماة " مزرعة مشري " وتدميرها من قبل الكتيبة الثامنة التابعة للفيلق الثالث، و الذي خلف 28 قتيل و 4 أسرى، وهناك أيضا حوادث 11 يناير

1958 وعملية تركيب الفيلق الرابع المكوّن من أنشط العناصر التابعين للنواحي الثلاثة للقاعدة الشرقية.

ففي يوم 11 يناير 1958، حدث أن استدرجت سرية تابعة للفرقة الثالثة والعشرين للمشاة، كانت رابضة على حدود "الغوارد" بالقرب من ساقية سيدي يوسف، في كمين نصّبته فصيلتان تابعتان للسرية التاسعة التابعة للفيلق الثالث من القاعدة الشرقية. كانت الحصيلة 17 قتيلا، وعشرة جرحى، أربعة أسرى من الجانب الفرنسي. اهم النقيب آلار، من فراشه في مستشفى سوق أهراس، وطبقا للأخبار التي تلقاها من مصالح الإستخبارات، التونسيين، بقوله : " بورقيبة متواطيء ". و جاء في عناوين الصحافة العاصمية بالجزائر : " الأسرى موجودون بتونس ". و تم استدعاء السفير، الذي تسلّم برقية ذات لهجة تهديدية شخصيا من طرف الجنرال باشلي. اغتاظ بورقيبة من الأمر كثيرا. وشرع الطيران الفرنسي في قصف ساقية سيدي يوسف. الثكنات الفرنسية المتواجدة بتونس تمت محاصرتها من طرف القوات التونسية. حزب " الدستور الجديد ". نظم مظاهرات في ربوع البلاد رافعا شعارا واحدا : " الجلاء ". مما استدعى تدخل الصليب الأحمر. أمريكا أعربت عن تأثرها بالوضع فاقترحت وساطتها. لجنة التنسيق و التنفيذ هللت لما حدث. و جميع العواصم و الهيئات صارت أنظارها منصبة نحو الجزائر.

الأثر العاطفي الكبير الذي تركته أحداث الغوارد و ساقية سيدي يوسف زادت من حدة طبع " القنصل " روبير لاكوست وهيجت هيئة الأركان الفرنسية.

وتعرض فليكس غايار لحملة مسعورة، كما صب عليه المتطرفون من المعمرين و ضحايا التجارب الجزائرية جام غضبهم. جاك سوستيل و أندري موريس، من جهتهما، ألحا كثيرا على القيادة العسكرية للحصول على "نتائج". فمهمة فرق المظليين المرسلة إلى منطقة سوق أهراس " المتعفنة " كانت إذن متمثلة في أمرين : " سد ثغرات " الحاجز و محاولة تدمير جيش التحرير تدميرا شاملا.

في أول يوم من شهر فبراير عام 1958، تلقت عناصر من السريتين السابعة و التاسعة التابعتين للفيلق الثالث للقاعدة الشرقية، ومعها سريتها الثامنة بكاملها، ضربات موجعة في اشتباكها مع فرق المظليين. المعارك التي استمرت من الأول إلى غاية الثامن من شهر فبراير 1958، امتدت من سفحيلي إلى البطيحة مرورا بوادي الشحم و العوايد و كاف الأعكس. و قد كلفت المعركة جيش التحرير مائتين و خمسين قتيلا. سبتي بومعراف و شريف ملاح و الطيب جبار استشهدوا فيها شهادة الأبطال. أما الفرنسيون فقد تكبدوا من جهتهم خسائر فادحة.

أضحى تشكيل الفيلق الرابع للقاعدة الشرقية أمرا ضروريا نظرا لكثافة عبور وحدات الإمداد تدعيما للدفاع حول الحاجز المكهرب و أيضا حرصا على التخفيف من الضغط على الوحدات الثلاثة الكبرى (النواحي الأولى و الثانية و الثالثة) التي تحملت إلى غاية ذلك الوقت الجزء الأكبر من الجهد المبذول في الإمداد بفضل الاقتطاع الدائم من قبل عساكرها. تولى قيادة هذا الفيلق الرابع النقيب محمد لخضر سيرين، بمساعدة كل من يوسف لطرش وعلي باباي.

كانت مهمة اجتياز خط موريس يوم 28 أفريل 1958، الذي كان على الفيلق الرابع أن ينتشر إثره في ناحيته العملية الجديدة غرب الحاجز (غامبيطا)، إضافة إلى الحماية المفروضة على عبور كتيبتين من الداخل، و المعارك التي انجرّت عن ذلك، قد شكلت بما لا يجعل مجالا للشك منعرجا حاسما في الحرب.

و وجدت الولايات الداخلية نفسها حينئذ مضطرة لتطبيق سياسة اكتفاء ذاتي لحفظ البقاء. كان شعارها غير المدون " المهم البقاء "، الجيش الجزائري، الذي بقي منحصرا و معزولا في الحدود، أعيد تنظيمه و بحنكة ليقوده هواري بومدين. وبحكم معرفته لإمكانات نقائصه، سوف ارتأي أن ينتهج خطة استنزاف حربية تحضيرا لليوم الذي يكون فيه قادرا على تحطيم الدفاع المقام حول الحاجز ومواصلة مسيرة أبطال المواجن المتوقفة.

كانت معركة المواجن بلا أدنى شك أهم معركة سجلت في سلسلة المعارك المتواصلة التي بدأت يوم 11 يناير 1958 وانتهت يوم 3 ماي من نفس السنة. بعدها بأيام معدودات تمكّنت الولاية الثانية وبعد مطاردتها لبقايا الفيلق الرابع، من إسقاط طائرة عمودية تسبب في مقتل الكولونيل جان بيار.

استخلصت قيادة جيش التحرير، أي هيئة أركان القاعدة الشرقية أولا، ثم القيادة العسكرية ثانيا، فهيئة الأركان العامة، استخلصت من معركة سوق أهراس الطويلة و الطاحنة دروسا ثمينة استثمرتها في بقية الحرب :

1- عدم جدوى الزعم بإمكانية احتلال نواحي محددة مسبقا بهدف بسط النفوذ بشكل ثابت قار ومكشوف.

2- استحالة عبور الخط المدعم بوحدات هامة بالنظر إلى القوات المتوفرة، مهما كان مستوى تدريبها و تسليحها.

قبل الختام، أود أن أشير إلى أنّ شهادات من بقوا على قيد الحياة، وهم قليلون، عن هذه المعركة الرهيبة، معركة سوق أهراس (وأخي سالم جيوليانو كان من بينهم) ظلت لأمد طويل تثير فينا مشاعر الفخر والهمة وتنفخ في نفوسنا روح الإقتداء ببطولتهم ويلهمنا الرغبة القصوى لأن نكون جديرين بتضحياتهم.

فأبطال المواجن، الذين أثاروا تقدير الجنرالات الفرنسيين، لم يكونوا بشرا خارقين للعادة. كان يحذوهم فقط حب الجزائر.

والعبرة الكبرى التي استخلصتها من هذه الحقبة العصيبة من تاريخ الحرب التحريرية، بعد مضي خمس عقود تقريبا، تتلخّص في رمز الإتحاد و التلاحم الوطني الرائع الذي كانت تجسده القاعدة الشرقية. فرجالها جاءوا من كل حدب وصوب : من قبائل جرجرة، من الشاوية المغاور، من النمامشة الأشاوس، من وهران، من مدن سوق أهراس و مناطق أخرى، من مشرّدي الأكواخ القصديرية، من يتامى الأرض، شباب منحدر من أسر برجوازية ثرية، جنود، ضباط صف و ضباط جاؤوا من الثكنات و المدارس الحربية الفرنسية.

تلاحموا جميعهم وتماسكوا الأيادي وتآلفوا مثل الأشقاء. حاربوا معا، جنبا إلى جنب. و لم تلق عبارة باراس :

" إنّ الأمة عبارة عن سلسلة طويلة من المعارك و مقبرة غير مقسمة " معنى أكبر كالذي لقته، حينما كانت القاعدة الشرقية من مسببات النصر. و لا يسعني أن أختم هذا التمهيد الذي أكتبه وحنجرتي مشدودة من شدة التأثر، دون الوقوف وقفة إجلال و إكرام أمام أرواح إخواني، ومن سبقوني، الذين أشعلوا المشعل الذي تشرفت بحمله، بكل تواضع، كما فعل رفقاء كثيرون، وهي وقفة إجلال و إكرام للمجاهدين المعروفين و غير المعروفين الذين كوّنوا القاعدة الشرقية و صنعوا مجدها.

" معركة المواجن "

28 أفريل – 3 ماي 1958

كنا في نهاية شهر أفريل عام 1958. كانت قيادة أركان القاعدة الشرقية التابعة لجيش التحرير الوطني قد عزّزت تواجدها على مستوى منطقة عملياتها في أقصى الحدود الجزائرية التونسية، بعد أن استقرت بها إحدى وحداتها العسكرية في ضواحي قامبيطا. وكان ذلك يستجيب للرغبة السائدة في مواصلة تكثيف الكفاح التحرري على الصعدين السياسي والعسكري، الذي تم الشروع فيه منذ مطلع عام 1957. على الصعيد السياسي، مع المصادقة على مشروع الصومام، الأمر كان قد حسم لأن ترفع "غاية الاستقلال فوق كل الغايات مع رفض كل أشكال الحلول الأخرى " إضراب الثمانية أيام، إدراج القضية الجزائرية في هيئة الأمم المتحدة، الخ ... ".

على الصعيد العسكري، نذكر على وجه الخصوص التصعيد اليومي للعمليات تقريبا على كامل أنحاء التراب الوطني الملائمة لحرب المدن. فطيلة هذه المرحلة الحاسمة لم يكف جيش التحرير عن النشاط وعن تنفيذ عمليات مسلحة، ليس بمجموعات صغيرة ومعزولة، خفيفة وسهلة الانسياب كما كان يجري في الماضي، وإنما مع كتائب، بل مع فيالق بأكملها. بمقتضى أن هذا النوع من الوحدات هو الذي صنع الحدث في المعارك التي ستمتد من 28 افريل إلى غاية 3 ماي 1958 والتي ستعرف، منذ ذاك، باسم " معركة سوق أهراس "، لا لشيء يرتبط بهذه المدينة سوى كونها أنها شهدت وقائعها. المهمة كانت تتلخص في إيجاد الطريقة لدعم تواجد جيش التحرير في الداخل بواسطة تعزيزات جديدة. لبلوغ هذا الهدف، تم هكذا اختيار :

الفيلق الرابع المتكوّن من أفضل العناصر المختارة من النواحي الأولى والثانية والثالثة التابعة للقاعدة الشرقية، والذي اختيرت منطقة قامبيطا مكانا يرابط فيه، وهي الناحية التي أصبحت تسمى بالناحية الرابعة للقاعدة الشرقية.

وكل وحدة من هذه الوحدات صارت تتمتع باستقلالية في القيادة بمجرد اجتيازها الحاجز المنصوب. قائد الفيلق الرابع، المرحوم أحمد سيرين، لم يفلح في عبور الحاجز،فكان نائبه العسكري يوسف الأطرش، وهو ضابط صف سابق ممن تمردوا وفرّوا من الجيش الفرنسي، هو الذي سوف يقود المعركة.

الروايات التي أدلى بها في هذا الصدد كل من النقيب مقران آيت مهدي من الولاية الثالثة. وسالم جيوليانو من الفيلق الرابع والجنرال روبير كاجي من الجانب الفرنسي. لا تخص إلا حلقات من هذه المعركة الكبرى التي هي فعلاً كذلك بالنظر إلى ما كانت عليه ضراوة القتال وشجاعة المقاتلين وضخامة الوسائل المسخرة " الأرضية منها و الجوية " من طرف العدو. جيش التحرير الذي جنّد ألفا وثلاثة مائة رجال، كان مدعما في منطقة العبور بجنود الناحيتين الثانية والثالثة التابعتين للقاعدة الشرقية، وكان حاضرا معه قائد الناحية شخصيا، عبد الرحمان بن سالم. كما سمحت المعركة باستعراض كل الشجاعة وروح التفاني اللتين كان بهما الرجال، في مهمة لم يكن فيها تكافؤ في القوى و يستحيل ضمان عودة الجميع إلى نواحيهم، فلم يبق أمامهم سوى أن يخوضوا كالسباع غمار المعركة. الكثير منهم استشهد في ميدان الشرف.

إن الخسائر العديدة التي تكبدها الفرنسيون مردها أساسا التجربة التي كان يتمتع بها الرجال والقادة الذين، و بالرغم من أرضية الميدان غير المواتية، أحسنوا استغلال هاته التجربة بالعمل منذ البداية على تشتيت مواقع تحركهم على عدة نقاط مرغمين بذلك العدو على تفكيك أركانه ومجموع اتصالاته.

لقد تكبد جيش التحرير خسائر من نفس الحجم، إلاّ أن ذلك لم يكن إلاّ حصيلة ضربات المدفعية والسلاح الجوي. نوعية الخطة المطبقة من طرف المجاهدين، إذا أضيفت إليها عزيمة الجميع للوصول إلى نقطة العبور، وصولا جماعيا إن أمكن، ستسمح لجيش التحرير بتمديد زمن المعركة لمدة قرابة ثمانية أيام.

الحصيلة كانت ثقيلة لكلا الطرفين، وأكيد أنها كانت أثقل بالنسبة لنا أمام نيران الجو ونيران المدفعية.

طوال المعركة ظل سلوك الجنود مثار إعجاب حقيقي. ولم تمنع الخسائر المسجلة من وصول الإمدادات، بكميات منقوصة ولكنها معتبرة رغم ذلك.

هذه الصفحة ستبقى مدونة من ذهب في تاريخ ثورتنا.

ميـــزان القـــوى :

جيش التحرير الوطني : فيلق واحد و كتيبتان، أي في المجموع تقريبا ست وحدات.

الجيش الفرنسي : ستة فيالق مشاة، أربع مجموعات مظليين **rgiments**، ومجموعة مدرعات، مدعمة بالرشاش الجوي والمدفعية ميزان القوى كـــان إذا 1 مقابل 12 لغير صالح جيش التحرير.

في تلك الفترة التحقت بمعية بعض من رفاق في الـــمجموعة بصفوف جيش التحرير الوطني. وكانت اندلعت إحدى أكبر المعارك في تاريخ حربنا التحريرية.

بحكم الوسائل العديدة التي سخرها الخصم، ارتفعت الخسائر إلى ما يزيد عن ست مائة قتيل. وكما كتب الجنرال كاجي نفسه، فقد الجيش الفرنسي ما لا يقل عن 270 عسكريا بين ضابط وضابط صف وجندي، وما لا يقل عن 758 جريحا. في حين لم تمكن الإمكانيات المسخرة من جانب جيش التحرير تتعدى ست كتائب.

الكتيبة التي يجب عليها أن تلتحق بالولاية الثالثة كانت ستقطع قرابة 700 كلم لتصل إلى ولايتها بثلث فقط من رجالها، لأن الأغلبية ستسقط في ميدان الشرف في معركة سوق أهراس. أما من بقي من أفراد الفيلق الرابع، فسوف يعيدون تشكيل هياكل جديدة ويستقرون في ناحيتهم الجديدة، حيث، سينشطون قرابة العام ويقودون عمليات سيفقدون خلالها رجالا جدد.

في مطلع عام 1959، تتلقى كتائب الفيلق الرابع أو الأحرى ما تبقى منه أمرا من قائد القاعدة الشرقية بالالتحاق كلّ بالناحية التي تتبعها.

كنت نائبا عسكريا للناحية الأولى عندما انضم إلينا سالم جيوليانو مع 29 من رجاله، وهو كلما بقي على قيد الحياة من كتيبته.

الكثير من الروايات و الملاحم البطولية سيرويها لنا هؤلاء الجنود الذين خاضوا معركة شاقة لم يتح لهم فيها بمحاربة عدو أكثر عددا وعدة سوى إيمانهم القوي بقضيتهم العادلة وكذا شجاعتهم و روح الإقدام التي تسكنهم.

لقد واجه هؤلاء الجوع والتعب وقلة النوم، طالما بات مفروضا عليهم ليل نهار أن يبقوا على يقظة ودوما على استعداد، لا يطالهم اليأس من بلوغ الغاية. ومن كثـــرة المشي تكمشت الأقدام المدمية تحت " الباتوكاس " وصارت أضيق من أن تحويها. وتحت وطأة الأثقال المشحونة بالعتاد الموجه لوحدات الداخل التي يحملونها على ظهورهم، لزم عليهم أن يجّروا وراءهم جرحاهم ويضمدوا جراحهم كيفما يقدرون و بالوسائل البسيطة التي يملكون. لم تكن لديهم مستشفيات حتى يقدموا لكل واحد الإسعافات الضرورية له. فبعض ممن أصيبوا بإصابات بليغة، يترك للأهالي من غير أن يعلموا ما سيكون مصيره بعد رحيلهم.

أمام كل هذا، شعرت بثقل الواجب الذي فرض على نقل شهادات هذه المعركة، التي هي كلها دروس في الفداء ومعان عن شهامة مجا هدينا وعبارات إحياء لذكرى المئات من خيرة الرجال الذين استشهدوا في ميدان الشرف.

الجنرال روبير كاجي و في كتابه " ملحمة المظليين "، يروي فقرات من هذه البطولة ويورد تفاصيل جديدة عن حجم الخسائر التي تكبدها العساكر الفرنسيون، ولم يغفل عن الإشادة بشجاعة الخصم.

سالم جيوليانو يـــروي :

كنت مسؤول قسمة " قطاع " أثناء حرب التحرير الوطني، في الناحية الثالثة التابعة إلى المنطقة الأولى. وقد عينت لتنظيم المجموعة التي كنت أقودها، تمهيدا لإدماجها ضمن الوحدة الجديدة المزمع إنشاؤها. لكن العمليات والمعارك التي قامت بها قوات جيش المستعمر في أواخر سنة 1957 في منطقة " قمبيطا " أسفرت عن استشهاد عدد كبير من المجاهدين. ومن كتبت له الحياة، واصل كفاحه من خلال القيام بعمليات عسكرية محدودة.

ونظرا لقلة المجاهدين المتواجدين بالمنطقة، قامت السلطات العسكرية الفرنسية التي كانت تحكم تلك الجهة بترويج " خبر " تطلب فيه من المزارعين العودة إلى أراضيهم لحرثها وزرعها.

كانت هذه الرسالة الموجهة إلى الفلاحين، بمثابة الإيحاء بضمان عدم وجود " الفلاقة " في تلك الجبال.

ولهذا السبب، قرر قائد القاعدة الشرقية عمارة العسكري المدعو " بوقلاز " تكوين فيلق يتكون من أربع كتائب جاء جنودها من كل منطقة من المناطق القائمة آنذاك وتم أول تنظيم خلال شهر فيفري 1958 لكن الفرنسيين علموا بما كنا نحضره بل وتمكنوا حتى من تحديد مكان التجمع. ولعل هذا الأمر هو إحدى أسباب قرار ساقية سيدي يوسف، القرية التونسية القريبة من مكان التجمع. ومن هنا ارتأينا تأجيل تاريخ التجمع لشهر مارس. وفي آخر هذا الشهر تم اللقاء " بعين مازن " على الحدود التونسية ببضعة كيلومترا. وتم خلال هذا التجمع تعيين أربعة مسؤولين على رأس المنطقة الرابعة وهم " محمد لخضر سيرين، وكنواب له : يوسف لطرش، وأحمد دراية، وعلي " باباي " وقد

كلفوا على التوالي : بالمسائل والقضايا العسكرية والسياسية والاستعلامات والاتصال.

وقمنا وقتها بتدريبات مختلفة وتلقينا أسلحة وذخائر وانتظرنا شهرا لعبور السدّ المكهرب. وفي نفس الفترة كان الجيش الفرنسي على علم بكل التحضيرات التي قمنا بها، فقد كان قلقا ولم يتقبل معرفة أننا استطعنا هيكقواتنا وتسليحها وعلى استعداد لاسترجاع المنطقة الممتدة من " سدراتة " إلى " الناظور " و " ميرمى " وإلى الجنوب حتى " بشقوف "، " لافردير " سابقا.

وبعد تشكيل الفيلق تلقينا في 26 أفريل 1958 الأمر بمغادرة منطقة " بنى مزان " للتوجه إلى قطاع يمكن وصفه بقطاع الانتظار.

وبعد يومين تلقينا برقية من قائد منطقتنا الجديدة سيرين، يأمر فيها كل الكتائب الالتحاق إلى مواقعها قرب السد بهدف العبور عند غروب الشمس.

وأعطيت لنا تعليمات واضحة مفادها تجنّب كل أنواع المواجهة مع العدو بعد العبور، بحيث كان المهم هو الإلتحاق أولا بالمنطقة دون عوائق. ذلك أن كل كتيبة كانت لها مهمة محدودة. وكان الهدف هو الاستيلاء على المناطق التي تم تعيينها من قبل والاحتفاظ بها.

لقد عينت للعمل في ناحية " السبيطار "و " العجوز " عيسى عين بين وادي مجردة والمعلم التذكاري الذي شيد غداة الاستقلال بناحية سوق أهراس. أما عثمان ويوسف لطرش فقد عبرا الوادي من ناحية الطريق المؤدي إلى الزعرورية وأنا شخصيا فقد كلفت بقيادة كتيبة من الولاية الثانية، بينما أسندت قيادة كتيبة من الولاية الثالثة إلى يوسف لطرش، أما عثمان فقد كلف بمفرزة الاتصال اللاسلكية للولاية الأولى.

وبينما أسدل الليل ستاره، وفي الوقت الذي التحقنا بمواقعنا اكتشفت القوات العسكرية الفرنسية محمد لخضر سيرين ومركز قيادته. فوقع اشتباك إلى غاية التاسعة ليلا. وكانت نتائج هذه المواجهة استشهاد جندي وإصابة ثلاثة

آخرين بجروح. وكان على لخضر سيرين أن يفضل الانسحاب جالبا وراءه قوات العدو كخطة لتحاشي اكتشافه تموقعنا. وهذا ما يفسر إلى حد ما السبب الذي حال دون قيادة الفيلق.

وعندما خيم الليل بدأنا في القيام بإحداث فتحات في الأسلاك الشائكة وتمكنا من العبور تحت جسر إلى الجهة الداخلية من الخط المكهرب.

كانت دبابات جاثمة بالقرب من الجسر ولم تتصد لنا لعلها تركتنا نمر لأنها تدرك ما كان ينتظرنا من الجهة الأخرى.

وبالفعل، فالقوات التي واجهناها فيما بعد، تملك عشرات الدبابات والطائرات وعددا كبيرا من المروحيات الاستطلاعية والمروحيات المناورات وذلك دون تعداد قوافل العساكر الآتية الواحدة تلو الأخرى والتي تتموقع في انتظارنا. وقد اعترف المعتقلين الذين اعتقلناهم في تلك المعركة أن التحضير لها من طرف قوات العدو استمر طيلة خمسة وأربعين يوما. ومما يرجح ذلك أننا وجدنا أنفسنا وجه لوجهه مع العدو مباشرة بعد العبور فكانت المعارك متتالية أظهر فيها المجاهدون شجاعة كبيرة وجرأة متميزة ومجازفة فريدة مـــن نوعها. لقد أدركنا أنه كنا لا مفر من المواجهة ولاحل سوى الكفاح والقتال وإلحاق أكبر عدد من الخسائر في صفوف الفرنسيين. لقد تم الاختيار وكانت الفرصة مواتية للقيام بمعركة كبرى. الهجومات المتتالية من الجانبين والمواقع التي كانت في نظرنا وفي نظر العدو هامة، كانت تؤخذ وتسترد. إزداد الرجال حماسا نتيجة الانتصارات التي حققوها وكان الأمر بالنسبة لهم النصر أو الاستشهاد فاستطعنا بذلك مواجهة العدو مدة يومين متتاليين رغم الذخيرة. وبسبب تحركاتنا وتنقلاتنا المتواصلة وجدنا أنفسنا في جهة عارية من أي مخبإ، إنه منحدر عاري بأتم معنى الكلمة لهذا السبب فقدنا في تلك المنطقة الكثير، فالعدو القوي بإمكانيات المراقبة والاستكشاف، كان على أهبة انتظارنا في مثل تلك الجهة.

وقد اعتمدنا منذ بداية المواجهة تكتيكا مآله الالتصاق بقوات العدو أقرب ما يمكن لتفادي قدر الإمكان قنبلة الطائرات مدفعية الميدان.

وعند الساعة الثالثة بعد الظهر أخبرني جنود الاستكشاف أن فرق العدو قد تموقعت في الضفة الأخرى للوادي. وحينئذ قررت أخذ رجالي إلى مرتفع يدعى الحمري. وكانت أشعة شمس النهار قد بزغت حين أخذنا مواقعنا والتحق بنا كل من يوسف لطرش وعثمان والعجوز عيسى.

توجه لطرش بكلمة إلى المجاهدين ليخبرهم أن أعضاء القيادة لم يتمكنوا من عبور الخط المحصن وأنه أخذ بزمام القيادة. وحينها قررت التوسع على مساحة كبيرة مقسما جنودي إلى مجموعات صغيرة حتى نتمكن من الدفاع أفضل.

وزعت أفراد كتيبتي أو ما تبقى منها إلى أربع مجموعات وضعت واحدة منها تحت قيادة الهادي دلال، وأخرى تحت قيادة عمارة صالح المدعو " العنابي "، وعينت على رأس الثالثة أحمد الذي لا أتذكر اسمه العائلي، وأما الرابع فقد كانت تحت أوامري.

وفي اليومين التاليين تمكن يوسف لطرش من التقدم مواصلا القتال، أما نحن فقد تعرضنا لقصف جوي مكثف وذلك رغم إسقاط عدد كبير من الطائرات. كنا نشاهد من حين لآخر تحطم طائرات تاركة وراءها دخانا كثيفا.

وانتهزنا فرصة قدوم الليل لنغير مواقعنا ونتجه مع نهاية النهار الثالث نحو قمة جبل تحمل اسم كاف " المصاخطة ". إنها فعلا تحمل اسمها، فالمصاخطة بالعامية تعني الذين مآلهم جهنم وكانت فعلا جهنم.

وفي اليوم الخامـــس أكتشف يوسف لطرش عندما استعمل جهاز الاتصال " ANGRC9 " ذلك أنه كان علينا أن نموه على العدو وفي مساء ذلك اليوم الخامس سقط الشهيد بطلا حقيقيا عملاقا.

وفي اليوم السادس انتقلت إلى عين المكان حيث استشهد لطرش ورجاله وأقمنا محفلا جنائزيا على أرواح المجاهدين الذين سقطوا في ميدان المعركة وأخذنا الجرحى معنا. وبعد ساعات قليلة حاول العدو محاصرتنا لكننا تمكنا من إحباط الحصار وتغيير مواقعنا و وضع الجنود المصابين في واد.

وفي يوم 03 ماي بالتحديد شعرنا بأن المعركة على وشك نهايتها وشعرنا بتخفيف القبضة علينا وحين بدأنا بجمع رجالنا لاحظنا أننا كنا متفرقين إلى حد وجود مجموعات من 10 إلى 15 رجل وفي نفس العشية لم تبق تحوم فوق ميدان المعارك سوى بعض المروحيات وبعض طائرات الاستطلاع.

أسعفنا الجنود الذين أصيبوا بجروح وكان عددهم 140 جريحا و وضعناهم بـــ " كازمات " كنا قد حفرناها في فترات الراحة خلال الليل.

وأعتقد أن المعارك خلفت عددا كبيرا في صفوف العدو خصوصا بالنظر إلى كمية الأسلحة التي غنمناها والتي حطمنا جزءا منها بسبب عدم تمكننا من حملها كلها.

لقد تمكن العدو من اعتقال عدد قليل من جنودنا لأن الرجال كانوا يفضلون القتال والموت عن السقوط في قبضة العدو أحياءً.

خسائرنا كانت جسيمة فقد قدرت بحوالي 600 شهيد أو اكثر لأن الجنود كانوا يقاتلون في ميادين مكشوفة ضد عدو مدجج بالسلاح وبعدد يفوق عددنا كثيرا.

ومن الذين كتبت لهم الحياة يمكننا تقديم الأرقام التالية :

المنطقة الأولى : 29 مجاهداً.

المنطقة الثانية : أقل من مفرزة بقيت في عين المكان لتسجل حضور جيش التحرير الوطني.

المنطقة الثالثة : أقل من مفرزة.

ومن كتيبة الولاية الثالثة تمكنت مفرزة واحدة من الالتحاق بولايتها وذلك بعد قطع مسافة كبيرة تقدر بالكيلومترات.

وثلثا كتيبة الولاية الثانية استطاعت الالتحاق بمركزها.

وبعد حوالي 15 يوما من المعركة تمكنت كتيبة الولاية الثانية من إسقاط مروحية العقيد " جان بيار ".

وبقي الجنود الذين نجوا والتابعين إلى الفيلق الرابع في مناطقهم الجديدة يقاتلون لمدة سنة كاملة إلى غاية تلقي الأوامر بالالتحاق بمناطقهم بالقاعدة الشرقية. أما أولئك الذين هم من المنطقة الثانية فقد بقوا في عين المكان.

في هذه الفترة تعرفت على سالم جيليانو واطلعت على ملحمة الفيلق الرابع. فمن خلال المثل الأعلى في الشجاعة والتضحيات والتفاني ونكران الذات الذي قدمه هذا الفيلق استطاع أن يرسم الطريق لكل الرجال الذين يكافحون من أجل الجزائر.

وبالتأكيد، لقد سجل أروع صفحات البطولة لكفاح التحرير الوطني، فعلى الأجيال الجديدة تفادي ذاكرة النسيان والتذكر باستمرار هذه البطولات.

كتـــب روبير كاجي :

"إثر العبور الذي اعترضته مجموعة مظليي اللفيف الأجنبي مثل الأول وترك فيهما مع ذلك اثنين وثلاثين قتيلا، من بينهم ستة ضباط و ستة وتسعين جريحا، أوقف " الفلاقة " محاولتهم.

ورغم ذلك لم ينتابهم اليأس. فقد استحدث ضباط " جيش التحرير الوطني" تقنية عبور جديدة تتمثل في حفر أخاديد تحت الحواجز الكهربائية يتسلل عبرها الجنود زحفا على البطن. ففي الساعة التي عزم فيها قادة الجيش الجزائري في تونس على أن يضربوا ضربتهم الكبيرة، اتخذوا قرارهم بالعبور بحشد كبير إلى سوق أهراس. و من أجل تنفيذ العملية، غادر 1300 جندي قاعدتهم ليشهدوا عبورا لم يسبق له مثيل. لأن هذه المعركة الحامية الوطيس التي دارت رحاها في 28 و 29 أفريل و أول ماي، والتي أطلق عليها البعض اسم معركة المواجن، ستبقى إحدى أجمل صفحات المجد في التاريخ.

طوارئ على حاجز سوق أهراس :

في صبيحة يوم 29 أفريل، انطلقت مجموعة كوموندو المظليين التاسعة في عملية حول وادي مجردة على بعد حوالي 15 كيلومتر غرب سوق أهراس.

ويعد رأس الحربة للمجموعة أوكلت قيادته للعقيد بيشو **Buchoud**، ويضم وحدات المشـــــاة **RI** رقم **60** و **RI152/2** و**RI152/1**. مهمته اقتناء أثر " عصابة " أعلن عن وجودها استخبار موثوق.

بينما العملية لازالت جارية، وصلت كتيبة التمشيط التي تقوم كل صباح بتفتيش المحيط القريب للحاجز على بعد أربعة كيلومترات جنوب سوق أهراس. وفجأة أوقف قائد الفرقة سيارة الطليعة بمجرد أن لاحظت عيناه شيئا غير طبيعي في شبكة الأسلاك الشائكة. نزل من سيارته، اقترب أكثر فاكتشف ستة خنادق محفورة تحت الحاجز الكهربائي. على مقربة من المكان، جثتان مفحمتان كانتا معلقتين على الأسلاك

بمجرد أن بلغها الخبر، قررت قيادة الأركان بتركيب العملية، وكانت تتمثل في مجموعة تدخل قوية، مدعما بمصفحات المدفعية وطائرات. في نفس الوقت، أعطى أمر للقطاعات العسكرية في لافردور سدراتة و مورسو للشروع في تطويق المنطقة. يكفي أن نذكر بأن المجموعة الخاصة بالتدخل كانت الرابط بين أربعة فرق مظلية ومن ستة فرق مشاة و من المجموعة مدرعات ومدفعية جوية ومروحيات نقل واستطلاع، لنعرف مدى ضخامة العملية المقررة لرصد حركة الجنود المتسللين والقضاء عليهم.

من ضمن كل ما أورده الجنرال روبير كاجي عن مجموعة التدخل هذه، لم يذكر سوى ما قامت به الكتيبتان المظليتان للمجموعة التاسعة. وإن كان يسهل علينا استنتاج أهمية المواجهة وضراوة القتال التي دفعت بالمقاتلين، من كلا الجانبين، إلى مبارزات رجل لرجل وإلى مجازفات تصل في أغلب الأحيان إلى حد التضحية بالنفس.

ويضيف كاجي : " من أعلى علوين، اختار الكولونيل مواقع الهبوط فأمر"التي 6" **T6** بترتيب الأمور. الكتيبة الثالثة التي يقودها النقيب بومون هي أول الكتائب المستعدة، فجاءت على متن الـــ **H21**، وأقلعت " البنّان " وهي مشحونة بحمولاتها للتوجه نحو النقاط التي انتهت الطائرة المراقبة من استطلاعها على هضبة المواجن .

المروحيات المتمركزة في الأجواء شرعت في النزول لتحط. لكن ما أن تحط " البنان " الثالثة على الأرض، حتى فوجئت بوابل منهمر من الرصاص أصاب مظليين اثنين بجروح. فقامت الطائرات المطاردة بتكييف تعزيزاتها لتواصل الشحن على الطائرات العمودية.

معركة الكتيبـــة الثالثـــة :

كل فصائل " الثالثة " دخلت في معارك ضارية. فالمظليون، الذين تفاجؤوا في البداية، ردوا ما يملكون من سلاح. فجأة، وأمام الفصيل الأول، ظهر ثلاثة أو أربعة جنود من " الفلاقة " إلى العيان؛ تقدموا وأيديهم مرفوعة، من غير شك ليستسلموا. خرج إليهم الملازم الأول وفي طريقه سمع صوت صفارة. ارتمى الجنديان على الأرض، وإذا بالمظليين يرمون برصاص عنيف يوشي عن وجود مناورة حصار.

وتدخل الفصيل الثقيل بالهاون ومدافع 57 مم غير المرتدّة، ليحاول إحباط محاولة الهجوم، لكن القذائف سرعان ما استنفذت و العريف أندريوجاك، رغم إصابته الخطيرة، تمكن من إخفاء مدفعه أن يخور منهارا.

وجد مركز قيادة " الثالثة " نفسه محصورا بين نارين. النقيب بومون فهم الأمر في الحال. فهم بأن طوقا بدأ يغلق عليه. اتصالاته بالراديو أضحت ضعيفة، الموجات متزاحمة. تدخل فصائله أصبح ضروريا،لأن، وبسبب دخول المظليين في المعركة، أي دعم جوي يبقى غير مجدي. زيادة على ذلك كله، وبفعل الوتيرة التي استمرت عليها تبادل إطلاق النار، سرعان ما نفذت ذخيرة السرية. حاول بومون أن يبلغ بوضعيته المزرية فنادى صاحبه الموجود على الراديو.

ديمار .. ركّب الهوائية الكبيرة وناد مركز القيادة.

لكن " الفلاقة " كشفوا أمر الراديو، فراحوا يركزون ضرباتهم على مركز قيادة السرية.

النقيب مصاب، بعدما تداوى على عجالة وبشكل عابر، نادى على الفصيل الثالث و أمره بمآزرة الفصيل الأول و تشديد الدعم عليه لتفادي أي حصار.

كل الفصائل دخلت في اتصال، دون تنسيق فعلي. المظليون، موزعون على شكل مجموعات صغيرة، ظلوا يقومون طويلا، لكن لم يفتأ الخصم أن طغى عليهم بعدده وناره. وفيما أخذ بومون يحاول بث الحمية في رجاله، أصيب مـــرة ثانية ومعه صـــاحبه على الراديو قبل أن يسقط، نادى النقيب عـــلى مساعده وأمره بالقيام بمحاولة للتوغل من جهة الشمال مع كل سريته. لما بدأ الملازم الأول يلمس الإحباط الذي خلفه مصرع النقيب، أنتصب وسط المعركة، واندفع جاريا وهو يضرب برشاشه صوب زحمة من الأشجار ودار نحو رجاله صائحا :

" ماذا أصابكم .. ؟ لاتخف .. "

وأتبع جملته برشقات متسلسلة طويلة. السرية الآن محاصرة، متكبدة خسائر فادحة. الفصائل بمصابيها " بجروح خفيفة " استطاعت أن تتجمع مع مركز القيادة قرب مرتفع صخري توجد فيه بضعة أشجار ناتئة توفر نوعا من الحماية.

معركة الكتيبة الثانية :

اتخذت السرية الثانية التي كان على رأسها النقيب **Gueguen** مستقرا لها مكانا بعيد بحوالي كيلومترين شمال شرق مكان تواجد " الثالثة ". وكذا الفيلق التابع للـــمجموعة الأولى التي قدمت من قالمة. الكولونيل بيشو أعطى لها أمرا بالمشي إلى السرية الثالثة لكسر الحصار المضروب عليها.

في هبة واحدة، انتفضت السرية لتتبع قادة الفصائل التي أعطت المثل الملازم الأول خار مصروعا بعد أن أصيب إصابة قاتلة. عديد من المظليين سقطوا أرضا منكفئين على وجوههم، لكن المقاومة تزعزعت. في تلك اللحظة، انطلقت السرية الثالثة ووجدت ثغرتها للتسلل بفضل التململ الذي أحدثه هذا الهجوم المضاد.

و بينما همّ الناجون من " الثالثة " لفتح طريق للتراجع والدخول فيها مع الجرحى، قام " الفلاقة " بمطاردتهم فاتحين عليهم النار بالرشاش.

الساعة كانت تشير إلى السابعة والنصف مساء، الليل اقترب، لكن " الثالثة " تمكنت من ربط الاتصال بمنطقة الحصار في " وادي دكنة "، حيث الملازم الأول " سابورو " لازال يتم حساباته. ما يقارب نصف السرية لم يعد معها، من بينهم النقيب و الملازم الأول " تييري " وعدد كبير من ضباط صف.

المظليون، وبعدما عاشوا الحدث، تطوعوا جميعهم إلى ميدان المعركة لنجدة أصحابهم وحمل قتلاهم.

استغلت الفرقة وجود حشرات الحباحب فقامت باختراق الحصار وصعد أفرادها مرتفعات الجبل، لكن لم يمر وقت طويل حتى اصطدموا بالفلاقة الذين استقبلوا بوابل من الرصاص. أمام الإرهاق الشديد الذي أصاب رجاله، أعدل الكولونيل في الأخير عن مشروعه والتحق بمنطقة الحصار

هذه فكرة عن وقائع المعركة التي جرت خلال ظهيرة يوم 29 أفريل. المعركة التي استمرت بنفس الحدة والشدة إلى ما بعد الثالث من شهر ماي. سرياتنا الستة سارت بكاملها بمجرد عبورها في ليلة 28 إلى 29 أفريل. الجنرال كاجي، هو، يقول بان مسلسل العبور توالى إلى غاية يوم 3 ماي، مستخلصا من ذلك بقوله :

" لاشك أن قيادة جيش التحرير الجزائري بتونس طبقت خطة جاهزة ومدروسة، فلمّا كانت تجهل كل شيء عن النهاية المأساوية للفيلقين الثالث والرابع، بعث جنودا إلى الموت. "

هذه الخلاصة التي انتهى إليها، قد نجد لها تفسيرا في كون أن الجنرال كاجي لم يكن يملك كل المعطيات. فقبل عدة شهور خلت، ومهما كانت قيادة الأركان الفرنسية فعلا على علم بالاستعدادات الجارية لهذا العبور التي تحلى بها جنود الطرفين كما يكفي أنها تؤكد على مدى لامركزية هؤلاء، بما أن الجنرال الفرنسي يصف لنا معركة بوصفها جرت وأديرت على مستوى كتائب.

كما تؤكد هذه الشهادة على الخطة التي اتبعها أفراد جيش التحرير الذين، ولتفادي الضربات الجوية، عمدوا دوما لصق العساكر الفرنسيين لصقا شديدا، مما يفسر كثرة المشابكات المسجلة.

لانجد اكبر تقدير ولا اعظم شهادة تقال في جنود ومجاهدي معركة سوق أهراس، من هذه العبارة للكولونيل بيار بيشو، التي نقلها الجنرال كاجي، دائما في كتابه :" لطالما تأسفت لكون أن عبارة " سوق أهراس " لم تكن مطرزة على راية مجموعة كوموندو المظللين التاسعة، لأنه لا توجد طريقتين للموت في سبيل الوطن، طريقة فيردين وطريقة المواجن . "

منذ بداية شهر أفريل سنة **1959**، عملت كثيرا مع سالم جيوليانو، سيما في الفترة التي كنت أثناءها نائبا عسكريا إلى مستوى الناحية الأولى للقاعدة الشرقية، ثم نائبا عسكريا للفيل الثالث عشر. كان سالم يحتل منصب قائد الكتيبة الثقيلة. كانت لنا الفرصة عدة مرات للتطرق لمعركة سوق أهراس، وبدا لي أن لدى سالم أشياء كثيرة يحكيها بخصوص عبور الفيلق الرابع.

الأفكار كانت تتزاحم في رأسه. الموضوع كان موضوع معارك متواصلة خلال ثمانية أيام كاملة. لم يكن له من السهل البتة إعادة ترتيب كل مسلسل الأحداث التي جرت ترتيبا زمنيا تاما ومضبوطا. غير لأنني كنت واثقا من أنه مع الزمن سوف يتوصل إلى تصفية كل شيء في ذكرياته. لقد أوكلت لجيوليانو مسؤولية هامة وثقيلة في مرحلة صعبة، و بالتالي لم يستطع أن يتذكر كل شيء دفعة واحدة. لاسيما وأن هناك لحظات جد خاصة وحافلة بالأحداث الهامة و المتسارعة.

شهادته، التي كتبت فيما بعد توضح لنا أكثر كيف تم اتخاذ القرار، ومن ثم كيف تم تنظيم هذا العبور التاريخي، الذي يجب التذكير به، كان فريدا من نوعه في تاريخ حربنا التحريرية. فجيوليانو هو من استطاع أن يحلل ويضع في نسقها العام " معركة سوق أهراس "، إحدى أكبر المعارك التي خاضها جيش التحرير، مع معركة الجرف في الولاية الأولى ومعركة تيميمون في أقاصي الصحراء

وغيرها من المعارك الأخرى المعروفة وغير المعروفة. أثناء المعركة التي يرويها سالم جيوليانو، قائد الكتيبة المأخوذة من الناحية الأولى، تم تعيينه كمساعد للملازم الأول يوسف الأطرش الذي اصبح قائد فيلق لأن سيرين ومساعديه لم يكونوا قد استطاعوا الالتحاق بناحية العمليات التي خرجوا منها.

من مدرسة الضباط بسان ميكسان إلى " المواجن "

شهادات أيت مهدي مقران :

أود أن أغتنم فرصة تخليد معركة سوق أهراس، وقبل الدخول في صلب الموضوع لتقديم نفسي.. أنا واحد من الضباط الفارين من الجيش الفرنسي، كنت سجينا في " فرسن "، وبعد الاستقلال توليت منصب نقيب الدرك الوطني، تحصلت على شهادة المدرسة الوطنية لضباط الدرك الوطني الفرنسية بمولان، ثم عينت كقائد للتجمع الجهوي بقسنطينة.

كان الدرك الوطني بمثابة المؤسسة الرائعة التي انسحبت منها في جانفي 1968. وقد ساهمت في تأسيسها إلى جانب ضباط آخرين. وقبل هذا كنت طالبا بثانوية الذكور بالمنزل المربع المتواجد بالحراش حاليا.

بهذه الثانوية انشأ بن ايدير احمد رحمه الله سنة 1949، حينما كنا نستعد لامتحان البكالوريا، أول خلية لحركة انتصار الحريات الديمقراطية، وكنت أحد أعضائها. وسبق لصديقي أحمد بن ايدير، أن نشط جماعة وطنية بمدرسة بن شنب بالمدية، حيث كان طالبا إلى جانب الأستاذ أرزقي بوزيدة الذي كان يشغل منصب أستاذ داخلي بنفس المؤسسة.

آنذاك كنا نتناقش حول موضوع الظلم الاستعماري، ونقرأ جرائد حركة انتصار الحريات الديمقراطية، ثم نوزعها بين الأصدقاء الذين كنا نثق فيهم. وكان بن ايدير يزور مصالي الحاج، في بعض المرات، وكان يشجعني كثيرا في تكويني العسكري العالي.

وخلال دورة امتحان البكالوريا توفى والد صديقي اثر عملية جراحية بعيادة فيردان " ايت ايدير حاليا، وهو طبيب مجاهد سقط شهيدا سنة 1958 بالولاية الثالثة "، فتخلى عن دراسته ليتكفل بتجارة والده بأومال " سور الغزلان حاليا " بعد ذلك التحقت بمدرسة صف الضباط بشرشال، حاملا معي شهادة البكالوريا صنف القسم الأول " شعبة حديثة " مع سنة أولى دراسة بقسم الفلسفة، بعدها عينت في منصب بمدرسة أشبال الجيش القليعة، وكنت برتبة عريف. وفي نفس الوقت كنت أحضر نفسي لامتحان الدخول لمدرسة سان سير. غير أن قرار إرسالي رفقة أصدقائي إلى سان مايسكنت كان قد اتخذ، فشاركت في تربص الدفعة الأولى الذي آنيته بالحصول على رتبة ملازم.

ألقى علي القبض يوم 14 سبتمبر 1957 بدينان " فرنسا " بتهمة المساس بأمن الدولة، ومحاولة الفرار، وضعوني في السجن العسكري، ثم نقلت إلى سجن " فرسن " حيث كان يزورني أخي البكر أحمد. عندما أطلق سراحي، قررت الالتحاق بصفوف جيش التحرير الوطني، فنظمت أموري لذلك، وحينما أخبرت النقيب زرقيني بنيتي، طلب مني انتظاره ريثما يعود من سطيف حيث قصدها لزيارة عائلته.

في اليوم الموعود وجدنا من يتكفل بأمرنا اختبأنا في باريس، ثم توجهنا إلى بر وكسل، ثم إلى تونس، حيث التقينا بضباط آخرين فروا من الجيش الفرنسي" كانوا حوالي عشرة، من بينهم أحمد عقون، ومصطفى بن مصابيح، الذي استشهد في معركة الشرف " ورفقة هؤلاء، أعلنت عن التحاقي بالثورة عبر جريدة المجاهد. طلب منا إن كان يوجد متطوعون للالتحاق بالولاية الثالثة، أعطيت اسمي، فتبعني بن مصابيح المولود في معسكر، والضابط السابق في الجيش الفرنسي، وقام الأستاذ أرزقي بوزيدة بتسجيل التعيين، بعدها تم نقلها إلى غارديماو؛ حيث تحصلنا على أمتعتنا العسكرية، فنزعت ملابسي المدنية، وأعطيت لشخص يدعى محند أوشعبان الذي فقد ذراعه بالولاية الثالثة.

بعدها التحقنا بمعسكر المينا[1] حيث، كان يتواجد جنود الولاية الثالثة بقيادة حيدوش الذي استشهد في أوت 1959 بعنابة. بعد بضعة أيام قضيتها في هذا المعسكر، تم نقلنا بواسطة سيارات مدنية إلى معسكر زيتون الواقع في المنطقة الحدودية، فالقينا بالرائد بن سالم المدعو " سي عبد الرحمان " رحمه الله الولود بمنطقة سوق أهراس، كان يضع ربطة عنق، لا تفارقه أبدا. أثارني هدوءه، وحسن ضيافته، كما لفت انتباهي ميله للتدخين، وعصاه التي لا تفارقه أبدا. لعب الرائد بن سالم دورا كبيرا خلال الثورة، وبالأخص فيما يتعلق بنقل الأسلحة والذخيرة إلى ولايات الداخل. فر من الجيش الفرنسي سنة 1956 برتبة رقيب أول،على رأس جماعة من الجنود حملوا معهم أسلحة الكتيبة بكاملها، وكانوا قد أقدموا على تحطيم المعسكر الذي كانوا فيه. وخلال الثورة، كان الرائد بن سالم، أحد رفقاء العقيد محمد عواشرية.

كان برتبة رقيب أول سابق في الجيش الفرنسي قبل أن يفر منه عام 1956 و كان رفيقاً للرقيب الأول عواشرية، و أصبح فيما بعد قائداً لقاعدة الشرق برتبة عقيد. فرفقة العديد من العسكريين، حملوا كامل العتاد الحربي اللازمة لكتيبة، و هذا بعد أن قاموا بتدمير المعسكر. و لقد أدى الرائد بن سالم دوراً أساسياً، لاسيما في تزويد الولايات الداخلية بالرجال و بالسلاح.

بعد وصولنا بيوم، اتجهنا نحو خط موريس حيث سبقنا الرائد بن سالم، و كان هو المكلف بعبورنا.

و كان عبور الأسلاك الشائكة يتم بالواحد تلو الآخر في ليل دامس. لقد تم حفر ممـــرّ تحت الشبكة المكهربة الأولى التي كان ينبغي اجتيازها زحفاً و بالانبطاح أقصى ما يمكن وسط بركة ماء كان يسبح فيها المكان. سي عبد

---

[1] معسكر المينه مشكل من مـــقرات شاغرة تابعة لمنجم قديـــم، قريبة جداً من قرية سيدي يوسف التونسية، حيث نظم تجمع فصائل من الفيلق الرابع قبل العبور. كان يبعد بمسافة بضعة مئات الأمتار من المركز الفرنسي "الغوارد" المقام فوق الحدود بالذات. ربما هي إحدى الأسباب التي دفعت جيش الاحتلال لقصفها. (معلومة تكمل و تؤكد تلك التي جاء بها سالم جيوليانو).

الرحمان كان واقفاً و كانت معه عصاه كما كان دائماً. فجأة، تعالى صوت مدوي مزق سكون الليل و انبعثت رائحة شعر محترق. إنه أحد الجنود الذي صعقته الكهرباء. سي عبد الرحمان بن سالم بعصاه سحب الجثة ليفسح مجالاً للعبور. لحظة بعدها، جندي ثاني يلقى نفس المصير.

بمجرد الانتهاء من عبور الشبكة الأولى، وصلت دبابة، ماسحة بأضوائها الكاشفة كامل المنطقة التي كنا نحن متواجدين فيها (بين شبكتين مكهربتين). وقفنا جامدين مسمرين في مكاننا، فأفلتنا من أنظار الدورية. و نظراً للساعة المتأخرة (الرابعة صباحاً)، كان ينبغي قطع الشبكة الثانية و الانطلاق بأقصى سرعة ممكنة.

على الساعة السابعة صباحاً، وصلنا إلى بقعة خالية تماماً من التلال و الصخور و الأدغال، و تقطعها أودية صغيرة. بقعة لا شيء فيها يلائمنا. على مدى نحو أربع كلم رأساً كان يبدو لنا مركز عسكري. و فجأة رأينا طائرة استطلاع من نوع " بيبر " **Pipper** تتجه نحونا.

نسيت أن أشير إلى أن قيادة هذه الكتيبة (حوالي **150** رجل) التابعة للولاية الثالثة أوكلت للرقيب الأول حسين موستاش، المكنى هكذا لطول شاربه. هو واحد من قدامى مجاهدي الولاية الثالثة، جاء على رأس وحدة تموين بالسلاح.

كلفت أنا و بن مصابيح، بمساعدته. و كان أيضاً معنا الملازم الأول سي الطاهر من الولاية الأولى القاعدة الشرقية. الإستراتيجية الوحيدة التي كنا نرى فيها خلاصنا أمام الخطر الذي كان يداهمنا هي استراتيجية التفرق. يا ترى ما العمل أمام الدبابات التي بدأت تتحرك و أمام الطائرات التي كانت تصل بأعداد كبيرة (26 بين البي **B26** و التي**T6** و البيبر **Pipper**، من غير تعداد مروحيات " البنان " و " السيكورسكي "). أصدر إذن الأمر بالتفرق في شكل مجموعات صغيرة. و من جهتي، أعطيت الأمر لمجموعتي، التي كانت معي، بضرورة الحفاظ على الهدوء و الإسراع بالانبطاح على طول خندق طبيعي

عمقه 50 سم، و القيام بالحراسة بشكل دوري و الخلود إلى الراحة بما أن الأيام القادمة ستكون لا محالة شاقة و صعبة.

في آخر الظهيرة، اكتشفت موقعنا طائرةٌ مروحية، و فورها أخذت طائرة استطلاع من نوع " بيبر " متبوعة بأخرى من نوع تي 6 تتجه نحونا.

لحظتها أخذت قيادة المجموعة و هرولنا بأقصى ما استطعنا من سرعة بعدما قذفت "البيـــبـــر" بقنبلة يدوية مدخنة، خصيصاً لإعلان موقعنا لطائرة التـــي 6. و لما بدأت الطائرة تطلق رشـــاشـــها و قذائـــفها كنـــّا قد قطعنا مسيرة بعيدة.

كانت مطاردة جنونية استغرقت المدة التي استغرقتها بعض القفزات، إلى أن صارت بنا الـــتلعة عميقة حيث أوقف سباقنا جدارٌ من نبات العوسج الشائك. لم تعد الطائرات ترانا، و انبرت تحلق فوق رؤوسنا. الـــتي 6 واصلت إطلاق الرصاص عشوائياً ثم انصرفت. جندي واحد فقط أصيب بجراح. معجزة !

لكن لم يمض وقت حتى أقبلت مروحية " بنـــان " تضع عساكر على نحو مسافة 400 متر أمامنا، نسمعهم يتخاطبون بصوت مرتفع. أحدهم كان يهتف " مون كوموندان " بلكنة جنوب فرنسية قوية. صعدوا باتجاهنا و هم يطلقون الرشاش و يقذفون بقنابل يدوية في عمق الـــوادي.

مع اقتراب العساكر، على مقربة نحو مائة متر، قلت للجنود بأنه ينبغي الخروج و إطلاق الرصاص على الرائد و رجاله. المجاهد القديم الذي أصيب بجروح منذ حين قال لي: " يا سي مقران، لازم نبقوا هنا و نتكلوا على ربي. " موافق، أخذت برأيه و بقينا صامتين و منتظرين بقية الأحداث. عند وصولهم على مقربة منا، أضرموا النار في مشتى قريبة منا. ثم دوي صوت صفارة ظنت أنه إيذان بالاستسلام. لم يبق إلا خمس دقائق لتغرب الشمس. خرجنا من مخبئنا و رحنا نستطلع المواقع ليس ببعيد عن المكان حيث تدخل الطيران بكثافة.

عثرنا على عدد من الجنود ممن استشهدوا في ميدان الشرف، و قد خلعت منهم بدلاتهم و أحذيتـــهم.

اتجهنا فيما بعد نحو مشتى وجدنا أحد الأهالي واقفاً أمامها. هذا الأخير أدخلنا إلى بيته و قدّم لنا قليلاً من الكسكس و قهوة و سيجارة لكل واحد. طلبنا منه أن يرافقنا و يدلنا إلى حيث ننأى عن المنطقة و يتاح لنا أن نتصل بجنود الناحية أو أن يقودنا إلى مكان ملائم. رّد علينا بأن العساكر رابضون في كل مكان، فاقترح علينا أن يخبئنا داخل خـــفـــر يبعد مسافة عشرين دقيقة من هناك، في بقعة خلاء. عند وصولنا إلى المكان، دخلنا، وجدنا أن الحفر يكفي لاحتوائنا بوضعية القرفصاء. أعاد صاحبنا الحجرة الكبيرة ليصد بها المدخل و ولّي راجعاً.

عند طلوع الفجر، سقطت عدة قذائف فوق رؤوسنا و ظلت أصوات عساكر تقترب أكثر فأكثر، إلى درجة أننا بدأنا نشك في الثـــقة التي وضعناها في مُضيفنـــا.

أعطيت تعليمات بشأن السلوك الذي ينبغي إتباعه في حالة انكشاف أمرنا، لكن لاشيء من هذا حدث. توقفت الانفجارات و انطفأت الأصوات قبل أن تختـــفي نهائياً.

عند حلول الليل، جاء مغيثـــنا مغتبطاً بلقيانا و رافقنا في مشوار استغرق كل الليلة. عثرنا على الناجين، من بينهم حسين موستاش و اعمر صاحب الرشاشة الألمانية " أم جي 42".

واصلنا مشينا، و عادت الاشتباكات من جديد. مواجهات جسدية غير منتهية، و هجمات مدفوعة و مجددة لفك الحصار من الجهتين متوالية، تتخللها خدع و مكائد فعالة.

بالنسبة لكتيبتـــنا التابعة للولاية الثالثة، كانت النتائج معتبرة بالنظر إلى الظروف التي جرت فيها المعركة غير المتكافئة البتة، حيث لم يخفف من حجم عواقبها سوى استراتيجية التفرق المنتهجة.

عدد الناجين هو ثلاثون رجل. بن مصابيح مصطفى كان سقط في ميدان الشرف يوم 29 أفريل1958. اليوم مدرسة الدرك الوطني في سيدي بلعباس تحمل اسمه.

محتمل أن عملية العبور هذه قد جندت من ألف إلى 1300 مجاهد و تمت على طول عدة نقاط من خط موريس، أيام 28، 29 و 30 أفريل و من أول ماي إلى الثالث منه عام 1958.

بداية من يوم الثامن و العشرين أفريل إلى غاية الثالث ماي، خاض فيلق من جيش التحرير، مدعماً بكتيبتـــين، معارك خارقة لفك الحصار على أبواب سوق أهراس.

لا شك أنها إحدى أهم المعارك في تاريخ كفاحنا المسلح. و لولا جسامتها و هولها لما قرر الجنرال فانوكسن، قائد ناحية الشمال القسنطيني أن يتدخل شخصياً. لقد سعى الجيش الفرنسي للقضاء نهائياً على وحدات جيش التحرير التي عبرت الحاجز، و هذا من خلال تكثيف مجهزات التطويق البري بشكل مثير للغاية، الشيء الذي كان مفروضاً أن يـــسهل إعداد و نشر قوات التدمير من خلال إقحام الفرق المظلية الصاعقة، مدعمة بوسائل قذف جوية و مدفعية هائلة.

كان القتال ضارياً في مواقع عديدة، لأن المعركة كانت غير ممركزة على مستوى كل عنصر من العناصر المشتبكة.

إن عدد القتلى، الذي بلغ حوالي 600 من جانب جيش التحرير مع انعدام وجود أسرى، ليشهد على روح التضحية لدى الجنود و إيمانهم بقضية الاستقلال.

لتكن لنا هنا وقفة تذكر و ترحم على أرواح من سقطوا بكل بطولة و لنحي بأعلى صوتنا قدومهم في الفداء.

كان انتقالنا إلى حدود الولاية الثالثة من أقسى ما امتحننا به في حياتنا. كنا نقطع مسافات طويلة، أحياناً بخطى "جـــمبـــازية" كي نصل إلى المكان الآمن

قبل طلوع النهار. كنا قليلي النعاس. حدث لي أن نمت و أنا ماشي، للحظات، من دون أن أفقد حواسي و يقظتي مع ذلك. شيء لا يصدق. أحياناً كانت أقدامنا تترف دماً لطالما انعدمت أيام الراحة أو كادت تكون منعدمة. للتخفيف من عذابنا، كنا نستعمل عشبة (أماغرمان) نضع أوراقها تحت القدمين بداخل الحذاء، إلى أن تفـــقد مفعولها. هذه العشبة تدمل الجلد و تقويه بعض الشيء و تـــقـــلّل من التعرق و تـــخفـــف من الألم.

كانت قساوة بعض من المشاوير بالغة، لأننا كنا نمشي عبر الأدغال، خارج الدروب تجنباً لمناطق الخطر، وسط أجواء عاصفة و ليالي حالكة الظلام، و الرياح العاتية التي كانت تفرض علينا أن نتماسك في الكتف. أحياناً كنا ننام في مخابئ من تلك التي يجهزها المجاهدون في المناطق المحرمة و أحياناً أخرى في بيت صاحب المشتى. رغم التعب، إلا أن الإيمان حوّلنا و قوّانا و لا تصدق روح الإقدام التي صارت تحذونا و نتحمل بفضلها وزراً لا تطيقه النفس البشرية. و يبقى الإنسان مذهولاً أمام الطاقة الكامنة في داخله لما يظل متمسكاً بقضية مقدسة و بإيمانه.

اللقاء مع العقيد عميروش، رحمه الله، تم في بونعمان. طرح عليّ بعض الأسئلة ليطلع على أخبارنا ثم قال لي: "خذ راحتك".

خلال نفس السنة ــ أي سنة1958 ــ حصل لي الشرف أن رافقت كلاً من الرائد سي عمر أوصديق، رحمه الله و الرائد عز الدين الذي كان عابراً لمنطقة عين الحمام قاصداً تونس و أشرفت على حراستهما.

إثر جروحي أثناء المعركة، بقيت فترة طويلة أعرجاً. إعادة التأهيل الوظيفي كانت تقام في الميدان و من دون عناية كافية. كنت وقتها أشغل منصب مسئول ناحية، تباعاً في منطقة عين الحمام، ثم في وادي الصومام، بجاية و أكفادو، مينجو، دراع الميزان، بوغني، سيدي علي بوناب، بومهني، إلخ.

حدث لي أن نشطت في المناطق المذكورة أثناء عملية جومال و بعدها.

شهادة باتريك شارل رونو بخصوص السلاح الجوي المستخدم في معركة المواجن المعروفة باسم "معركة سوق أهراس"

في منطقة سوق أهراس ذات التضاريس الوعرة، الخط الذي يرسم حدود الحاجز يوازي تماماً خط السكك الحديدية الرابط بين بونه و تبســـة. يبعد عن الحدود بمسافة 30 إلى 40 كيلومتر، أي بحوالي مشوار مشياً على الأقدام. في الفترة الممتدة مابين نوفمبر1957 و فبراير 1958، جميع نشاطات الوحدات الفرنسية تم توجيهها لاعتراض سبيـــل " العصابات " القادمة من تونس و كذا قوافل من المجندين الجدد المرسلة إلى الشرق للتـــزود بالسلاح و لتطوير عملها التنظيمي. المظليون و معهم وحدات القطاع قضوا على جل العصابات المحلية الواحدة تلو الأخرى، و كذا على تلك القادمة من تونس.

كان لزاماً على الثوار، كي يتمكنوا من إدخال الرجال و السلاح إلى الجزائر، أن يعيدوا قبل كل شيء نشر الوحدات المحلية المدربة و المسلحة جيداً على الجهة الغربية من الحاجز، لضمان سلامة " العصابات " التي قد تتوصل إلى اجتياز العقبة. خلال شهر مارس، كان جيش التحرير الجزائري قرر إنشاء فيلق جديد يحظى بتأطير قوي للغاية و بتسليح قوي كذلك، تم تشكيله بانتقاء مجموعة من مقاتلي النخبة التابعة لوحدات القاعدة الشرقية الأخرى. و يضم حوالي 400 رجل، و مزود بما لا يقل عن 12 رشاشة و 24 بندقية رشاشة. و يمثل الفيلق الرابع للقاعدة الشرقية.

المعلومات الأولى الخاصة بتشكيله جمعها المكتب الثاني التابع لفرقة المشاة الثانية بتاريخ 23 مارس. في شهر أفريل، وردت أخبار من فارين و مخبرين أتت بتوضيحات إضافية. في يوم 24 أفريل من عام 1958، في الوقت الذي كان الفيلق الرابع يغادر تونس، كل أسماء قادته و عدده وعدته و كذا الخطوط الرئيسية لمساره و مهمته أضحت معروفة. كان يستعد لعبور الحاجز بأعداد كبيرة، و في دفعة واحدة من الجهة الجنوبية لسوق أهراس. عدة " عصابات " استغلت الفرصة للإقتداء بها. و وصل عدد الرجال الذي يستعد جيش

التحرير لتفريغهم في الجزائر خلال الأسبوع الأخير من شهر أفريل 1958 حدود الأربعة آلاف رجل[2].

في الليلة ما بين 27 إلى 28 أفريل 1958، تعرض الحاجز إلى هجوم على ثلاثة مواقع مختلفة. في بداية الصبيحة، استطاعت طائرة من نوع " بيـــبـــر " أن تكتشف الثوار فوق جبل أروس. نودي على أجهزة المطاردة لتثبيت الخصم في مكانه ريثما ينتهي مظليو الـــكومندوس التابع للفوج التاسع مناوراتهم استعداداً للمجيء. و تم القضاء على " العصابة " المحاصرة تقريباً بكاملها. في الغد، تم الشروع في البحث عن أنقاض " العصابة " التي اعترض سبيلها بالأمس. إلا أن فرقة ذهبت لاستكشاف الحاجز اكتشفت عند الفجر فتحة في الأسلاك الشائكة على بعد أربعة كيلومتر جنوب سوق أهراس. الحاجز الكهربائي لم يطرأ عليه شيء لأن العبور تم من تحت، عبر ثلاث حفر صغيرة من 60 إلى 80 سم في العرض و من 30 إلى 40 سم في العمق، و متباعدة الواحدة عن الأخرى ببضعة عشرات الأمتار. الإنذار الكهربائي لم يـُعطَ إذن. الآثار الواضحة جداً التي لوحظت فوق الأعشاب توحي بأن الأمر يتعلق بعصابة كبيرة العدد.

على الساعة الثانية و الربع زوالاً، أقلع الكولونيل دي كوكبورن، نائب الجنرال قائد فرقة المشاة الثانية، من سوق أهراس على متن مروحية من نوع " بيل " التابعة لوحدة المروحيات رقم 2. و ما أن غادر مسلك المطار و وصل إلى منتصف وادي مجردة، حتى أصيبت الطائرة بطلقات أسلحة أوتوماتيكية صادرة من نقطة رقم 721 على بعد 6 كلم جنوب غرب سوق أهراس. القذيفة انفجرت دون أن تمس قائد الطائرة و راكبها، لكن " العصابة " انكشفت.

---

[2] هذا الرقم خاطئ. لم يكن هناك في الحقيقة سوى 1200 جندي، الكتيبتان التابعتان للولايتين الثانية و الثالثة. و إن عبور الحاجز قد تم خلال ليلية واحدة و ليس خلال أسبوع، كما أورد كاتب الشهادة.

في الحقيقة، و عكس ما قد نذهب إليه، لم تبتعد عن الحاجز. ظلت تحوم على مقربة من مدينة سوق أهراس فوق المرتفعات المطلة عليها.

كان للكولونيل بيشو، قائد فوج الكومندوس التاسع، رد فعل في الثواني التي تلت و قرر إرسال فرقة مظليين على مروحيات. جاء يغطي منطقة نزول المروحيات بمولدات الدخان، فتلقى وابلاً من الرصاص من قبل الثوار. و أصيبت الطائرة عدة مرات. طائرات التسي T6 من السرية 72/12 التي توجد قاعدتها ببونه، قامت بإطلاق رشاشها صوب الأحراش لتنقية القطاع.

الدورية الأولى لطائرات " البنـــان " الستة تقترب. المروحيات ذات الـــدوّار المزدوج تموقعت في منتصف الـــمَضاءة و ما أن قفز المظليون حتى صبت عليهم حمم من النار. أصبح بإمكان الطيارين أن يروا جيداً انفجار الإنطلاقة التي تصدرها البندقيات و الأسلحة الأتوماتيكية. و رغم المحرك، كان يصلهم صوت الرصاصات في الطائرة. ثواني من بعد، الملازم هوسر، الذي وصل في المركز الثالث، رجع إلى داخل طائرة الشحن للتحقق من خروج جميع أفراد الكومندوس. و رأى إثنين منهم مـــمـــددّين سابحين وسط دماءهم. فعاد يقلع آملاً من أن الأجزاء الحيوية لطائرته لم يصبها ضرر، ثم إلتحق بميدان سوق أهراس، الذي يبعد بمسافة 6 كلم. الوضع خطير، يستدعي تحضير الدورية الثانية و الذهاب لنجدة الستين من المظليين التائهين وسط المئات من " الفلاقة " المسلحين جيداً. لا شك أنه الفيلق الرابع الذي كانت مصالح الإستخبارات الفرنسية على علم بتكوينه.

عادت الدوريات مع خمس طائرات " بنـــان " إضافية تابعة لوحدة مروحيات تبسة التي استولى عليها الكولونيل بيشو بعد أن حولـــها من مهمتها الأصلية. أعضاء الـــفرقة التي استعدت للدخول إلى طائرة الملازم هوسر لم يطمئن لهم بال أمام مشهد رفيقيهم و هما يخرجان مضرجين بالدم.

على قمة جبل المواجن ، كانت الكتيبة الثالثة التابعة لفرقة الكومندوس التاسعة التي يقودها النقيب بومون، محاصرة. لقد وجدت نفسها محاصرة بين

كتيبتين من كتائب الثوار الذين كشفوا أنفسهم بعد نهاية الإنزال. بومون تفطن فوراً للوضع. بما أن الثوار صدوا كل طرق الشرق و الشمال و الغرب، بقي الخلاص في المحاولة عبر الجنوب. اقترب الثوار من المظليين متحايلين بالرغبة في الإستسلام. لكن مناورتهم، من خلال استعمال الصفارة، كشفت عن وجود موجة ثانية مكلفة بالهجوم. لثلاث أو أربع مرات، خرج " الفلاقـــة " مهاجمين بينما الحصار ظل مستمراً في التضييق. أعطى بومون أمراً بالإحتشاد ثم بالإقتحام و أخيراً بالتراجع نحو الجنوب. و لقد قـــُتـــل بعد أن انتهى من اصدار أوامره.

بدأت حركة الطيران تشتد. الطيارون رأوا أعداداً هائلة من الثوار. و ظهرت في السماء طائرات البحرية التابعة للأسطول الرابع عشر الذي يقوده الملازم ريـــشـــبي. أثناء عمليات الـــقصف الإنقضاضي أو النفاثات [3]، تفرز أجنحتها خيطاً من الدخان أبيضاً في الأطراف تشكل سحب تكثيف بخار الماء في الهواء.

من جهته، الملازم الأول شامبون موجود على رأس أربع طائرات من نوع تـــي 6 التابعة للـــسرية 72/17. في مروج الجبل، تبـــينت له بوضوح جثث المظليين عارية، مذبوحة و مصطفة. النقيـــب " بارج " الذي يقود طائرته 72/12، و معه مساعده الملازم فيسلر، أطلق عدة قذائف و صب رشاشه على الأحراش الغاصة بالثوار، و هو يدل على طائرات الكورسير و الـــبي P47 و الميسترال التابعة للـــسريات المطاردة 6/2 نورماندي نيمان التي جاءت للإستغاثة. و كذلك الـــبي B26 التابعة للـــفيلق GB 91/1 كانت تزمجر هي الأخرى في السماء. إنها حرب جوية بأتم معنى الكلمة.

وسط هذه الأسراب المزمجرة حيث اختلطت كل أنواع الطائرات بعضها ببعض، بدأت طائرات " البيبر " (التابعة لفرقة المشاة II/DI PA) البطيئة تتحرك مع " البروسار " التابعة للـــ EL O3/45. على متن الألـــ L9 كان

---

[3] Ressources ، تـــفريغ غازات بعد الـــقصف الإنقضاضي.

مارشـــال الـــتموين العسكري بـــوربي يحلق فوق وادي. الـــملازم ديلالوا، مراقبه، الذي كان جالساً خلفه، رفع النافذتين الجانبيتين لينظر يميناً و شمالاً. كما فك حزامه كي يقدر على التحرك بحرية فوق مقعده. بواسطة الأنترفون، بإمكانه أن يبلغ القائد ثمرة مشاهداته التي تذاع مباشرة للقاعدة.

نزل بوربي إلى مستوى مائتي متر من عمق الوادي لما اهتـــز صوت مساعده في مكبرات الصوت التي في سماعته الرأسية.

- رشاشة تحت !

لم تكن للأسف الوحيدة. هناك ستة مثلها على مقربة من الأولى، دون تعداد تلك المشتغلة بالبطارية المترامية على السفوح، على نفس مستوى ارتفاع " البيـــبـــر " الـــهـــش أو أعلى. الطائرة التي تطير بسرعة لا تتجاوز 150 كلم في الساعة أصبحت هدفا لعدة أسلحة أوتوماتيكية استطاعت أن تخترق حجرتها بحوالي عشرين رصاصة. بوربي نفسه أصيب بإصابة خطيرة على مستوى الساق. بقعة حمراء بدأت تنتشر و بللت زيـــه الخاص. و لم تمر لحظات حتى أصبحت أرضية الطائرة كلها تسبح في بركة ؛ و صار بوربي يجد كل الصعوبة للمسك بمذياعه لشدة الألم الذي ألـــمّ به. لحسن حظه المطار لم يكن بعيداً، لكن احتلته ثمانية عشر " بنـــان " جاء بها الكولونيل بيشو. الهبوط تم بصعوبة بمساعدة الـــملازم ديلالوا الذي تمكن من توقيف "البيـــبـــر" أمام عود خشبي رائع[4] وسط الغابة المكتظة بالمروحيات. فنُقل الماريشال في التو إلى مستشفى سوق أهراس على متن سيارة " الدي شوفو " **deux-chevaux** " التي يملكها النقيب رباني.

من الأرض، ظل " الفلاقة " يطلقون النار على الطائرات التي تنزل عليهم رأساً. طائرة النقيب بارج من نوع ي6 أصيبت بستة عشر قذيفة، فاضطر للهبوط بطريقة كارثية فوق مطار سوق أهراس الصغير و المكتظ. مساعده

[4] حاجز خشبي يقام لصد الطرقات.

أيضاً اصيب لست مرات. طائرتان إثنتان من نوع " كورسير " كشفـــتـــا على الترتيب عن أحد عشر و ستة ثقوب تحت سقـــفهما. عدد قليل من الطائرات استطاع أن ينجو من رشاشات العدو، حتى " الميسترال " النفـــاثة، أصيبت منها طائرتان. إحدى الـــبي26B رجعت بأحد عشر خرقاً و محرك مشطوب عليه (أي متوقف) و الهياكل المصفحة مثقوبة من أحد الجوانب بينما طائرة أخرى، رافعتها الميكانيكية كانت قد أتلفت، حطت بصعوبة بالغة في بونه.

لمواجهة هذا الهجوم الذي شنه جيش التحرير الجزائري و الذي لم يسبقه مثيل، تم تجنيد و شحذ فوجين إثنين من المظليين. و جاء مطاردو الفوج الرابع لكومندوس المظليين و ألوية فوج المظليين الأجانب لمساعدة رفقاءهم من فوج الكومندوس التاسع، الذين يعانون الأمرين و يقاتلون في مواجهات جسدية فردية مكلفة كثيراً للأرواح. كل الوسائل المتاحة موجهة نحو سوق أهراس. معارك بلغت درجة عنفها حدها الأقصى تتواصل إلى غاية غروب الشمس، حيث ساعتـــئذ يقام تطويق حول المنطقة. في آخر النهار، كانت الحصيلة ثقيلة بالنسبة للقوات الفرنسية : 20 قتيل، من بينهم ثلاث ضباط من الفوج التاسع لكومندوس المظليين، 18 مفقود أعدوا من تعداد القتلى، 33 جريح. أما " الثوار " فكل الخسائر التي تتكبدوها لا تتعدى 30 رجل و بعض الأسلحة.

أثناء الليل، تم الإبـــقاء على الحصار المشدد، بمعدل 26 كتيبة على طول 13 كلم. 150 سيارة، منتشرة على طول الطريق، من 20 إلى 30 متر، بأنوارها المشتعلة، كانت تضيء الناحية الشرقية التي من يحتمل أن يخرج " الفلاقـــة ". لعشر مرات حاول الفلاقة اختراق الحصار.

عند فجر يوم 30 أفريل 1958، عادت الحركة من جديد. و كانت تتمثل في تنقية كامل القطاع الرابط بين طريق سوق أهراس ـــ سدراتة و الحاجز، بالعمل على استدراج الثوار نحوه. و كانت المعارك حامية الوطيس طيلة النهار.

الوسائل الجوية التي وفرتها القوات الجوية و البحرية يومي 29 و 30 أفريل 1958 كانت ضخمة : 8 ميستراك، 14 كورسير، طائرتين إثنتين من نوع P4، سبع من نوع B27 ثلاث بروسار[5] 44 تـــيT6 و طائرة واحدة سي C47 التي كانت مهمتها تكمن في إطلاق قطارب مضيئة فوق منطقة المعارك ليلاً. كما كان للطيران الخفيف التابع للجيش البري مشاركة فعالة في المعارك بطائراته " بنان " الثمانية عشر و الأخرى من نوع " بيبر " التي أصيب معظمها.

لم يبق مجال للشك من أن الحجم الأكبر من الخسائر التي تكبدها الثوار سببها الطيران الذي كان نشاطه كثيفاً. فهو الذي اكتشف مواقع " العصابات " و ثبتـــها في مكانها في انتظار إقامة التطويق، و هو الذي وفر الدعم الحاسم للوحدات المحاصرة و المهاجمة من طرف الثوار. كما سمحت بتعويض الضعف[6] العددي للوحدات الموجودة في البـــر عند بداية المعارك.

في أول ماي 1958، و في الهزيع الأخير من الليل، عصابة جديدة من الثوار عبرت الحاجز[7] باتجاه شرق - غرب، من جديد جنوب سوق أهراس، في نفس المكان الذي تم فيه العبور في اليومين الماضيـــين. و في الحين قرر اجراء استطلاعات جوية و برية. و على الساعة التاسعة و النصف، طائرة من نوع " بيبر " تابعة للـــ PA II لفرقة المشاة أعلنت عن وجود عناصر من الثوار في شعبة البيوض، شرق نقطة رقم 721. فقرر تجنيد مكثف للمدفعية، متبوع بحركة جوية نـــُفذت بينما كانت الفرق البرية تموقع نفسها. العملية نفذت بنفس الطريقة التي نفذت بالأمس.

---

[5] طائرة خفيفة للإستكشاف و ضبط المدفعية.

[6] بالعكس، إن تفوق الوحدات الفرنسية كان جلياً.

[7] خطة التـــفرق المنتهجة بعد العبور و ضراوة المعارك أعطت انطباع عن حدوث عبورات متوالية. إن عبور الألف و مائـــتي رجل تم في الليلة الواحدة ما بين 27 و 28 أفريل.

و تتمثل في استدراج الثوار نحو الحاجز. أثناء النهار، يقوم المظليون و المشاة بدفع " الفلاقـــة " الذين لما شعروا بوقوعهم في الفخ، انزلقوا جنوباً و صعدوا من جديد إلى جبل المواجن المشئوم الذكر. على الساعة الخامسة زوالاً، تمت محاصرة جميع الثوار. كان تدخل الطيران مكثـــفاً، سيما بإطلاق قنابل النبالم[8]. الحركية الجوية تبـــيّـن أنها مهمة جداً و دقيقة بالنسبة للاشتباكات العنيفة الدائرة. طائرتان إثنتان فقط من نوع " ميسترال "، تابعتان للـــسرية المطاردة السادسة، أصيبتا بإصابات خفيفة. على الساعة السادسة، مرّ فوج ألوية المظليين الأجانب الثاني إلى الهجوم نزولاً من جبل المواجن . عند حلول الليل، كان قد فصل في الأمر فصلاً نهائياً.

اليوم الثاني من شهر ماي خصص للبحث عن المعلومات و تفتيش منطقة العمليات للأيام الثلاثة الأخيرة لغرض تحديد مكان وجود الناجين الذين نجوا من عملية التدمير. كان فوج الكومندوس التاسع محطاً الرحال في سوق أهراس في الوقت الذي كانت فيه ألوية الفوج الثاني منشغلة بتـــنـــقية جبل المواجن . الـــفوجان الرابع عشر و الثامن عشر وصلا للدعم و انطلقا في عملية بحث شاملة في المكان المسمى " كف الأقص "، دون العثور على شيء يذكر. في حدود الساعة الحادية عشر ليلاً، وصل من سوق أهراس خبر هام. يشيـــر إلى وجود ثوار في مشتى بسباسة، على مقربة من كف الأقص، ما بين 100 إلى 120 ناجي من معارك الأيام الماضية، من بينهم احتمال وجود يوسف الأطرش، مساعد عسكري للفيلق الرابع لجيش التحرير.

أمام أهمية و قيمة الخبر المتلقي، و رغم الساعة المتأخرة و قلة الوقت، قرر التحضير لعملية يتم الشروع في تنفيذها مع طلوع الشمس. على الساعة الخامسة إلى الربع صباحاً، بدأ القصف الجوي على الجبال و السهول. ثم انطلقت حركة التطويق تم خلالها مطاردة كتيبتي يوسف الأطرش (الأولى و الثانية) إلى مرتفعات جبل أوراس، و هي منطقة جبلية كثيفة الأشجار و يكاد

[8] سلاح محظور بموجب معاهدة جـــنـــيف.

لا يدخلها أحد، جبلها الرئيسي يمثل شكل قوس. دخل مظليو الـــفوج الرابع عشر في مواجهات فردية شديدة ساخنة، تحت الحرارة الشديدة و وسط غابة كثيفة الأشجار. في آخر الظهيرة، و بينما كان " القبعات الحمر " قد أنهكهم التعب، قام تدخل جوي بقصف الأحراش المخضرة العاجة بالفلاقة بالنبالم.

أحياناً كان عليهم بالزحف ليشقوا طريقاً وسط الأشواك. القتال بلغ الآن حدوداً مروّعة. الفلاقة الذين كانوا مختبئين و رابضين وراء الأشجار و الصخور، صاروا يتممدون في كومات الحشائش و الأحراش. في بعض المواقع من هذه الغابة الكثيفة تظهر فوق آثار سقوط القنابل خروقٌ صغيرة مفحمة تستهوي الإنسان لعبورها اتقاءاً للأشواك. أمر منبوذ لأن العدو يتربص في الجهة الأخرى. فلقد أصيب مظلي عدة مرات على مستوى الفخذ بعد اجتياز أحدها. و مات متأثراً بجراحه.

إن الحجم الأكبر من الحصيلة كان بفضل الضربات الجوية. أثناء عملية التطويق النهائي، كان لا يزال عديد من الثوار محبوسين بالداخل. الفرق البرية كانت قد فكت الخناق، سامحة هكذا بالمعالجة الشاملة للميدان بواسطة وسائل جوية قوية جداً و بالقضاء على كل مقاومة.

في إطار هذه العملية، الأرجح أن مصرع يوسف الأطرش، مساعد قائد الفيلق الرابع لولاية سوق أهراس، كان بسبب القصف المكثف على المشاتي الذي قامت به طائرات B26 التابعة للـــ 91/1 GB غاسكون.

في هذا اليوم الثالث من ماي، سجل تدخل 11 بي B26، و ثمانية P47 و تسعة و عشرين ميستران، و ثمانية كورسير و 16 تيT6 و بروسار واحدة.

العمليات التي جرت في أيام ما بين 28 أفريل إلى 3 ماي 1958 دخلت في تاريخ حرب الجزائر تحت تسمية معركة سوق أهراس."

بهذه الشهادة فضلت أن أختم مذكراتي في الكفاح، التي قد يبدو فيها بعض ما يوشي بالتكرار لأن الحرب كانت طويلة للجميع، مليئة بالإفك و الإستزاف،

لكنها مدرسة تكوين فعلية بالنسبة لإطارات جيش التحرير و للجنود الذين أردت أن أكون ناطقاً باسمهم جميعاً. إن الأجيال الصاعدة لم تشارك في هذه الحرب؛ فهي في نظرها جزء من تاريخ بعيد و ولّى، و لكن ما ينبغي أن يعرفوه هو أن البلد الذي يعيشون في كنفه كان تأثر كثيراً بسنين الحرب السبعة هذه، فكم من الرجال أفدوا بحياتهم و كم من الجراح تلقيت و ردّت للذين كانوا يسببونها. المتحدث هنا من الذين كتبت لهم النجاة، يتحدث باسم كل الذين كتبوا ملاحمهم و ماتوا، و لا قنطوا، من أجل قضية أصبحت علة وجودهم.

فهرس المحتويات

مقدمة	7
ملاحظة المؤلف	17
تمهيد	19
التعريف بمنطقة العمليات	3
التحلي بالوعي	37
التكوين	41
تعييني في المنطقة الأولى	47
نائب عسكري في الفيلق الثالث عشر	95
قائد الكتيبة الثقيلة للمنطقة	105
على رأس الفيلق الخامس و العشرين	129
معركة جبل بوعباد	135
معركة المواجن المعروفة بمعركة سوق اهراس	143

أنجز طبعه بمطبعة عمار قرفي- باتنة